الدكتورة: عمارية حاكم

أستاذة اللسانيات بكلية الآداب واللغات والفنون

جامعة سعيدة – الجزائر

الخِطَاب الإِقْنَاعِي فِي ضَوْءِ التَّوَاصُل اللُّغَوِي

دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحَجَّاج بنُ يُوسُف الثَّقَفِي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

[الآية 11 من سورة المجادلة]

شكر وعرفان

إن خير فاتحة افتتح بها بحثي هذا هي الحمد والشكر لله، باسط العلم وفاتح الخير الذي أعز العبادة وأكرمهم بعلمه الوافر.

أشكره تعالى على نعمه التي لا تنتهي، وأحمده على ما وهبني من التوفيق والسداد، وعلى ما منحني من الرشد والثبات، وعلى إعانته لي على إنهاء هذا العمل المتواضع. فالله الحمد حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على خير المرسلين سيد الخلق محمد الأمين صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان من الفضل شكر ذويه فإني أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الصادق لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض على توجيهاته الصائبة ونصائحه القيمة ومساعداته العظيمة لإخراج هذا البحث إلى نور الوجود.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور رمضان كريب الذي كان عونا لي في كل خطوة من خطوات هذا البحث بنصائحه وتوجيهاته ومساعداته.

عمارية حاكم

إهداء

إلى الغالية هبة سلطان ومنة الرحمان.

أمي التي نامت عيونها نومة أبدية قبل أن تكتحل عيناها بهذا الصنيع.

إلى **أبي** ذلك المعين الذي لا ينضب حباً وعطاءً ودعاءً.

إلى كل الذين قاسموني حلاوة الدنيا وهونوا علي مرارتها... **إخوتي**.

إلى كل من علمني حرفاً فوقفت على أعتاب عطاياه شاكرة...

أساتذتي ومعلميّ

عمارية حاكم

مقــدمـــة

حين فكرت في دراسة الخطاب الإقناعي موضوعا للبحث لم أكن حينها قد وقفت عند الإشكالية الجوهرية التي يثيرها، فقد بـــدت لي الإشـــكاليات كثيرة إلى حد يصبح فيه كل ما له علاقة بالخطاب الإقناعي والحجاج وتاريخ الخطابة إشكالية، بدءا من أزمة الاتصال اللغوي.

ولقد استوقفتني أسئلة كثيرة متعلقة بأزمة التواصل مثل دور الخطيـــب فيها وعلاقته بالسلطة السياسية والدينية وكذا الاجتماعية، وطبيعـــة تلـــك الخطب التي كانت تلقى في المحافل أمام حشد من الجماهير وأشكالها وعلاقتها بنصوص الثقافة الرسمية، وبالقرآن الكريم ومرجعياتها الحقيقية وكيف كـــان دور الثقافة العربية الإسلامية في الحكم على الخطابة والارتقاء بها إلى مرتبـــة «فن القول» وكذلك دور المتلقي وعمليات التأويل الخاصة به.

ولقد اعتاد الدارسون العرب المحدثون ومن تبعهم في ذلك على معاملـــة النصّ الخطابي الإقناعي نفس معاملتهم للنص الشعري أو أي نـــص إنـــشائي آخر، وهذا يجافي الروح المنهجية التي تقتضي أخذ طبيعة الموضـــوع بعـــين الاعتبار عند تحديد منهج دراسته.

ومن أجل تلك المعاملة فصل أرسطو الخطابة عن الشعر، وألف في كل منهما كتابا مستقلا، وتبعه في ذلك الفلاسفة المـــسلمون، فحرصـــوا علـــى التفريق بين طبيعة الشعر الذي يهدف إلى التخييل الذي هـــو تـــرويح عـــن النفس، وطبيعة الخطابة الهادفة إلى الإقناع الذي يستوجب التصديق والقيـــام بالفعل حسب الأحوال والاحتمال.

أما البلاغيون فمنهم من تنبه للخصوصيات، واعتبرها عند تأليفه، مثل قدامه وابن رشيق وإسحاق بن وهب، ومنهم من لم يهتم بالتمييز إلا بشكل ثانوي خارج عن بناء مفاهيمه البلاغية مثل ابن سنان الخفاجي وأكثر المشتغلين بالإعجاز، ولقد كان لذلك انعكاسات سلبية وإيجابية، ثم إن دراسة الخطاب الإقناعي قد صارت من الأولويات في العصر الحديث، لذلك استعانت بالبحوث الاجتماعية والنفسية.

ولقد أثار حيرتي انقطاع دارسينا عن دراسة النثر واهتمامهم بالشعر، وتراثنا النثري -كما هو معروف- يضاهي التراث الشعري، والحال أننا نجد فنونا أدبية تستقل بمناهجها الخاصة بها؛ مثل الرواية والمسرح، وتبذل فيها جهود تبرز خصوصياتها وفعالية مناهجها.

ومن هنا فإن دراسة الخطاب الإقناعي دراسة شعرية لا تعدم الشرعية بصفة مطلقة، ولذلك وقفت عند كلّ عناصر الشعرية التي رأيت أنّ لها ضلعا في التأثير والإقناع، ولهذا تناولت بالتحليل ثلاث بنى؛ بنية التكرير، بنية الازدواج، بينة التوازن.

ولأن موضوع -الخطاب الإقناعي- حسب اطلاعي على المواضيع الأكاديمية المقدمة بجامعتنا -لم يتطرق إليه أي باحث نذرت نفسي لتحمّل عبء الزيادة وسد الفراغ حسب استطاعتي- دون تهميش للبلاغة العربية أو بعد عن النص الخطابي العربي.

فكان أن اخترت بعض النماذج من خطب الحجاج بن يوسف الثقفي الذي لا تنظر إليه الكتب -غالبا- إلا كرجل سيف وحرب...

وسبب اختياري لهذه النماذج هو أنها تساير ما عهده المتلقي العربي منذ العصر الجاهلي إلى العصر الأموي، ولأن خطب الحجاج تمثل نموذجا لعصره (العصر الأموي)، كما أنها تراعي المقام والذوق العربيين، وإلى جانب ذلك فإنها تجمع بين القديم والحديث، لما يشيع فيها من ملاحظات عبقرية في الحديث عن (المقام) و(الشاهد) و(المثل) وكذا الصناعة الصوتية.

ولعل الذي شجعني على تناول هذا الموضوع هو تلك الدراسة التي قدمها الدكتور محمد العمري عن «بلاغة الخطاب الإقناعي» وكذلك مقال الدكتور محمد العيد الذي يتناول فيه «النص الحجاجي العربي (دراسة في وسائل الإقناع)» وكذا كتاب «بلاغة الخطاب وعلم النص» للدكتور صلاح فضل، ثم كتاب «مقال في البرهان: البلاغة الجديدة» للمفكر البولوني المولد البلجيكي المقام «شارل بيريلمان» (Charles Perelman)، ومقال: «الحجاج والاستدلال الحجاجي» (عناصر استقصاء نظري) للدكتور حبيب أعراب، بالإضافة إلى رسالة الدكتوراه الموسومة بعنوان «إشكالية التواصل والحجاج» (مقاربة تداولية معرفية) للطالب المغربي: «عبد السلام عشير».

ولذلك اعتمدت تلك الدراسات اعتمادا كثيرا لأنها تمثل المرجع الذي أستقي منه مادتي الأساسية، لأنها زادت اقتناعي بإمكان تأطير اجتهادات البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية، وإغناء ذلك باجتهادات وإضافات البلاغيين ودارسي الخطاب الإقناعي من غير العرب في القديم والحديث، في حدود ما يسمح به هذا العمل والغرض الذي رصد له.

ومن هنا كانت النماذج المنتخبة في هذه الدراسة أرضية أسقط عليها كل ما هو نظري، وذلك أن النظرية وسيلة طموحة لوصل الخاص بالعام، وإعطاء ما يبدو منعزلا وظيفته ضمن نسق شامل، من هنا تتجلى الفصول عن النظريات الحديثة من سيمولوجية وتداولية ومعرفية وأسلوبية وبلاغية، وذلك لما يتميز به المتن الخطابي العربي من نفعية وتأثيرية وتأويلية وشاعرية.

ولأجل ذلك رأيت أن مصطلح الخطاب يمكن أن يختزل الموضوع والمنهج في آن واحد، خاصة أنني نظرت إليه بكل المفاهيم التي ألحقت به منذ دوسوسير، حيث كان معادلا للكلام (parole) باعتباره حوادث لفظية، إلى البعد الذي يتجاوز فيه الجملة، والذي منحه إياه نحو النص وما أسبغته نظريات الحديث والتداولية عليه باعتباره حدثا تلفظيا له سلطته الفعلية على الآخر؛ لأنه نظام من الضوابط التي تنظم وتحكم إنتاج مجموع غير محدد من الملفوظات، انطلاقا من موقع اجتماعي أو إيديولوجي معين، لذلك فضّلته على مصطلح النص لبعده المحايث الذي يتجاوزه الخطاب في تجسيده دورة التواصل بكل عناصرها من مرسل ومتلق ورسالة وشفرة خاصة وسياق، غير أن ذلك لم يمنع من استعمال مصطلح النص وأنا أعاين المظاهر النصية من خلال الخطاب الذي يحملها، والبعد الخطابي للتواصل الذي يلخص جوهر إشكالية البحث، وجسدتها في الحركية التواصلية التي تعرف بالوضع الاتصالي والتغيير الذي طرأ عليه، والنتائج التي برزت من خلال تحليل الخطاب لذلك كان العنوان: الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي –الحجاج بن يوسف «نموذجا»–.

ولذلك تعرضت لفك التعاضل الاصطلاحي حـــتى تتوضـــح المفـــاهيم وتتحدد المعارف، فكان المفهوم المفتاح هو التواصل في سياق أعم من ذلـــك الذي يختزل فيه إلى مجرد إيصال معرفة على محور «أنا» و«أنـــت»، وذلـــك بالنظر إليه باعتباره تنظيما داخليا خاصا للخطاب، على اعتبار أن الإقناع بعد جوهري في كل خطاب، ولهذا عمدت إلى الاهتمام أكثر بـــشروط تأديـــة الخطاب، آخذة بعين الاعتبار أن النشاط الإبداعي يتمركز عند محوري الإنتاج والتأثير في الآخرين وهذا تماشيا مع أغلب النظريات الحديثة الـــتي أصـــبحت تولي اهتماما كبيرا لتحليل الخطاب الإقناعي

ولقد تولّد لدي هم أولي هو اكتشاف كيف يشتغل المعنى في الخطـــاب الإقناعي، وكيف تعالج مظاهره التواصلية الإقناعية، فتناولت أهـــم مظـــاهر الخطاب وكذا مظاهر الحجاج والمكونات النصية في علاقتها بما هو تواصلي، مثلما تعرضت إليه نظرية التلقي، سواء من حيث الكفاءة التلفظية من جانب المرسل، أو الكفاءة التأويلية من جانب المتلقي، أو في إطار المكوّن الشعري أو التداولي أو التناصي، وبين الكشف عن طبيعة التواصلي وتحليـــل المكونـــات الخطابية الإقناعية.

ثم تساءلت عن الكيفية التي يمكن لتحليل الخطاب أن يضيء بها الجانب الإقناعي وأي المكونات المذكورة أكثر قدرة على التأثير والإقناع. الأمر الذي منح لي مبرر الاعتماد على آليات مختلفة من المناهج الحديثة الـــتي فرضـــتها الإشكالية والمنتخبات المعتمدة، فتبين لي أنها تستند إلى مبادئ مشتركة منحتها إياها اللسانيات كمفهوم البنية والنظام والنسق، وما أسفرت عنه مورفولوجية

(prop) من تطور والذي يسمى بالسيميائية وإسهاماتها في الكشف عن مبادئ تنظيم الخطابات، وما أفرزته البنيوية التي تتجاوز البنية إلى بنى أخرى، وكذلك الأسلوبية والتداولية والمعرفية وأخيرا ما تمنحه نظرية التواصل التي تعتبر الخطاب رسالة بين مرسل ومتلق وتنجز بوسائل داخل سياق محدد في المكان والزمان قصد التبادل والتبليغ والتأثير والإقناع.

ومن هنا فرضت علي هذه التوليفة المنهجية للاختيارات الرئيسة للآليات الأساسية في النقد المعاصر، ولم يكن التنسيق بين هذه الخيارات كالتداولية والسيميائية والبنيوية والأسلوبية والمعرفية والتأويلية ونظرية التلقي سهلا، ولكن بعد معاينة الإشكالية المنهجية، وغياب منهج مكتمل للتعامل مع مختلف الخطابات، أدركت أنه الخيار الوحيد نظرا لطبيعة الخطاب الإقناعي والإشكالية معا، وخاصة بعد التردد بين المنهج الوصفي والمنهج التاريخي، وهما المنهجان المسيطران في تحليل الخطاب عندنا اليوم.

فالمنهج الأول يندفع بموضوع إجراءات البنيوية وخاصة السيميائية السردية، فيقوم بوصف النصوص وأجزاء الكلام، الأمر الذي يسقط في نوع من الآلية والتقنية التي تتساوي بين النصوص المختلفة.

والثاني الذي يشق طريقه من المناهج التقليدية ليطل قليلا على ما يتناسب مع الآليات الحديثة كالشعرية والتأويل، ولكن دفعا للتعارض المفتعل بين القديم والجديد، اقتربت من الخطاب الإقناعي، وفي نيتي تجاوز المنهج الوحيد والمهيمن والمتطور الأحادي الإيديولوجي الذي ينظر إلى الإقناع على أنه بُعد ملازم لكل خطاب.

وبعد التطور الهائل في المناهج أوقفني إشكال مهم بين الحجاج والإقناع، وذلك أن الحجاج يعد من المفاهيم المثيرة للالتباس بالنسبة لأي باحث خاصة عند ضبطه وتدقيقه، ولهذا تعرضت لمفهوم الإقناع مـــن خـــلال النظريـــات الحديثة لأزيل إشكال الالتباس، لأعرج بعد ذلك إلى الحجاج لغة واصطلاحا، ثم إلى مظاهره المتعددة، ومن ثم إلى مجال استعمالاته، من خطابة إلى خطاب، ومن فقه إلى قضاء، ومن منطق إلى فلسفة.

ولعلّي أسهبت كثيرا في تناول الحجاج، وذلـــك أني حاولـــت أن ألم بشتات كل النظريات التي تقترب من الحجاج فكان أن تعرّضت للحجاج في التداولية واللسانيات، ثم الحجاج والبلاغة، وبعد ذلك الفقـــه والحجـــاج، ثم الحجاج والقضاء، مرورا إلى الحجاج والفلسفة، لأصل بعد ذلك إلى مميـــزات الحجاج الفلسفي وارتباطاته بالبرهان وبالجدل وبالحوار، وبالبلاغة لأنتهي إلى تحليل علاقة الاستدلال بالحجاج.

ولإسهابي في التعرض إلى الحجاج، مبرّره الذي يتمثل في كون الحجاج بعدا ملازما لكل خطاب على وجه الإطلاق، وذلك أن كل خطاب حال في اللغة التي تمنحه العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج أي عناصر الاستدلال والتدليل، كما أن الحجاج يغطي كل مجالات الخطاب التي تهدف إلى الإفهام والإقناع مهما كان المتلقي ومهما كانت الطريقة المتبعة على حد تعبير منظر البلاغة الجديدة «شارل بيريلمان».

وأمام الكم الهائل من الآليات المختلفة وجدت نفسي مضطرة لـــذلك الاختيار الذي سمح لي بالاعتماد على الطريقة النسقية التي تنظر إلى الخطـــاب

الأدبي على أنه نسق من الاتصال السيميولوجي والخطاب الإقناعي، ولا أدعي هنا الحيادية في التحليل الذي يبدو أنه شرط يصعب احترامه بالنسبة للباحث الذي ما هو إلا قارئ يمارس قراءة مفتوحة على خطاب مفتـوح قابـل لأن تكون قراءاته لا نهائية.

ودراستي هذه -بكل تواضع- تتجاوز في أهم جوانبها مجرد الوصـف للبنيات المحايثة للدلالة، ووصف العلاقات بين مكونات مع أخرى خارجـة كالتلقي الفعلي للنصوص.

ولقد كان الفصل الأول الذي عنونته «البلاغـة والتحليـل التـداولي للخطاب» مساحة عرضت فيها كل ماله علاقة بالبلاغة القديمة مـن زمـان أرسطو إلى البلاغة الجديدة -زمان شارل بيريلمان- فكنت أن عرفت البلاغة متعرضة لمعظم مجالاتها فرصدت كل آلياتها التي تساهم بشكل كبير في إحداث التأثير والإقناع، ثم مررت إلى التحليل التداولي للخطاب وذلك أن التداوليـة هي المعرفة العميقة بالنفس البشرية، والمعرفة العميقة بدلالة الكلمات والمفاهيم ومعرفة عميقة بالماضي والحاضر، ومعرفة عميقة بالعلاقات القائمة بين الأشياء والظواهر والأفكار والأحداث والوقائع، ومعرفة بالقضايا علمية كانـت، أو سياسية، أو اجتماعية، ...، ومعرفة عميقة بمعرفة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالعالم.

فالتداولية لا تعطي التواصل اللساني أو غير اللساني الإطـار النظـري لمعالجة قضايا مثل أفعال الكلام أو الحجاج أو قواعد الحوار، ولكنها تقـدم صيغة لمقاربة جريئة للمشاكل التي كانت تعتبر تقليديا في صلب الدلالة مثـل

المرجع والسياق والاقتضاءات، وهي لذلك تـــدخل في اهتمامهـــا القـــدرة الإنجازية والقدرة التأويلية وقدرة الفهم، كما تدرس كيف يصل المتلقـــي إلى المعنى المراد.

ومن منطلق الخطاب الإقناعي ذاته، الذي هو جوهر نظريـــة التلقـــي، تعرضت في الفصل الثاني إلى «الخطاب الإقنـــاعي -وســـائله ومجالاتـــه-» فتناولت مفهوم الإقناع مشيرة إلى بعض النظريات التي قامت بدراسة التـــأثير والإقناع، خاصة في الميدان الاجتماعي، ومن بعد ذلك كنت ملزمـــة بـــأن أتعرض إلى أدواته، فكان الحجاج أول وأهم وسيلة من الوسائل المنطقية التي يتخذها الإقناع دعامة لتبرير الأقوال والأفعال.

وكما سبق الذكر، فقد أسهبت في تحليل الحجاج حـــتى أرفـــع تلـــك الملابسات التي قد يتعرض لها الباحث، ومن ثم بحثت في الاستدلال والبرهان وفي علاقة كل عنصر بالتأثير والإقناع فقمت بتحليل بنية التكرير بنوعيهـــا، بنيـــة الشكل وبنية المضمون، ثم انتقلت إلى بنية الازدواج ومنها إلى بنية التوازي حيث قمت بشرح وتوضيح وظيفة كل بنية ليتجلى دورها في الإقناع.

واحتكمت في الفصل الأخير إلى المستوى التطبيقـــي الـــذي عنونتـــه بـــ«الخطاب الإقناعي -في منتخبات من خطب الحجاج-» فكان هذا الفصل أرضية لتطبيق كل ما جاء في الفصلين (الأول والثاني) فاخترت بعض النماذج من خطب الحجاج؛ لأني رأيت أنها تشتمل على وسائل الإقنـــاع المدروســـة ولكني ركزت على خطبة الولاية، وذلك لقيمتها العلمية والسياسية خاصـــة، ولأنها خطبته المشهورة.

ولأني راعيت التدرج في الإجابة عن الإشكالية المطروحة، كانت خطة البحث، خطة راعيت فيها التسلسل الزمني في عرض الظـــاهرة، وأردت أن تؤدي بعض الوظائف، كالوظيفة الكشفية؛ من الكشف عن كثير من القضايا المغيبة والغامضة وتحليلها، والوظيفة الإعلامية التي عرضت بفـــضلها فعاليـــة المعطيات والأفكار التي تداولها خطباء السلف خاصة الحجاج الـــذي يعـــد نموذجا لعصره، والوظيفة الإقناعية التي مكنتني من تأكيد بعض الفرضـــيات على منتخبات الحجاج.

وأنهيت البحث بخاتمة، حوت أهم النتائج العامة التي وصل إليها البحث، وفسحت فيها المجال لأعرض فيها بعض الاقتراحات التي أعتقد أنها بداية طيبة لموضوعات مهمة لمن يريد أن يبحث في الخطاب الإقناعي.

و لم تواجهني صعوبة الحصول على المراجع التي تتحدث عن الإقنـــاع، وهي كثيرة ولها قيمتها، كما أنها تحوي إشكاليات لو اســـتغلها البـــاحثون لشكلت مشروعا يعيد النظر في كل ما قيل عن الحجاج والإقناع.

وكان أملي في كل هذا، أن أساهم ولو بشكل بسيط في قراءة الخطابة العربية من أجل تشكيل معرفة ووعي جديد بتراثنا ومن ثم بذواتنا، وخاصـــة أمام ما كتب عن الخطاب الحجاجي العربي من دراسات تتكاثر دون أن تشير إلى نصوص الخطابة العربية عبر عصورها المعروفة الجـــاهلي، الـــصدر الأول الإسلامي، العصر الأموي، العصر العباسي.

وبعد، فإني أعتبر هذا البحث -مع النقائص والهفوات الـــتي يمكـــن أن تلاحظ فيه- مدخلا للخطاب الإقناعي العـــربي -رسمـــت معالمـــه أفكـــار

وملاحظات أساتذتي الكرام- خاصة أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، والأستاذ المشرف المساعد الأستاذ الدكتور كريب رمضان اللذان أبديا اهتماما كبيرا بالموضوع، وتشجيعا أكسبني ثقة بالنفس، ولهما الفضل كذلك في توجيهي دائما وتزويدي بأهم المراجع المعتمدة ، و لم يبخلا علي بملاحظاتهما واقتراحاتهما القيمة، فلهما ولكل أستاذ ساعدني جزيل الشكر وفائق الاحترام.

نوقش هذا البحث يوم 11-09-2007

بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان الجزائر

إن ما يجب النظر فيه منذ البداية في أي بحث علمي، هو تحديد مصطلحاته حتى تتبيّن المفاهيم، وتتميّز الحقائق، وتتجلّى الحدود المعرفية المحصلة، ومن هنـــا اخترت البدء بتحديد مفاهيم المصطلحات الواردة في عنوان البحث.

1- المدلول اللغوي لكلمة خطاب:

وجد في المعاجم العربية أن مادة «خطب» ومشتقاتها تحيل على عـــدة معانٍ منها:

1- الشأن أو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة سواء صغُر الأمر أو عَظُم، فيقال: خَطْبٌ، وخُطُوبٌ، وقيل: هو سبب الأمر؟ يقال: ما خَطْبُـــكَ؟ أي مـــا أمْرك، ونقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير[1].

2- المواجهة بالكلام[2]، أو مراجعة الكلام[3] وهما الخطاب والمخاطبة.

3- و«المخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة»[4] والخطب اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر.

4- ورجل خطيب، حسن الخطبة، وجمع الخطيب خُطباء، وخَطُبَ بالـــضم، خَطَابة بالفتح صار خطيباً[5].

وفي حديث الحجاج: أمن أهل المحاشد والمخاطـــب، أراد بالمخاطـــب الخطب على غير قياس، كالمشابه، والملامح، وقيل هو جمع مخطبة، والمخطبـــة

1)- ينظر: القاموس، والأساس واللسان، مادة (خطب).

2)- أساس البلاغة، محمود الزمخشري، دار صادر، 1979، مادة (خطب).

3)- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الفكر، بيروت، مادّة (خطب).

4)- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن منظور، دار بيروت للطباعة والنشر، مادة (خطب).

5)- المرجع نفسه، ص: 361.

أو المخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة؛ أراد أنت من الذين يخطبون الناس ويحثوهم على الخروج والاجتماع للفتن[1].

وفي كتاب التهذيب للأزهري (ج.7)؛ قال بعض المفـــسرين في قولـــه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾[2]؛ قـــال: هـــو أن يحكم بالبينة أو اليمين، وقيل: معنـــاه

أن يفصل بين الحقّ والباطل، ويميّز بين الحكم وضدّه، وقيـــل: فـــصل الخطاب: «أمّا بَعدُ»، وقيل: فصل الخطاب: «الفقه في القضاء»[3].

ولقد حاول ابن وهب أن يبلور معنى القول أنّ الخطبة اســـم الكـــلام، ورجل خطيب إذ ربط بينهما ربطا سببيّا في اتجاه الارتفاع بالمعنى إلى مستوى الإصطلاح، فقال: «إن الخطابة مأخوذة من خَطبْتُ، أخْطُـــب، خَطَابـــة... واشتق ذلك من الخطْب وهو الأمر الجليل، لأنه إنّما يقام بالخطب في الأمور التي تجلّ، والاسم منها خَاطِب مثل راحم، فإذا جعل وصـــف لازمـــا قيـــل خطيب، والخطبة الواحدة من المصدر... والخطبة الكلام المخطوب به»[4].

ومن الخطب والمخاطبة اشتقا الخطاب والخطابة لأهما مسموعان؛ لـــذا عرفت الخطابة بأها مشاركة في فعل ذي شأن، إذ المفاعلة تفيد الاشتراك.

والخطب حسب قول صاحب الصناعتين: «تستعمل في إصـــلاح ذات البين وإطفاء نار الحرب، وحمالة الدماء، والتّشييد للملك، والتأكيد للعهـــد،

1)- لسان العرب، ص: 361.

2)- سورة ص، الآية: 20.

3)- المرجع نفسه ص: 361.

4)- البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم ابن وهب، تحقيق: خفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969 ص: 151-153.

وفي عقد الإملاك، وفي الدعاء إلى الله، وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته في الناس»[1].

ويذهب أبو إسحاق إلى أنّ الخطبة عند العرب هي: «الكلام المنثور المسموع»[2]، وفي كتاب التهذيب: «الخطبة مثل الرسالة لها أوّل وآخر»[3]؛ ويبدو جليّا أنّ هذا التعريف يشير إلى الأسلوب وتنظيم القول، وهما عنصران بنائيان في الخطابة عند أرسطو إلى جانب الاحتجاج والبراهين.

وفي تمييزه للخُطب والرسائل عن الشعر يقول أبو هلال العسكري: «واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنّهما لا يلحقهما وزن ولا تقفية»[4]، هذا عن المعنى اللّغوي للخطاب والخَطابة، حسب بعض المعاجم العربية.

2- فما المدلول الاصطلاحي للخطاب؟

لقد تحدّد هذا المدلول بتحدّد التخصصات، وتميّزت الاتجاهات التي تهتم بالخطاب، خاصة الأدبي منه؛ لذا فإن جذور مصطلح الخطاب تعود إلى عنصري اللّغة والكلام[5].

أ- فاللّغة نظام من الرموز يستعملها كل فرد للتعبير عن أغراضه، حيث تكون هذه الرموز إمّا على شكل أصوات تنطق، أو حروف تكتب.

---

1)- كتاب، الصناعتين، (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، ترجمة: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981، ص: 154.

2)- لسان العرب، ص: 361، مادة (خطب).

3)- المرجع نفسه، ص: 362.

4)- الصناعتين، ص: 154.

5)- دروس في الألسنة العامة، فيردينان دي سوسير، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس، 1985، ص: 27.

ب- أمّا الكلام فهو إنجاز لغوي فردي يتوجه به المتكلم إلى شـــخص آخر يدعى المخاطب أو المرسل إليه.

ومن هنا تولّد مصطلح «خطاب» بعده رسالة لغوية يبُثها المـــتكلم إلى المتلقي، فيستقبلها هذا الأخير ويفك رموزها[1].

وفي تحديد آخر لمفهوم كلمة «خطاب» يرى كمال عمران أن الخطاب يعتبر من أبرز الظواهر التي تحرر طرق الاتصال وتضبط بنية التغيير، وتنحـــت الأهداف المنشودة[2].

ويحظى الخطاب في اللّغات الغربية بقدر كبير من العناية؛ لأنـــه يخـــرج الدراسة من الانطباع إلى التفكيك، ومن وصف أداة الاتصال إلى النبش عما يحيط بها من مشكلات.

وبناءاً على هذه العناية «بالخطاب» توسعت مجالاته فعرف عند كلّ من:

- «مايك بال» (Mike Ball) و«أنجلية» (Angelet) والناقد المغـــربي السعيد علوش -عرف- توجيهين:

أ- التوجه الأوّل: وتطبق عليه السيميائيات السردية، ومن أهم ممثليـــه «فلاديميربروب» و«كلوديريمون» و«غريماس»، حيث يعتمد هذا التوجه علـــى سردية القصّة في أي عمل حكائي مهما كانت الأدلة التي يتوسل بها في عمليـــة التواصل، لأنّ الأحداث التي يتم إخبارنا بها يمكن أن تترجم عبر وسائط مختلفة.

---

1)- النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، جان لوي كابنس، دار الفكر، سوريا، 1982، ص:94.

2)- في تحديد مفهوم الخطاب، د.كمال عمران، المجلة العربية للثقافة مجلة نصف سنوية (مارس-سبتمبر)، العدد 28، 1995، ص: 62.

يقول ابن الهيثم: «إن الحق واحد، وإن الاختلاف هو من جهة السلوك إليه»[1]، فالمسالك تتعدّد لبلوغ هدف واحد، لذا يجب التركيز على المضامين السردية وكذا على الكليات الدالة التي تتجاوز المجموعات اللسانية.

ب- التوجه الثاني: يركز دارسو هذا التوجه على دراسة الخطاب كصيغة لفظية لتشخيص القص أو الحكي (Le récit)، وإبراز العلاقات التي تنظم المستويات الثلاث: الخطاب- القص- السرد؛ بحيث يكون الخطاب مجالاً متميزا يمارس فيه المتكلم عملية التلفظ (النطق) على أن يكون هذا التلفظ قابلا للتحليل والتفكيك.

وعلى الرغم من اتساع مجال السرديات وتعقّدها، وتطور مناهج دراستها، فإنّ هناك من يصرّ على التوفيق بين التوجهين أمثال: «تشاتمان» (Chatiman) و«جيرالد برينس» (Gerald Prince)، وذلك من أجل القضاء على كل الالتباسات التي لا تزال تكتنف هذا الميدان[2].

وممّن أسهم بشكل واضح في هذا التوجّه -الشكلانيون الروس- بزعامة «توماشفيكسي» الذي ميّز بين المتن الحكائي (Fable)، والمبنى الحكائي (Sujet)؛ إذ يمثل المتن مجموع الأهداف والحوافز، بينما يمثل المبنى البحث عن الأنساق والوظائف، أي الخطاب، خاصة عند «تودوروف» (Todorov).

---

1)- نقلا عن مقال: عن الضوابط اللغوية لتوجيه الخطاب العلمي، أ.د.سيدي محمد غيتري، الملتقى الدولي الأوّل، جامعة البليدة، ماي 2000، ص3.

2)- مقال في قراءة التحليل السردي للخطاب، الطاهر رواينية، مجلة التواصل، جامعة عنابة، العدد 04، جوان 1996، ص: 8

أمّا ضوابط القص وميكانيزماته فإنها تعدّ بمثابة السّنن أو العلامات الـــتي تتيح إمكانية فك رموز الخطاب، لذا فإنّ «إيخنباوم» يتحدّث عـــن وظيفـــة الحكي التي عدّ أنها تشير إلى العلاقة التي تنشأ بين المرسل والمرسل إليه.

وبهذا؛ يكون الشكلانيون الروس قد أولو عناية كبيرة لدراسة الخطـــاب خاصة «إيخنباوم» في دراسته الموســـومة «معطـــف غوغـــول» -وكنتيجـــة لسيميائيات السرد، تأتي دراسة- «بروب» لموروفولوجية الخرافة أو الحكاية ثمرة لتطوّر التحليل السردي للخطاب، واتساع مجاله ليشمل كل أنواع الحكي[1].

ومعلوم أنّ وظيفة كل راوٍ أو متكلم تختلف من حكاية أو قول إلى آخـــر، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، حيث يحدّدها في كل مرّة مدى تبلـــور العلاقـــة الجدلية بين وظيفة الإرسال والتلقي.

ولهذا يصرّ «غريماس» على أهمية التواصل بتتبّعه مسارات المرسل عـــبر السياق، مفرقا بين المرسل، والمرسل إليه؛ مشبها عمل الذات المرسلة بتحريات الشرطي وعمل العالم، وبحث المؤمّن[2].

أما «بنفينيست» (Benveniste) فإنه يذهب في تعريفه للخطاب على أنّه «كلّ منطوق أو فعل كلامي يفترض وجودَ راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما»[3].

على أن نية التأثير هذه؛ هي القصدية التي تلمح دوماً إلى الإقناع، هـــذا الإقناع الذي لا يتم إلاّ إذا كانت حافظة المستمع مخزنة لما في حافظة المتكلم.

---

1)- مقال في قراءة التحليل السردي للخطاب، ص: 10.

2)- مقال السيميائيات السردية للخطاب، «غريماس»، مجلة التواصل، ص: 18.

3)- اللّغة والخطاب الأدبي، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992، ص48.

هذا، دون أن ننسى أن كل خطاب يعتمد اللغة التي هي وسيلة للاتـــصال والتواصل؛ وأنّ كل لغة تمتلك عدداً من العناصر التي تهتم بإخبارنا عن موضوع الفعل الكلامي، وعناصره الأخرى التي تتسبّب في تحويل اللّغة إلى خطاب.

وإلى جانب هذا، فإن اللغة هي أيضا مادة كلّ فـــنّ وفقـــا لمـــستوى المنطوق، أو الفعل الكلامي الذي يظهر؛ لأن الخطاب يرتبط أساسا بقـــرائن لغوية معينة؛ وبهذا يأتي مفهوم الخطاب كأداة تحليل بنوي وعلامـــي ودلالي للأثر الأدبي، باعتباره بناءا مستقلاًّ من جهة، وفي علاقته بقائله وبالخطابـــات السابقة وكذلك السائدة من جهة أخرى[1].

ولذلك يسمح الخطاب بدراسة التراث، ويمكن تحليله من جهتين؛ أولا من جهة العلاقة الجدلية التي ترتبط المبدع بالمتلقي، وثاني من جهة الارتبـــاط هذا الخطاب بخطابات أخرى.

هذا عن السيميائيات السردية للخطاب، فماذا عن أصحاب المدرســـة التوزيعية؟

يعرّف «هاريس» (Harris) الخطاب على أنه ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة مـــن العناصـــر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظلّ في مجال لسانيٍ محضٍ[2].

ويبدو أن «هاريس» من خلال كلامه هذا، يودّ أن يطبّـــق مفهومـــه وتصوره التوزيعي للخطاب، على أنه عبارة عن متتاليات يلتقي بعضها بعضا

1)– مقال السيميائية والنص الأدبي للأستاذ عد الحميد بورايو، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة 1995، ص: 82.

2)– L’information et la communication, Roget escaprit. Hachette. Sl. 3ed. 1991. P:22.

بطريقة منتظمة تكشف عن بنية النص، هذا الانتظام الذي يطلق عليه اســم «تعادل متكافئ التوزيع» (Equivalence) منطلقا في اعتقاده هذا من اعتبار الجملة أكبر وحدة دالة قابلة للوصف النحوي.

أمّا أصحاب معجم اللسانيات[1] (1973) فقد أوردوا للخطاب ثلاثــة تعاريف هي كالآتي:

1- الخطاب يعني اللغة في طول العمل أو اللسان الذي تتكلف بانجازه ذات معينة، وهو هنا مرادف للكلام (Parole) بتحديد «دي سوسير» (De Saussure).

2- الخطاب يعني وحدة توازي الجملة أو ما فوق الجملة، وتتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية، وهو هنا مرادف للملفوظ (Enoncée).

3- استعمال الخطاب لكل ملفوظ يتعدّى الجملة منظوراً إليه مــن وجهــة قواعد تسلسل متتاليات الجمل، أي الخطاب ملفوظ أكبر مــن الجملــة (Enoncée Supérieure à la Phrase)، ويمكن تفصيل هذه التعاريف كما يلي:

2-1 الخطاب- الكلام:

يعرّف دي سوسور الكلام بأنه ذو نزعة فردية، إرادي وذكي كذلك[2]، والكلام حسب هذا التحديد مستقل عن مؤسسة الجماعة، وهو من ثمّ مفــرغ كليا من سلطتها، وقابل بخصوبة كبيرة للتحرّر والانبعاث المتجدّد الذي يمكن

1)- Dictionnaire de linguistique (discours Texte)- Jean Dubois et autres, La rousse, Paris, 1973, P:57.

2)- دروس في الألسنية العامة، ص42.

تمثله في ولادة اللغة الجديدة كالإبداع مثلا[1].

وإلى جانب كون الكلام نشاطا فرديا؛ فإنه «ينفتح على فاعلية الإلقاء المستمر التي يشكلها دافع الإرادة والذكاء»[2]. هذا الدافع الذي ينبعث من عملية نقل الرسالة، وأين تتم عملية توجيه الكلام، التي تكتسب فيما بعد الصبغة التخاطبية حيث يوجه المخاطب رسالة إلى المخاطب (المرسل إليه).

وعلى هذا النحو تمّ تعريف الخطاب في الأغلب الأعم، ومن هنا يمكن «وضع الكلام على قدم المساواة مع الخطاب، فهو تكلّم وتلقّ في آن واحد»[3].

أما «فرانسوا راستيه» (François Rastier) صاحب كتاب «من أجل تحليل الخطاب» فقد دعا إلى أنه ينبغي في تحليل الخطاب أنه يحدّد موضوعه بسبب ارتباطه الوثيق باللسانيات التي حدّدت موضوعها ونجحت كعلم مؤسس.

وعلى ذلك الأساس اقترح فرانسوا ثلاث استراتيجيات ممكنة من بينها، اعتبار الخطاب مرتبطا بالكلام.

واعتمادا على المفهوم السوسيري للخطاب كونه اللغة التي هي في طور العمل أو اللسان الذي تتكلف بانجازه ذات معيّنة ميّز «دومينيك مانقينوا» (Dominique Maigueneau) بين اللغة والكلام وتبين له إثر ذلك، أنّ الجملة

1)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، هواري غزالي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000، ص: 95.

2)- في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، حكمت صباغ دار الآفاق للنشر، بيروت- ط3- 1985- ص: 31.

3)- القول الشعري، د.يمنى العيد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987، ص: 10-11.

لا تدخل في إطار اللسان ولكنها تنتهي إلى الكلام موئِل الفعالية والذكاء[1].

وإذا كان دي سوسير يرى أن اللغة «كنز موضوع من خـــلال تطبيـــق الكلام»[2] فإن سعيد يقطين يعتبر أنّ «اللسان ككل منتـــهٍ وثابـــت العناصـــر نسبيّاً»[3] أي أنّه يمثل كيانا منغلقا لا يسمح بالتفتح إلاّ لما تنتجه آليات الخطاب.

وبناء على هذه المفاهيم اللسانية فقد وقع خلط كبير في تحديد مفهـــوم الخطاب، ممّا أدّى إلى نشوء علاقة جدلية بين النص والخطاب تبعـــا للعلاقـــة نفسها بين اللغة والكلام.

2-2 الخطاب- التلفّظ:

يعدّ «بنفينيست» أكبر مدرسة نظرت لمفهوم الخطاب، هذه المدرسة التي غيرت جميع آليات الدراسة اللسانية، وذلك بانطلاقها من إلغاء الجملة كـــأعلى مستوى للدراسة اللسانية، مما أحدث قطيعة مع أعمال «هاريس» و«بلومفيلد» الّذين شكلا مرحلة من مراحل اللسانية التقليدية.

ولقد حدّد «بنفنيست» ماهية الخطاب على أنّه «كل تلفـــظ يفتـــرض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما»[4].

---

1)- تحليل الخطاب الروائي، عيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1989، ص: 21.

2)- Théorie du langage, J P Brancard, 2ème édition, Bruxelles, 1977, P103.

3)- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص22-23.

4)- Problèmes de linguistique générale, Emille Benveniste, édition Gallimard, Tome I, 1966, P: 129-130.

أمّا الجملة فهي عنده «إبداع ليس له تعريف، وتنوع بـدون حـدود، وهي الحياة نفسها للغة في أثناء الفعل»[1] معارضا بـذلك أبي اللسانيات الأمريكية «بلومفيلد» الذي يحصر النحو عند حدود الجملة؛ كون الوحـدة اللسانية الكبرى تتمثل في الجملة.

ويؤدي بنا تعريف «بنفنيست» إلى الافتراض أنّ «تلفظ الخطاب يستلهم مادته من الأداء الشفاهي للكلام بكل تنوعاته المختلفة، ابتداءاً من المخاطبـة اليومية إلى الخطبة الأكثر صنعة وزخرفة إلى الإنشاء الأكثـر شـعرية مـن حيث الأداء[2].

ولكن هذا الافتراض لا يعني أبدا إلغاء الخطابات الكتابية لأننا مـدينون للكتابة بقدر كبير، فلولاها ما أمكننا الإطلاع على ثقافات الغير سواء القديمة أو الحديثة.

وإذا كان بنفنيست قد حدد ماهية الخطاب، فإنه لم يضع له حـدوده الخاصة، وإنّما تحدّث عنه بكونه ذلك الفعل الحيوي لإنتـاج ملفـوظ مـا، بواسطة متكلم معيّن في مقام معيّن، باعتبار أنّ هذا الملفوظ يمثل آلية اشتغالية داخل التواصل.

ولعلّ نظرة بنفنيست هذه تقترب من نظرة المدرسة الفرنـسية للخطـاب، خصوصاً مع اللساني «قيسبن» (L.Guespin) الذي فصل بين الملفوظ والخطاب.

---

1)– Initiation aux Méthodes de l'analyse du discours (problèmes et perspectives) Dominique maingueneau, ed-Hachette niversité, 1967, P: 154.

2)– مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص97.

وفي فصله هذا؛ يرى «قيسبن» أنّ «الملفوظ متتالية من الجمل الموضوعة بين بياضين دلاليين، أمّا الخطاب فهو الملفوظ المعتبر من وجهة نظر حركية خطابية مشروط بها، وهكذا فنظرة تلقى على نصّ تُبَنْيِنُه لغويا تجعل منه ملفوظا، وأنّ دراسة لسانية لشروط هذا النص تجعل منه خطاباً»[1].

فإنتاج الخطاب إذاً، قائم أساسا على حركية خطابية متجلية في الملفوظ.

2-3 الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة:

لقد انتصر «رولاند بارث» (Roland Barthes) لهذا التحديد، وهو التحديد الثالث حسب معجم اللسانيات، حيث اتخذه مرتكزا لتحليله البنوي؛ فمن جهة نظر القواعد، يمثل الخطاب سلسلة من الجمل، ومن جهة نظر التحليل اللساني الخطاب مرادف للملفوظ، ومن أجل هذا تسعى اللسانيات لمعالجة الملفوظات المتجمعة، ودراسة مسارها عندما تحدّد قواعد الخطاب وقوانينها، وتصفه وصفا معقولا وقابلا للملاحظة والتأمل باعتباره سلسة متتالية من الجمل.

ومتصورات الخطاب حسب التحديدات الثلاثة تقترب من مفهوم النص، إن لم تكن مرادفة له، وفي الوقت ذاته متعارضة معه، فالنص في المعجم اللساني مدوّنة تتألّف من مجموعة من الملفوظات اللغوية الخاضعة للتحليل سواء كانت شفهية أو خطيّة.

ومن هذا المنظور يصبح الخطاب ضمن الممارسات اللسانية أداة للمعرفة، ولهذا المعنى يتحول إلى نص، حتى أن الكثير من اللغات لا يفرّق بين النص والخطاب.

1)- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص22.

فالنص عند «هلمسليف» (Louis Hjelmslev) بالمفهوم الواسع يعـــني كل مادّة لسانية مدروسة، وكلا المفهومين (النص والخطاب) لدى «غريماس» «وكورتيس» (Greimas et courtes) يشكلان فرضية خصبة، اســـتعملت للدلالة على عمليات سميائية (procès sémiotiques) غير لسانية[1].

وفي الممارسة الفكرية يشير الخطاب إلى الأطـــر المرجعيـــة للـــسانيات «فوكو-لاكان» (Foucault Lacan) ثم إنّه يلتبس أحيانا بمفهوم الرســـالة (Message) عند «جاكبسون» (Jakobson).

وإذا كانت المتصورات السابقة للخطاب قد حصرته في زوايا ضيقة حينما ربطته بالجملة، فإن البلاغة القديمة سعت جاهدة إلى بناء أنظمته وقواعده، كما أنّ الأسلوبية التعبيرية وظفت معطيات ألسنية مثل الملفوظ والتلفّظ كما هو الحال لـــ«شارل بالي» (Charles Bally) تلميذ «دي سوسير».

وهكذا، فإن مفهوم النص في تصوّر «تودوروف» يكمن في فقـــرة أو وحدة من النمط الخطّي الذي تكوّنه مجموعة من الجمل...»[2].

وعلى هذا الأساس، فالنص يكون جملة جملة، كما قد يكـــون كتابـــا بكامله، إنّه يتحدّد باستقلاليته، وانغلاقه، إنّه نظام ثاني إيحائي، وهو ثـــانوي بالنسبة لنظام آخر من الدلالة، وله مظاهر منها، المظهر الفعلي، والتـــركيي الدلالي، والبلاغي والسردي والموضوعاتي،... كل ذلك يتقاطع مع النظريـــة التوزيعية ولسانيات «هاريس» وتلامذته فيما يخصّ تحليل الخطاب.

---

1)- مقال: بين النص والخطاب، الأستاذ أحمد يوسف، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، العدد 1، 1992، ص: 51.

2)- مقال :بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 52.

وإلى جانب هذا التحديد، يضيف «تودوروف» ثلاثة أنظمة تـــتلخّص في النظام المنطقي، والنظام الزمني، والنظام المكاني، وهكذا يبتعد مفهوم النص عن مفهوم الخطاب ليكون أشمل منه(1).

ويصبّ في هذا الاتجاه كثير من الآراء؛ فالنص بنية من القيم عند «رينيه ويلك» (R.Wellek)، وعلامة عند أصحاب نظرية التلقي، ووحدة مستقلة قائمة بذاتها، بعيدة عن إدراك القارئ (شلوفيسكي والشكلانية الروســـية)، وعرض دال عند أصحاب مدرسة النقد الجديد(2).

كل هذا، يفضي بنا إلى صعوبة تحديد ماهية النص والخطاب ممّا يفضي كذلك إلى صعوبة إيجاد حدود علمية موضوعية بين هذين المفهومين (النص/ الخطاب).

ونلفي بين التصور اللساني للخطاب وبين تصوّر «رولاند بارث» مسافات بعيدة هي أقرب إلى التنظير الجمالي منها إلى التقعيد اللغوي، ولعلّ هذا ما جعله يتداخل مع استعمالات الخطاب في أدبيات «فوكولاكان» وغيره مـــن الـــذين يشتغلون في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية، وإن كان «بارث» لا يرى في النص إلاّ فضاءً اجتماعيا له وشائج قوية مع الممارسات الفعلية للكتابة(3).

وبعد هذا، يبدو من العبث البحث عن فوارق أو أوجه التقارب بـــين النص والخطاب؛ فمفهوم الخطاب احتضنته علوم لسانية وقعّدت له، فـــصار حقلاً من حقولها، ولمّا تلقّفه المعجم النقدي للعلوم الإنـــسانية انـــزاح عـــن

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- مقال: بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 52.

3)- المرجع نفسه، ص: 55.

خصوصياته للسانية، فعرف توسّعاً في الاستعمال وإن حرص بعض الدارسين في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية على الاحتفـــاظ بجــوهر مرجعيتـــه اللسانية[1].لذا يجب التريّث في استعمال هذه المفاهيم، وتحديد مواقعهـــا في المعجم النقدي، لأنه قد يصبح خلطا لا جدوى منه.

ومن جهة سيكو- لسانية يعرّف «جان كارون» (J.Caron) الخطاب بأنه متتالية منسجمة من الملفوظات[2].

ومعنى هذا أن الخطاب يفترض علاقات بين مجموعة من الملفوظات التي لا يجب أن تكون مبنية مسبقا، وإنّما يجب الربط بينها.

ومجال الحديث عن الخطاب واسع جدا، لذا لا يمكـــن حـــصر كـــل التعاريف التي وردت للاصطلاح على مفهومه. وبعد هذا، كـــان لابـــدّ أن أتطرّق إلى مفهوم الإقناع باعتباره المصطلح الثاني في عنوان البحث، ولكنّـــي ارتأيت أن أؤجل الحديث عنه؛ لأني سأتعرض لدراسته بإســـهاب في فـــصل «الخطاب الإقناعي -وسائله ومجالاته-» وحتى أتفادى التكرار ســـأنتقل إلى مدلول التواصل لغة واصطلاحاً.

3- التواصل اللغوي:

كثيرا ما نصادف في قراءتنا اللسانية المعاصرة، عدّة كلمات متباينـــة في دوالها، في الوقت الذي لا يعني بها أصحابها إلاّ مفهوماً واحدًا[3]، ومن بـــين

---

1)- مقال: بين النص والخطاب، أحمد يوسف، ص: 57.

2)- مقال تحليل الخطاب الروائي، بشبر براير، ص: 23.

3)- اللغة العربية والاتصال، الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، أعمال الموسم الثقافي، مدونة المحاضرات الملقاة عام، 2000، ص:51.

هذه الكلمات ما يتعلّق بمجال بحثنا، وهي كالآتي: الاتصال، التواصل، التوصيل، التبليغ، الإبلاغ، التخاطب، المخاطبة.

3-1 التواصل في بعض المعاجم العربية:

إنّ مادة «وصل» في لغتنا العربية ثرية بمفرداتها وترادفاتها، غزيرة المباني، متعدّدة المعاني، إذ تحيل في بعض معاجم اللغة العربية كمعجم الصحاح للجوهري: على معنى «اتصل»؛ إذا دعا بدعوى الجاهلية كأن يقول: يا لفلان، وقد قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾، أي يتّصلون[1].

والوصل ضدّ الهجران، ووصل الثوب والخفّ، وبينهما وصلة أي اتّصال، وتواصل ضدّ التصادم، ومن هذا المعنى جاء الحديث: «لعن الله الواصلة والمستوصلة»[2].

فالتواصل هنا ضد التقاطع، غير أن الاتّصال أعمّ من التواصل، لأنّ التواصل من التفاعل، والتفاعل في اللغة العربية لها ثلاثة معان[3]:

1- أن تكون من اثنين تخاصما: تقاتلا، تشاركا...

2- أن تكون أحيانا من واحد: تراءئ له، تمارى في ذلك، تعاطى منه أمر قبيح.

1)- الصحاح للجوهري، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ج5/1842.

2)- المرجع نفسه، ص: 1842-1843.

3)- الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د.الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963، ص: 222- 223.

3- أن تكون إظهاراً بغير ما تدلّ عليه حقيقة الشيء: تغافل؛ أي أظهر غفلةً وليس بغافل، أو كما يقول سيبويه: «ليُريك أنّه في حال ليس فيها»(1).

وجاء في المصباح المنير للفيومي: «تعهّدت الشيء، تردّدت إليه وأصلحته، وحقيقته تجديد العهد به، وتعهّدته حفظته؛ قال: ابن فارس: ولا يقال تعاهدته؛ لأنّ التفاعل لا يكون إلاّ من اثنين. وقال الفارابي: تعهّدته أفصح من تعاهدته»(2).

ويكون سيبويه واضحا حينما قال: «وأمّا تفاعلت فلا يكون إلاّ وأنت تريد فعل اثنين فصاعداً، ولا يجوز أن يكون معملا في مفعول، ولا يتعدّى الفعل إلى منصوب»(3)، مضيفا إلى قوله هذا أنّ تفاعل يلفظ بالمعنى في فاعلته، ويقصد أنّ فاعل مثلها مثل تفاعل كلتاهما تدلّ على تشارك اثنين في أمر»(4).

لذا يقول: «اعلم أنّك إذا قلت: فاعلته فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته؛ ومثل ذلك: ضاربته، وفارقته، وكارمته»(5).

وبعد هذه المقاربات اللغوية لمادّة (وصل) وبعض مشتقاتها الدلالية نخلص إلى أنّ الاتصال أكثر عموما من التواصل، والتواصل وحتى المواصلة(6)، وأنّ التواصل لا يكون إلاّ من اثنين فصاعداً؛ لأنه يدل على التفاعل والتشارك.

---

1)- الكتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت، ج4/68.

2)- المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت، ص: 435.

3)- الكتاب، سيبويه، ص: 69.

4)- اللغة العربية والاتصال، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، ص: 53.

5)- الكتاب، ص: 68.

6)- اللغة العربية والاتصال، ص54.

هذا عن المدلول اللغوي لمادّة (وصل) في بعض المعاجم العربية القديمة، فماذا عن التواصل في معجم المصطلحات اللغوية، وبعض المعاجم الغربية الأخرى.

3-2 التواصل في معجم المصلحات اللغوية:

وُجدَ في هذا المعجم لصاحبه خليل أحمد خليل مـــا يلـــي[1]: تواصـــل (Communication): بمعنى: إبلاغ، اتصال، تخاطب، مخاطبـــة؛ توصـــيل، أساس التواصل استعمال راموز (Code) لنقل رسالة:

1- التواصل اللغوي: يدل على تبادل في الإشارات بين فرد وآخر، بين فـــرد وجماعة وبالعكس، وبين جماعة وأخرى. فيما الحيوانات التي لا تملك لغة بالمعنى الحقيقي، تتواصل من خلال الإيماءات والصراخات الـــتي تـــوفّر دلالات دقيقة.

2- اللغة البشرية: هي حامل مميّز للاتصال، حيث يرتبط التواصـــل بـــالتعبير الذي يعني انتقال المضمون التعبيري من فاعل إلى قابل (هو فاعل آخر في قبوله المرسلة).

3- في مستوى تجربـــة التخاطـــب بـــين الأنـــا والآخـــر (Expérience Intersubjective): تقوم علاقة مقلوبة بين الطرفين:

أ- كلما كان التعبير جديداً؛ كان التواصل عشوائيا.

ب- كلما كان التعبير عاميا، كان التواصل سهلاً.

1)- معجم المصطلحات اللغوية، د.خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط5، 1995، ص: 55.

4- يستلزم تحليل الاتصالات داخل الجماعة بمجمل التخاطبـــات إلى وحـــدات اتّصال مرسلة من فرد إلى آخر ومنه إلى الجماعة برمّتـــها، وفي درس آثـــار التواصل، لابدّ من التنبيه إلى مـــؤثرات الإعـــلان (Publicité) والدعايـــة (Propagande) والتحقق من فعالية منطقهما وحججهما.

5- يجرى التفريق بين تركيبتين اتصاليتين متعاكستين:

أ- تركيبة متناسقة: يقوم كل فرد بإبلاغ معلوماته إلى الجميع، ويسعى كل واحد منهم إلى إيجاد الحلّ.

ب- تركيبة متمركزة: يرسل الأفراد معلوماتهم إلى أحدهم، فيمركزها، يكتشف حلّها، ويبلغه إلى سواه (**تبلّغ ↔ تبليغ**)[1].

3-3 التواصل في معجم اللسانيات:

يواجه كل باحث صعوبة كبيرة في تحديد بعض المفاهيم اللغوية المرتبطة بأي مصطلح؛ لذا لا يمكن العثور على تعريف واحد للتواصل يـــضم كـــل رضاءات الباحثين؛ غير أننا نجد أنّ معجم اللّسانيات الذي أشـــرف عليـــه «ج.ديبوا» (Jean Dubois) يعرّف التواصل كالآتي[2]:

1- التواصل (La communication): تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج ملفوظا أو قولا موجّها نحو متكلّم آخـــر (Interlocuteur) يرغـــب في السماع أو إجابة واضحة أو ضمنية (Explicite ou implicite) وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلم (Le sujet parlant).

1)- معجم المصطلحات اللغوية، خليل أحمد خليل، ص: 55- 56.

2)- Les voies du langages, Bordas, Paris, Dunod, 1982, P. 2-6.

2- التواصل: حدث نبإ ينقل من نقطة إلى أخرى، ونقل هذا النبإ يكون بواسطة مرسلة استقبلت عدداً من الأشكال المفكوكة (Qui a été codé).

ولكن بعض الدارسين يرى بأنّ هذا التعريف يعمّم بين ما يتّصل باللّغة، وبين ما ليس له صلة بها من معلومات تستخدم في مجال اتــصالات أخــرى غير لغوية.

3-4 التواصل في معجم (A.Moles Démoèl):

التواصل في هذا المعجم هو «عملية جعل فرد أو مجموعة متموضــعة في عنصر من نقطة -س- يشارك في التجارب التي ينشطها محيط فرد آخر متوقع في عهد آخر وفي نقطة -ص- من مكان آخر، مستعملا عناصــر المعرفــة المشتركة بينهما والتجربة الوكيلية»[1].

3-5 التواصل في معجم تعلّم اللغات:

وُجد في هذا المعجــم أنّ «نظريــة المعلوماتيــة» (La théorie de la communication) تحول الإعلام أو تنقله بين باث ومتلق؛ وذلك بفــضل مرسلة تمرّ عبر قناة، مثل الإعلام عن طريق التلفون؛ حيث الباث أو المــتكلم سيرسل إلى مستقبله أو مكالمة مرسلة بفعل ذبذبات كهربائية بواسطة قنــاة الخط الهاتفي»[2].

ولكنّ «قيرو» (Guireau) يرى أنّ هذا التحليل لا يكون في أيّ لحظة معنى للمرسلة؛ لأنّ التواصل يقوم على نقل أو تحويل شكل مسجّل في ماهية

1)- المرجع نفسه، ص: 02.

2)- Dictionnaire de dédactique des lauges: R. Galisson et D.Coste librairie Hachette- 1976- P: 102-104.

أو مادّة، مثال ذلك؛ الأشكال المرئية في رسالة مكتوبة، وأمّا الخطّ الهـاتفي فهو ينقل الطاقة، والحرف لأشكال خطيّة، وعموما فإنّ التواصل لا يتأسّس في المستوى الدلالي إلاّ في الحالة التي يكون فيها الباث والمتلقي يملكان نفس القانون أو السنن لفكّ المراسلة(1).

وإلى جانب هذا يرى «أندري مارتيني» (André Martinit) ولسانيون آخرون أن التواصل هو إحدى وظائف اللغة، حيث أن اللغة هي الوسيلة التي تسمح لمستعمليها بالدخول في علاقات مع بعضهم بعضا، وهـي تـضمن التفاهم المتبادل بينهم(2).

ويبدو أن «مارتيني» في تصوّره هذا لم يهمل الجانب الدلالي لمصطلح التواصل.

3–6 التواصل عند السيميائيين العرب:

لقد اصطنع السيميائيون العرب مصطلح «التبليغ» و«الإبلاغ» مقـابلا للمصطلح الأوروبي (Communication) وهو في تمثل الأستاذ عبد الملك مرتاض أدقّ وأدلّ على هذا المعنى من مصطلح «التواصل» الذي قد يشيع في كتابات بعض النقاد العرب المعاصرين، ذلك أنّ المصطلح الأوروبي إنمـا ورد في أصوله على صيغة التّعذية المعنوية، على حين أنّ معادله العربي «التواصل» لم يرد في العربية لهذا المعنى بل هو محايد لا يتعدّى إلى أي معنى في غيره، وإنّما يقتصر على ما فيه من معنًى في نفسه(3).

---

1)– المرجع نفسه، ص: 103.

2)– المرجع نفسه، ص: 103.

3)– مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي، د.عبد الملك مرتاض، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، 1992، العدد الأول، ص: 13.

و«التبليغ» بمفهومه العام يشمل الإخبار، أو نقل أمر من أعلى إلى أدنى، أو من أعلى إلى مستوى مماثل له في الدرجة.

ولفظ «البلاغ» اسم قديم الاستعمال في اللغة العربية، وقـد ذكـر في القرآن الكريم وصفاً لوظيفة الأنبياء والرسل تجاه من أرسلوا إليهم من الأمـم ليبلّغوهم رسالات الله.

وهذا ما يبيّنه الجدول الآتي:

اسم السورة	رقـم الآية	الآيـة
الرعـد	40	﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وعَلَيْكَ الحِسَابُ﴾.
النحـل	82	﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ المُبِينُ﴾.
الأنبيـاء	106	﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.
الجـنّ	23	﴿إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ ومَنْ يَعْـصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِـدِينَ فِ]هَـا أَبَداً﴾.

أما «غريماس» فإنّه يرى أنّ «نظرية التبليغ» إنّما جاءت علـى غـرار نظرية الإعلام وبتعالق معها،... ولمّا كانت نظرية التبليغ في أصـلها نظريـة لسانية، فإنها لم تكد تعنى إلا بالشبكة المظهرية الرابطة بين المرسل والمرسـل إليه، وما بينهما، وما يعتور علاقتهما من متعارفات الدلالة الوضعية كالسياق الدال، والشفرة المستخدمة بين الطرفين(1).

1)− Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et courtes, communication, P :45.

بينما يطلق عبد الله الغذامي اسم «نظرية الاتصال» على تلك المـــسماة «نظرية التبليغ»، أمّا «دي سوسير» فإنّ نظريته تنهض على نزعة اجتماعية، ولذا فهو يرى أنّ «التبليغ» ضرب من الحدث الاجتماعي الملاحظ في فعـــل الكلام، وبالتالي فإنّ نظريته تقوم على وجود شخصين اثنين على الأقل (باث ومتلق) لسيران تيار الكلام[1].

ومن منظور «علم النفس» يذهب النفساني «بـــوهلر» (Boohler) إلى أن النشاط اللساني يتحدّد بثلاثة وظائف تتمثل في[2]:

1- التعبير من حيث هوباث.

2- النداء من حيث هو مبثوث له أو متلقٍّ.

3- الاستحضار بما فيه من طبيعة الإحالة على المرجع أو السياق.

ثم جاء «جاكبسون» (R.Jakobson) فأضاف إلى هذه النظرية الثلاثية، وفصل من أمرها ما كان موجزا فغدت سداسية العلاقة حسب الشكل التالي[3]:

سياق

رسالة

باث ———————— ———————— متلق

اتصال

شفرة

---

1)- المرجع نفسه، ص45.

2)- Sémiotique dictionnaire; P:45.

3)- الألسنية (علم اللغة الحديث)، د.ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص: 85.

وتقوم رسمة «دي سوسير» على الصورة نفسها تقريبا، غير أنه يركـز على جهازي النطق والسمع من جهة والإرسال والاستقبال من جهة أخرى، بينما يركز «جاكوبسون» على السياق وضرورة الاتصال.

ويعدّ «دي سوسير» من الأوائل الذين تعرضوا إلى إشكالية التخاطـب عند الإنسان، فقد بادر إلى تجاوز العملية التي تفترض مرسـلا ومرسـلا إليه وكلمات متبادلة بينهما[1].

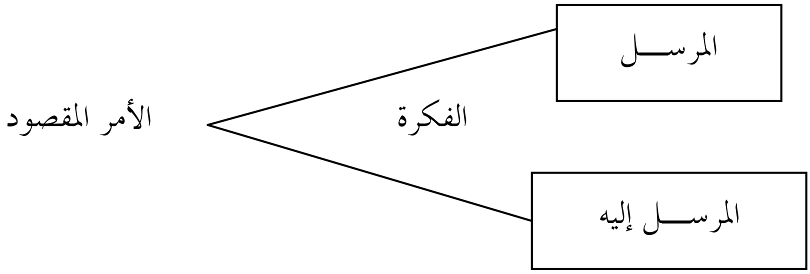

ليحدّد مخططاً عامّاً أكثر عمقا لظاهرة التواصل اللّغوي، يأخذ عدّة أبعاد ذهنية وتصورات فكرية، وقنوات فيزيائية وصوتية، ونفسيّة فيزيولوجية[2].

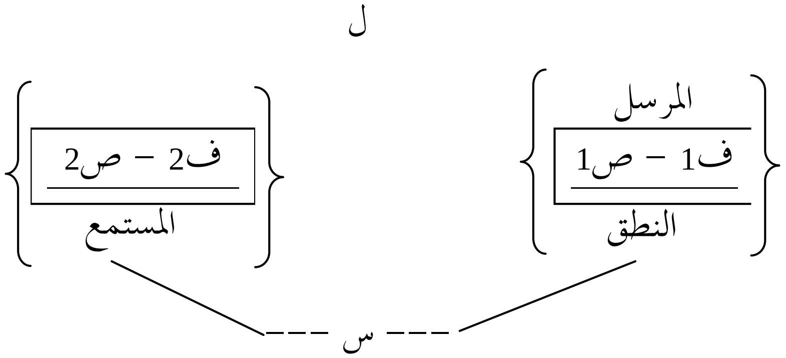

1)– مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ترجمة: د.بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1980، ص: 47.

2)– مدخل إلى اللسانيات، ص: 47–48.

حيث تمثل[1]:

1- (ف1) تصوّر فكري مرفق بصورة ذهنية (ص1) للفظة التي تعبّر عن ذلك التصوّر في اللغة المشار إليها.

2- يلفظ المرسل الكلمة المرسلة بواسطة عملية النطق.

3- تتحرّك هذه الكلمة المنطوقة عبر المسافة (س) الفاصلة بين المرسل والمستمع (المرسل إليه).

4- يتلقاها المستمع (ع) أو المرسل إليه.

5- يقوم الجهاز اللغوي للمستمع بتأويل هذه اللفظة من حيث هي صورة صوتية (ص2) ملازمة بالتواضع للتصوّر الذهني (ف2) الذي تشير إليه.

6- تشير الدائرة (ل) إلى الجانب النفسي للكلمة وبالتالي؛ فإذا كان ف1=ف2 صحّ التفاهم بين الباث والمتلقي أي نجاح العملية التواصلية.

ولكن وعلى الرغم من أنّ مخطط «دي سوسير» قد حدّد وبعمق ظاهرة التواصل اللّغوي، إلاّ أن اللسانيّين يطمئنون أكثر إلى مخطّط «رومان جاكبسون» الشهير[2].

وذلك أن مخطط «دي سوسير» لا ينهض بكل عملية من عمليات التخاطب، خاصّة كان مرتبطا بالقاعدة الفيزيائية التي تساعد على تبليغ الرسالة، ونقل إشارتها التي تعني القناة فضلا عن سياق التخاطب الدال على

1)- اللغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص: 10.

2)- اللغة والتواصل، ص: 11.

المقام أو الظروف المحيطة بالإبلاغ واطراد القول مـــن الماضـــي إلى الحاضـــر فالمستقبل[1].

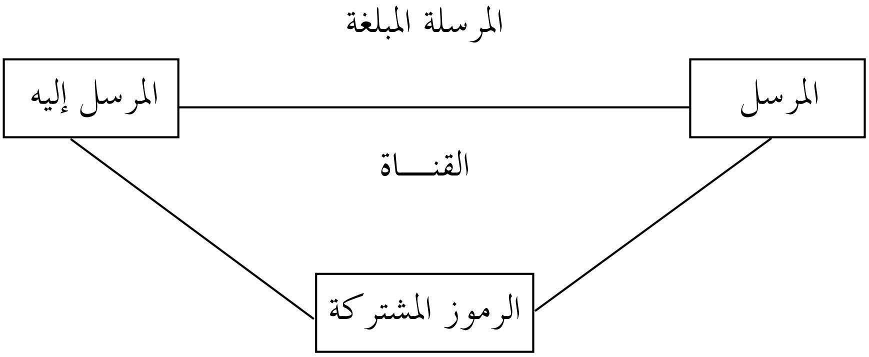

مخطط سياق التخاطب

وانطلاقا من هذا المخطط الجاكوبسوني لعلمية التواصل اللغوي تم تحديد الوظائف الستّة للاتصال على الشكل التالي[2]:

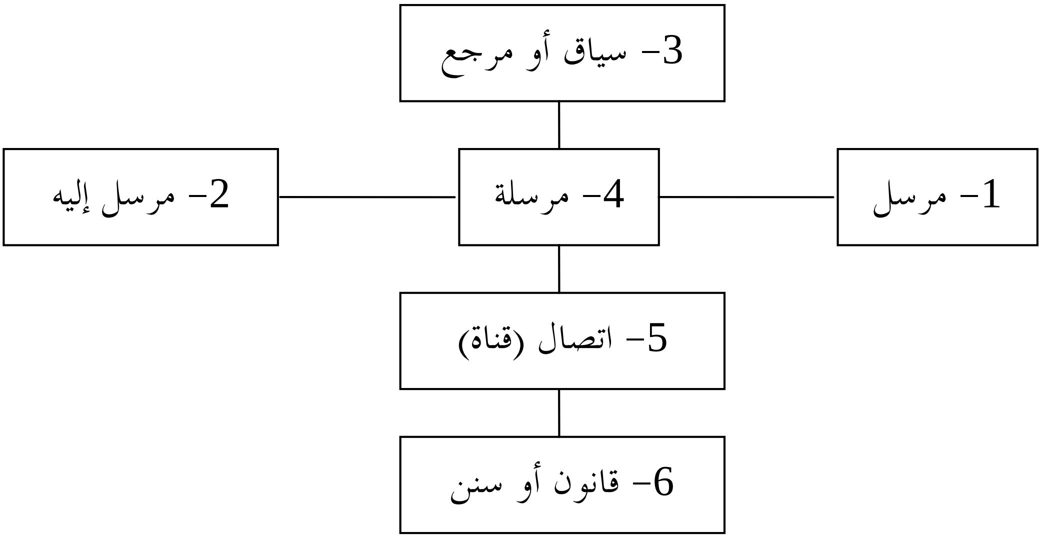

1)- مدخل إلى اللسانيات، ص: 50.

2)- Les voies du langage, P: 05.

بحيث كل عنصر من هذه العناصر الستة يقابل وظيفة أساسية:

1- المرسل ← الوظيفة التعبيرية، وتتعلق بالمتكلم ولذلك قد تسمّى انفعالية.

2- المرسل إليه ← الوظيفة الندائية، وتتعلق بما يتلقاه الشخص الذي يوجه إليه الخطاب قصدا أو عن غير قصد.

3- السياق أو المرجع ← الوظيفة المرجعية (الإخبارية).

4- المرسلة ← الوظيفة الشعرية أو الإنشائية.

5- الاتصال أو القناة ← وظيفة إقامة الاتّصال.

6- القانون أو السنن ← وظيفة تعدي اللغة أو ما وراء اللغة.

3-7 نظرية التبليغ عند «بلومفيلد» (Bloomfield):

سيناريو جاك وجيل: معروف في كتب اللسانيات الغربيـــة أن نظريـــة «بلومفيلد» تمثلها هذه الرسمة(1):

حح ———— رع ———— رض ———— حض

حيث إن:

1- حح: تمثل «الحافز الحقيقي» (Le stimulus effectif) (شـــعور جيـــل بالجوع ومشاهدتها التفاحة).

2- رع: ردّ «الفعل العملي» (Réaction active) (مجاوزة جاك الـــسياج، وتسلقه الشجرة).

---

1)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث الغربي، د.عبد الملك مرتاض، ص: 15.

3- رض: رد «الفعل الاستيعاضي» (Reaction substitive) (جيل تنـــتج ملفوظا، الموجات الصوتية تنفرز من حنجرتها وشفتيها).

4- حض: الحافز الاستيعاضي (Le stimulus substitif) (ملفـــوظ جيـــل يسمعه جاك).

ويمكن تمثيل هذه الوضعية باختصار على الشكل التالي[1]:

- الوضع السابق لفعل الكلام.
- الكلام.
- الوضع اللاّحق لفعل الكلام.

وبعد هذا نخلص إلى أنّه إذا كان «بلومفيلد» يتّفق مع «دي سوسير» في تأسيسهما النظرية التواصلية فإن بلومفيلد يجاوز دي سوسير في كونه ينحـــو بنظريته منحى نفسانيا بإشارته إلى ذلك التأثير الذي يحدثه فعـــل الكـــلام في النفس البشرية.

ومعلوم لدى الدارسين أن نظرية «بلومفيلد» قامت على الصمت، لأنّ لا «جيل» ولا «جاك» يحادث أحدهما الآخر حديث الكلام؛ وبالتالي فـــإن نظرية «بلومفيلد» هي نظرية سيميولوجية خالصة، بينما تكتسي نظرية «دي سوسير» طابعا لسانيا محضاً، لأنها تتعلق بالكلام لا بالإشارات أو الهمهمات أو ما شابه ذلك.

وغير بعيد عن النظرية التواصلية «لدي سوسير» نجد أنّ «ابن خلدون» يقترب من هذه المسألة حين يتحدث عن نظرية التبليغ اللسانية، وأنها تقـــوم

1)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 17.

على «مراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال»[1]، وأن المتكلم (الباث أو المرسل) إذا جاء ذلك «بلغ (...) حينئذ الغاية من إفادة مقـــصوده للسامع»[2].

فكأنّ هذه النظرية الخلدونية تبدوا أشمل من النظرية السوسيرية، لأنها لا تلتمس التبليغ في صورة ميكانيكية فجّة، فتكون في كثير من الأحيان قاصرة عاجزة، وإنما تلتمسه داخل شبكة توصيلية، وعبر قنوات أدواتها؛ العلم باللّغة، والقدرة على التبليغ، واكتساب الملكة على هذا التبليغ[3].

وإذا ما حاولنا تفسير كلام ابن خلدون عن النظرية التبليغية ومقارنته مع ما ورد عن دي سوسير وجاكبسون، فإننا سنجد حتما مايلي:

1- «المتكلم» (لدى ابن خلدون) وهو الطرف المرموز لـــه في نظريـــة دي سوسير بـــ(أ) وهو إذن الطرف المرسل للرسالة.

2- «السامع» (لدى ابن خلدون) هو الطرف المرموز إليـــه في نظريـــة دي سوسير بـــ(ب) وهو إذن الطرف المتلقي للرسالة.

3- «الكلام» في نظرية (ابن خلدون) هو العنصر الذي يقابل أو يمثل الرسالة في نظرية (جاكوبسون) أي الغرض من وراء الكلام الملقى إلى السامع.

4- «مقتضى الحال» في نظرية الخلدونية هو العنصر الذي يعادل في نظريـــة (جاكبسون) «السياق» وإن كان البلاغيون العرب ربطوا في كثير مـــن

1)- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، القاهرة، د.ط، د.ت، ج38/1.

2)- المقدّمة، عبد الرحمن بن خلدون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 1071.

3)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 19.

أطوار تعاملهم مع اللّغة والخطاب؛ الدلالة بالسياق[1].

5- إنّ ما يسميه «جاكبسون» «الاتصال» (Contact) ليس هو في الحقيقة إلاّ ما ورد في تحديد العلاقة بين المتكلم والسامع في النظرية الخلدونية وذلك حين يتمثل هذه المسألة في بلوغ «المتكلم حينئذ الغاية من إفادة السامع»[2].

6- «مقصوده» وهو العنصر الذي يعادل إلقاء الكلام أي إلقاء الرسالة.

ومن غير الممكن حصر كل الآراء والنظريات التي تعرضت للخطاب والتواصل بالدراسة والتحليل، ومجمل القول أنّ الحياة البشرية برمّتها تقوم على التخاطب والاتصال أي على العلاقات الإنسانية مما في ذلك العلاقة الدينية والعاطفية والفكرية والسياسية والتجارية والعائلية والمهنية،...

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الاتصال لم تظهر إلاّ بعد ظهور العالم «شانون» (Shannon) سنة 1949 بمساعدة العالم «ويفر» (Weever) على أنّ القسم الأكبر لهذه الدراسة الهامّة الخاصة بهذا المجال، جاءت من خارج علم النفس؛ أي من جهود المهندسين والرياضيين، خاصّة بعد نشر عمل «كلود شانون» الموسوم بعنوان: «النظرية الرياضية التبليغية» (La théorique mathématique de la communication)[3].

ولقد أحدثت هذه النظرية ثورة لفتت انتباه جلّ المهتمين بحقول الإعلام، فتغلغل بعد ذلك الاتصال في علم النفس عن طريق علم النفس الاجتماعي، واللسانيات النفسية، وعن نظرية الشخصيّة.

---

1)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 20.

2)- المقدمة، ابن خلدون، ص: 1071.

3)- مقال: نظرية التبليغ بين الحداثة والتراث العربي، ص: 21.

ونتيجة لكل ما سبق ذكره نخلــص إلى أن الاتــصال (Le contact) ظاهرة بشرية اجتماعية إذ لا حياة بدون اتصال؛ ذلك أن الاتصال واقعة حية في السلوك البشري، الهدف منه التمكن من تحقيــق العلاقــات الإنــسانية والاجتماعية مع طرف آخر أو مع جماعة من الناس.

ومجمل القول أن هدف كل خطاب إقناعي هو التواصل بين البشر سواء في التخاطبات اليومية التي تعتمد في تواصلها على الحوار والمحاورة أو التحاور، أو في المجالات العلمية الأخرى، هذا -طبعا- دون إغفال اللغة بعدّها خاصيّة بشرية هامّة.

I- البلاغة الكلاسيكية والخطاب:

لم تكن دراسة التواصل كنظرية علمية سطع نجمها في العقود الأخيرة بعيدة عن الإشكالات التي ترتبط بتحليل الخطاب في مختلف العلوم النظرية والعملية (فلسفة، أدب، لسانيات، نقد،...) التي أصبحت تهتم بالخطاب في ذاته وفي علاقته بباقي الحقول المعرفية الأخرى، وتسعى إلى إبراز القيم الجمالية والمعرفية والفكرية التي ينشئها الخطاب كيفما كان جنسه بحثا عن إحداث تواصل دلالي؛ وتواصل تداولي أو تواصل قصدي،... حسب الاتجاهات والمذاهب.

ومن بين أهم الجوانب التي اهتم بها محلّلو الخطاب داخل نظريات التواصل؛ الجانب البلاغي والجانب الخطابي بصفة عامّة، لما له من حضور فعّال في كل نشاط إنساني سواء تعلق الأمر بإنتاج الفكر أو ممارسته ممارسة تتجه بالأساس إلى الآخر؛ لأن الإنسان لا يفكر أو يتفلسف أو يكتب أدبا أو غيره؛ بمعزل عن العالم.

إنّه يفعل ذلك ليتواصل مع محيطه الخارجي تواصلا مستمرّا وفعّالا مع كل ما يحتويه هذا المحيط من مؤثرات ومحفزات وإكراهات وإشكالات وافتراضات،... ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كآلية رئيسة في تشكيل الخطاب لتحقيق تواصل مميّز ومثمر بين الناس.

واليوم نعيش عودة قوية للبلاغة، إنّها تعرف حضورا متميّزا في مشهد علوم التواصل، لاعن طريق تعليمها في الثانويات والجامعات، لكن عن طريق الإشكالات التي تطرحها داخل الخطابات اليومية التي يتداولها الناس فيما بينهم، داخل المؤسسات الاجتماعية، والسياسية، والبرلمانية، والحكومات، والشارع، والمقهى، والمترل،...[1].

1)- إشكالات التواصل والحجاج (مقاربة تداولية معرفية)، رسالة دكتوراه، عبد السلام عشير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، المغرب، 1999-2000، ص: 13.

ولقد أصبح العالم يستهلك البلاغة تحت ضغط الحاجة التي تقتضي تواصلا يجلب المنفعة والتفاهم، وقضاء المآرب والمصالح والاتفاقات، إنّها الإشكالات التي تطرحها نظرية الحجاج باعتبارها في الحقيقة الخيط الرابط لكل النقاشات التي دارت حول الخطاب والتواصل منذ القديم إلى اليوم، من ديمقراطية «أثينا» إلى ديمقراطية الأمم المتّحدة ومجلس الأمن الدّولي[1].

I-1- البلاغة وجمالية اللّغة:

تتميّز الأمّة العربية بخصوصيات عديدة من بينها لغتها التي درج الباحثون على الانتباه إليها، فالعربي شديد التأثر بالألفاظ وموسيقاها ومعانيها يشدّه حسن الكلام ورونقه شدّا، حتى كانت فنون الشعر والخطابة من نشاطاته البارزة، وحتى أصبح التميز فيهما أمرا يأتي صاحبهما بحظ أوفر، وكثيرا ما حقق له حظوة ومكانة في أكثر من مجال، كأن يأتيه بالجاه أو المال أو العطف أو الصفح، فخليفة المسلمين يمكن أن يعفو عنه عن إثم أو جريرة والآخر قد يهبه ما يريد، وذلك كله إنّما يعود إلى سحر الكلمة وعذوبتها، فالكلمة تحمل معنى صادقا دقيقا يتأكّد بردود فعل صاحبها، حيث تقترن بذاته اقترانا يجعله شديد التأثر بالبيان الساحر[2].

والواقع أن العربي لا يزال يتفاعل مع مفردات لغته التي تمسّ مشاعره وأحاسيه وطاقاته وجذوره وامتداده ضمن واقعه القومي والاجتماعي، ولعل هذا الذي أدّى بالدارسين إلى البحث في طبيعة اللّغة ووظيفتها ودلالاتها، وخاصة ما تعلق بالبلاغة كون البلاغة نظام الخبرة باللّغة وجمال الكلام.

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- مقال: التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، د. رمضان كريب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، د.ت، ص: 1.

ومهما يكن، فإن اللّغة لا تستمدّ جماليتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها أصواتاً وتراكيب ومجازات ذات طاقة تأثيرية مباشرة، ولكن من علاقتها بالجنس الأدبي الذي تذعن له في صوغ أبنيتها إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة في أفق جمالي جديد، حيث يعمد المبدع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها متفقا مع ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت وعلى هذا النحو تتحدّد جمالية اللّغة وأسلوبيتها بوظائفها التصويرية في سياق جنس أدبي محدّد وكأن طاقة اللّغة في التأثير تكمن في الجنس الأدبي نفسه باعتباره أداة فنية متميزة يناط بها توصيل رسالة إنسانية(1).

ولعلّ شيئاً شبيها بهذا قد حصل للتفكير البلاغي العربي القديم الذي بدأ مرتبطا بجماليات اللغة العربية كاشفا عن خصائصها التعبيرية والفنية، فهذه اللّغة التي قال عنها ابن جنّي إنها «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»(2)، تتجاوز وظيفتها التواصلية النفعية إلى وظائف جمالية وقف التفكير البلاغي الموروث بتأملها بشغف كبير، لم يلبث أن تمخّض عن «أبْوَاب» ومباحث مهمة تمثل حصيلة استقصاءٍ دقيق لجماليات هذه اللغة التي وصفت بالحكمة والإتقان(3).

والحق، إن هذا التفكير البلاغي قد وجد في الشعر ضالته المنشودة حيث اعتبر هذا الجنس من الكلام شاهداً على أساليب العرب، فهو النموذج الأمثل

1)- مقال: البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، د.محمد مشبال، عالم الفكر، المجلد 30، العدد 01، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو/سبتمبر2001، ص: 51-52.

2)- الخصائص، ابن حنّي، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1986، ج1/34.

3)- البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 58.

الذي يستمد منه العالم الحجّة لإثبات خصائص العربية في التعـــبير الجمـــالي، وهكذا تحولت بلاغة الشعر إلى سند يترافع إليه علماء اللغة والبلاغة للـــدفاع تارة عن حكمة العربية وتارة عن إعجاز القرآن[1].

وبناء على هذا الاعتبار، عدّ الشعر كأهم عنصر في بنية ثقافة المجتمـــع العربي، وكنمط للتعبير الذي شغلهم عن التفكير في أنماط أخرى؛ لأن الشعر آنذاك كان «علم العرب الذي لم يكن لهم علم أصح منه»[2].

I-2- الشعر معياراً للبلاغة:

يرى معظم الباحثين أنّه من الشعر انطلقت معظم الأفكـــار البلاغيـــة والنقدية في تراثنا العربي، ولن يعترض على هذا سوى القول إنّ طبيعة هـــذه الأفكار لم تكن تخلص للتعبير لشعري كما تفهمه اليوم ودليلهم في ذلك مـــا شهدته الخطابة من انتعاش وازدهار في العصور الإسلامية الأولى ممّا كان لـــه تأثير قوي في صياغة التفكير البلاغي الذي يعدّ الجاحظ أحد ممثليه الأوائل[3].

وربّما يبنى رأي هؤلاء النقاد على أنّ السمة الخطابية في الشعر العـــربي الذي لم يكن ممكنا فصله عن الوظيفة الإقناعية التي ارتبطت به بحكم المكانـــة السامية التي احتلها في سلم القيم الاجتماعية، وحتى عندما تدهورت مكانته في المجتمع العربي، ظل يمارس الإقناع ولكن هذه المرّة بطريقـــة أخـــرى، لم

1)- المرجع نفسه، ص: 58.

2)- طبقات الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق وشرح: محمود شـــاكر، القـــاهرة، 1952، ص: 22.

3)- التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السّادس، مشروع قـــراءة، حمودي صمود، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981، ص: 185.

ينفصل فيها الشعر العربي عن الحكمة والمثل السائر مثلما لم ينفصل عن ممارسة التأثير في نفوس الممدوحين واستجدائهم للعطاء[1].

هكذا كان الشعر موضع نظر لتفكير البلاغي والنقدي، ومنه انبثقت معظم الأفكار والأصول الجمالية الموروثة، حتى إن الدارس لا يكاد يجد أي أثر للأجناس النثرية في مسار هذا التفكير الذي ظلت مفهوماته ومصطلحاته تدور في فلك الشعر ولكن هذا لا يعني أننا لا نجد أدنى اهتمام بالنثر، فالواقع يثبت أن هناك نقاداً أولوا عناية واضحة بالنثر نذكر منهم ابن وهب وأبا الهلال العسكري وابن عبد الغفور الكلاعي وابن الأثير[2].

ومن منظور «ألفت كمال الروبي» فإن العناية بالنثر لم تتجاوز تصنيف أجناسه وتحديد خصائصه الأسلوبية الشكلية التي تميّز كل جنس نثري عن الآخر، وتميّز النثر عن الشعر كما أنّ ذلك الاهتمام بالنثر لم يتجاوز جنسي الخطابة والترسل إلى الأجناس النثرية السردية[3].

ولعلّ الناقدة تكون قد انطلقت في نقدها هذا من قول ابن عبد الغفور الكلاعي وهو من نقاد القرن السادس «وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسيل، ومنها التوقيع، ومنها الخطبة، ومنها الحكم المرتجلة والأمثال المرسلة، ومنها المروّى والمعمى ومنها المقامات والحكايات، ومنها التوثيق، ومنها التأليف، وتأملت أيضا،... الأسجاع

---

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 62.

2)- المرجع نفسه، ص: 62.

3)- الموقف من القص في تراثنا النقدي، ألفت كمال الروبي، مركز البحوث العربية، القاهرة، 1991، ص: 121.

فوجدها على ضروب وأنواع فمنها ما يجب أن يسمّى المنقاد ومنها ما يجب أن يسمّى المضارع ومنها ما يجب أن يسمّى المشكّل»[1].

ولقد أفرد الكلاعي لكل جنس نثري حديثا خاصا، أما فيما يخصّ النثر السردي فقد اكتفى بذكر بعض الأعمال المعينة بقوله: «ومن الحكايات المختلفة والأخبار المزوّرة المنمقة، كتاب (كليلة ودمنة)، وكتاب (القائف) لأبي العلاء المعرّي، وقد تكلموا فيه على ألسنة الحيوان، وغير الحيوان»[2].

ومن هذا الموقف أظهرت «ألفت كمال الروبي» أن نقادنا «لم يعرضوا لمفهوم واضح ومتكامل للقص بوصفه جنسا أدبيا له وجوده المستقل بين الأجناس النثرية الأخرى فلم يدرجوا القصص ضمن تصنيفاهم لأشكال النثر المختلفة»[3]، ولعل السبب في ذلك يعود إلى افتقار القص للوظائف النفعية المباشرة التي كانت للخطابة والكتابة الديوانية، كما أنّ أصحابه لم يحظوا بالمترلة التي حظي بها الخطباء والكتاب، وما يؤلفونه موجه للعوام والجهال[4].

ومهما يكن، فقد حذا كتاب النثر حذو الشعراء في أساليبهم وأغراضهم إلى درجة كادت تتوارى فيها الحدود بين لغة الشعر ولغة النثر، ولعل هذا الذي أدّى بالكلاعي إلى القول: «وتأملت... النثر فوجدت فيه من أنواع البديع ما في النظم فأغفلت ذكرها في هذا الكتاب: لأن كثيرا من العلماء قد

---

1)- أحكام صنعة الكلام، محمد عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، 1966، ص: 95-96.

2)- المرجع نفسه، ص: 208.

3)- الموقف من القص في تراثنا النقدي، ص: 121.

4)- المرجع نفسه، ص148.

عنوا بهذا الباب»[1]، كما ذهب ابن أبي الإصبع المصري إلى أن أكثر أنــواع البديع تعم الشعر والنثر معاً وقليل منها يخصّ الشعر[2].

وبعد سياق المفاضلة الذي خضع له كل من جنسي النثر والشعر، نخلص إلى أن موقف النقاد اللغويّين من الشعر كان واضحا فهو عندهم (أي الشعر) مصدر اللغة الفصيحة ومعيار البلاغة والفن، ولا مكان عندهم للنثــر ومــن هؤلاء النقاد الأصمعي وابن السلام الجمحي.

أما موقف نقاد الشعر الأدباء فإنهم لا يرون بأساً في أن يعرضوا قــضايا الشعر النقدية بالإحالة إلى المنثور من الرسائل والمقامات والجوابات[3]، ولقد لجأ ابن طباطبا إلى الرسالة في حديثه عن بناء القصيدة[4]، ونعت قدامة النثــر بالمذهب[5]، والمقصود به طريقة التعبير الّتي يتميّز عنها الشعر إن النثر عندهم يشمل كل ما لم ينظم في أبيات ويقصد[6]، من خطب وأمثــال ورســائل

1)- أحكام صنعة الكلام، ص: 95.

2)- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القــرآن، ابــن أبي الإصــبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القــاهرة، 1383، ص: 95.

3- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص:80.

4)- عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المــانع، مطبعــة المــدني، المؤسسة السعودية بمصر، توزيع مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1985، ص: 7-9.

5)- نقد الشعر، قدامه بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القــاهرة، ط3، 1978، ص:58.

6)- نقد الشعر عند العرب، حتّى أواخر القرن الخامس، أحمد الطرابلــسي، ترجمــة: إدريس بالمليح، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص: 119.

ومقامات وأجوبة الفصحاء[1].

وانطلاقا من هذا فإن الاهتمام النقدي بالزوج: «الشعر والنثر» يتدرج في إطار تحديد لغة الشعر وما يميزها عن لغة الكلام العادي أو اللغة العلمية (لغة البرهان) أو لغة الخطابة على اعتبار أنّ لغة الشعر هي النموذج الأعلى وهي التي تجسد المثال الرفيع للفن اللّغوي الذي قامت عليه البلاغة والنقد.

وعلى هذا الأساس خضعت الكتابة لأساليب الشعر وأصبحت لغته النموذج الذي ينبغي احتذاؤه لبلوغ مرامي البلاغة وقد عبّر أبو هلال العسكري عن أن حاجة كل متأدب إلى الشعر ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة فهو «ديوان العرب وخزانة حكمتهم ومستنبط آدابهم ومستودع علومهم»[2]، ومنه تنزع الشواهد وتؤخذ ألفاظ اللغة الموسومة بالجزالة والفصاحة والفحولة وكذا الغرابة[3].

وعلى هذا الاعتبار، لم يكن للكاتب أو الخطيب بدّ من أن يتّكئ على الشعر إذا أراد التأثير في النفوس سواء فيما يلجآن إليه من تضمن أو اقتباس من الأشعار، أو فيما يعتمدانه في صياغة أسلوبهما، وغير خاف ما يضطلع به الشاهد الشعري في جميع حقول الثقافة العربية الإسلامية القديمة وقد قال ابن نباتة: «من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلاّ منه، أعني أنّ العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللّغويين يقولون: «قال الشاعر» وهذا كثير في الشعر، فعلى هذا فالشاعر هو صاحب الحجّة، والشعر هو الحجّة»[4].

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 63.

2)- المرجع نفسه، ص: 66.

3)- نقد الشعر عند العرب، ص: 120.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبعدُ هل يكون إقرار بعض النقاد بأفضلية الـشعر ليحجـب المكانـة الحقيقية التي حازها النثر؟

I-3- بلاغة القرآن أم بلاغة الشعر؟

هناك رأي سائد قديما وحديثا يعتبر البلاغة علما كليا يشمل الشعر والنثر معاً، ومن ثم فإن المبادئ المستخلصة والأصول المقررة لا تقتصر على أحـدهما دون الآخر ولكن تأكيد هذا الرأي يجعلنا نقرّ بإغفال البلاغيين للفـروق بـين الأجناس الخطابية إذ يعتبر الشعر الجنس الأدبي الذي وجه البلاغة العربية وأملى عليها مقولاته ومصطلحاته ورسم لها الطريق الذي نهجته فيما بعد، رغـم مـا كانت تموج به الثقافة العربية الإسلامية من أجناس إبداعية أدبية أخرى، ولهـذا نجد من يرى في القرآن، النص الذي قام حوله التفكير البلاغي[1].

ولقد ظهرت دراسات بلاغية منذ القرن الثاني مع مفسرين لغويين: الفراء (207هـ) وأبو عبيدة (210هـ) والأخفش (215هـ) ولكنها لم تتبلور حتى القرنين الرابع والخامس مع ظهور الكتابات الخاصّة بالإعجاز. ولكن ما يمكن إثباته هو أنّ البلاغة التي نشأت حول النص القرآني تدين في أصـولها لمعيـار الأسلوب الشعري الذي ترسّخت بلاغته في الذهنية المتلقية، وتجذرت قيمـه الذوقية[2] ممّا جعل أبا عبيدة يتخذه حجّة لإثبات أنّ القرآن نص عربي يجري على سنن كلام العرب وخصائصه[3].

1)- البلاغة ومقولة الجنس الأدبي: ص66- 67.

2)- المرجع نفسه، ص: 67.

3)- مجاز القرآن، أبو عبيدة، تحقيق: فؤاد سزكين، مؤسسة الرسـالة، ط2، بـيروت، 1981، ج18/1.

وانطلاقا ممّا ذهب إليه أبو عبيدة وغيره من المفسرين يمكننا القول إنّ القراءة التي شاءت الدفاع عن أسلوب القرآن قد وقعت في تمجيد أسلوب الشعر لما يحوزه من تأثير في نفوس المتلقين، وبذلك كانت إشباعاً للذوق المتلقي واستجابة لمعاييره الجمالية. وهي لذلك -أي القراءة البلاغية- لم تفلح في ضبط الخصوصية الأسلوبية للقرآن، وذلك أنها قيدت نفسها بالإجابة عن إشكال محدّد يتمثل في أن أسلوب القرآن مماثل لأساليب العرب المتداولة في شعرها و لم يخرج عنها[1].

ونظرا لاهتمام مناصري بلاغة النص القرآني، صدرت قراءات بلاغية إعجازية من مبدأ تفوق الأسلوب القرآني على بقية الأساليب البشريّة. وهذا الذي يستشعره قارئ أهم مصنف بلاغي في هذا الباب، وهو كتاب «دلائل الإعجاز» وبغض النظر «عمّا يؤمن به عبد القاهر الجرجاني من تفوق بلاغة القرآن فإن القارئ لا يعثر في كتابه على خصائص مميزة لأسلوب هذا النص الجديد، وكأنّ عبد القاهر يستند إلى جمالية الأسلوب الشعري نفسها لإثبات تفوق الأسلوب القرآني»[2].

وعلى هذا النحو ظلت البلاغة هي الأخرى أسيرة جماليات الشعر، من حيث أرادت أن تثبت جمالية القرآن؛ وبالتالي لم يتم الإقناع بأفضلية التعبير القرآني دون الرجوع إلى ما يناظره في ذهنية المتلقي، وهكذا كان المنهج الإقناعي المتحكم في الدرس البلاغي الإعجازي طريقا لإثبات التشابه مرّة أخرى وليس التمايز النوعي.

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 68.

2)- المرجع نفسه، ص: 68.

I–4– خصائص البلاغة:

لم تكن البلاغة في العصر القديم مرادفة لنظرية الأسلوب، ولقد أشـــار «بول ريكور» (Paul Ricœur) إلى تعدّد المجالات التي كانت تشغلها بلاغة أرسطو، وهي نظرية الحجاج التي تمثل المحور الأســـاس ونظريـــة الأســـلوب ونظرية تأليف الخطاب: «وما تقدمه لنا الكتابات المتأخرة في البلاغة لا يعدو أن يكون مجرّد بلاغة مقيدة،...فقد أصبحت تقتصر على نظرية الأسلوب ثم بشكل أضيق على نظرية المجاز»(1).

وهكذا تقلصت البلاغة إلى أحد أجزائها المتمثل في الأسلوب أو العبارة Elocution، وبذلك أصبحت مرادفة للأسلوبية، وبعد أن كان مفهوم البلاغة قائما على الإقناع عند المفكرين الأوائل، أصبح فيما بعد يفيد «فـــن تجويـــد الكلام»(2).

وبناء على المفهوم الجديد للبلاغة «فن تجويد الكلام» صارت البلاغـــة هي اختيار التعبير المزخرف الذي يمكنه خدمة الوظيفة الإقناعيـــة. وهكـــذا أصبحت البلاغة التي تحظى بالتقدير هي تلك التي تتغيّا المحسنات أي بلاغـــة تجويد الكلام وخلق أنماط لغوية جميلة(3) وبذلك لم تعد البلاغة فنـــا يـــسخّر الوسائل اللّغوية من أجل غاية خارجية.

ومهما تباينت الأساليب الداعية إلى أفول نجم البلاغة بمعناها القديم فلعل

---

1)– La Métaphore vive, Paul Ricœur, Paris, 1975, le seuil, P: 13.

2)– مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 70.

3)– Rhétorique de la poésie, Group Mu, 1982, le seuil, P: 13.

– نقلا عن البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 71.

انتقال موضوعها من الخطابة إلى الشعر، أن يمثل عاملا في تفسير تحوّلها من مذهب شامل إلى نظرية في الاستعارة والكناية[1].

وفي النهاية نخلص إلى أن لكل جنس أدبي جماليته الخاصة وبلاغته المتميزة، كما نستنتج أن الشعر هو الجنس الأدبي الذي خضعت له التصورات النقدية والبلاغية الموروثة، كما عُدّ الأسلوب الشعري معياراً جماليا يوجه الأنظار وتتحاكم إليه الأصول والمبادئ ومعيار كذلك في معظم الأنظار الأسلوبية والبلاغية المعاصرة.

I-5- معيار الوظيفة:

لما كانت وظائف اللّغة متعدّدة، انعكس ذلك على بنيات الكلام، حيث ارتبط اختيار النمط التعبيري بنوع الوظيفة المقصود توصيلها في الرسالة اللّغوية.

وغير خافٍ «أنه لا تستقل الرسالة بوظيفة واحدة، فقد نجد في الرسالة الواحدة وظائف عدّة، وما يميّز رسالة عن أخرى هو طبيعة النظام التراتبي الذي تتّخذه هذه الوظائف اللّغوية داخلها؛ حيث يهيمن بعضها على الآخر فيما يشبه تقدمها إلى الواجهة أو تراجعها إلى الخلف»[2].

واعتمادا على هذا الرأي، نجد في النص الشعري سيطرة الوظيفة الشعرية بينما تهيمن الوظيفة الإقناعية في النص الخطابي؛ «فالشاعر يلجأ إلى تكثيف وسائل التعبير الجمالي بصورة غير مألوفة قصد وضعنا قسرا في موضع الانتباه، أما الخطيب الذي يتغيّا الإقناع فإنّ وسائله التعبيرية مختلفة عن تلك التي

1)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 75

2)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 81.

يستخدمها الشعر»[1].

وهكذا، فإن إقرار الفلاسفة المسلمين بوجود تشابه بين الشعر والخطابة في كثير من وجوه الاستخدام اللّغوي المتّسمة بالاتساع والتجوّز، لما يحتاج إليه الخطيب في العادة من وسائل «التخييل» الضرورية في تحقيق الإقناع، لا يلغي وجوه الافتراق بينهما، فهم يرون أن الخطيب ينبغي له الإكثار من استعمال التشبيهات والاستعارات وكلّ ماهو خاص بالشعر، كما ينبغي أن يكون اختياره لها على أساس قربها إلى الأفهام وشهرتها حتى لا يقع في كلامه غموض أو غرابة ممّا يعدّ من سمات الشعر[2].

وعلى هذا النحو تحدّد وظيفة «التخييل» سمات الشعر المتمثلة في اللجوء إلى صور البديع بشكل لافت للنظر يثير التأمل الذهني والوجداني، كما تحدّد وظيفة «الإقناع» سمات الخطابة التي تعمد إلى الاستعمال الحقيقي والمنطقي للّغة، ولا تلجأ إلى استخدام الأسلوب الشعري إلاّ بضرب من الاقتصاد حفاظا على إيقاع التصديق[3].

وعلى الجملة، فإن الشعر يَتَوخّى بالإضافة إلى التخييل، التأثير في سلوك الجمهور المتلقي، ومن هنا حاجته إلى وسائل الإقناع، وكذلك الخطابة في حاجتها إلى وسائل التخييل لإحداث الالتذاذ المصاحب للإقناع، وبذلك يجوز لكل منهما وظيفة الآخر ولكن في موقع ثانوي.

---

1)- المرجع نفسه، ص: 81.

2)- مقال البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، ص: 81.

3)- المرجع نفسه، ص: 81.

I-6- وظيفة البلاغة القديمة:

بعد الخوض في قراءة الموروث البلاغي والنقدي السابق وبعد تحديد جملة من التصوّرات والخصائص، يمكن القول إن اللّغة تتبع التطوّر الاجتماعي الذي تصيبه الأمة، ذلك التطوّر الذي يحدث لعوامل كثيرة؛ أهمها التغيّر الاجتماعي وما يتبعه من تطوّر في القيم، ومنه يمكن الجزم بأن البلاغة جزء أساس من حياة المجتمع القديم والحديث، فهي أداة الترويج والأخذ والعطاء والسياسة وأمور الحكم[1].

وعلى سبيل المثال فإن الديمقراطية الحديثة لا تقلّ اعتماداً على استعمال البلاغة، فنظام المعارضة الحزبية لا يزال وثيق الصّلة بها، ولعل المتأمل لأدوات الديمقراطية يكتشف أن هناك سعيا دائما لاكتساب عقول الأفراد والجماعات والتأثير عليها. الأمر الذي جعل ظروف الحياة السياسية تستحيل بين الحين والآخر إلى شرّ لابدّ منه. وما نموّ البلاغة وتطوّرها إلاّ لأنّ مطالب أجزاء من المجتمع لا تعدو أن تتمثل في امتلاك السامع، دون أن يسأل المتكلم نفسه أكان محقاً أم كان مبطلاً[2].

وعلى هذا الأساس، فإن البواعث المهمة التي نشأت في كنفها البلاغة، هي ظروف مجتمع يتعرض للتغيير ويواجه التحدّي من الخارج، ويحار فيما يأخذ وفيما يترك، لذلك نلاحظ اختلافا في مادة التفكير بين قديم وجديد وطارئ ووافد عليه[3].

---

1)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 02.

2)- اللغة بين البلاغة والأسلوبية، مصطفى ناصف، النادي الأدبي بجدّة، السعودية، 1989، ص: 25.

3)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي بجدّة، السعودية، 1989، ص: 107.

ومن دون شكل أن البلاغة نشأت مرتبطة ارتباطا وثيقا بفكرة المقاصد، أي أنّ البلاغة مدارها تحقيق الأهداف والغايات كيفما كانت هذه الغايات، خطابية أو شعرية أو عملية أو ثقافية، أو دعاية[1]. وبمعنى آخر، فإن البلاغة العربيّة منذ نشأتها تحاول أن تقف موقفا خاصّا، يتضح هذا الموقف في اختيار الكلمات وترتيبها وفي سعيها إلى الاهتمام بالسامع اهتماماً يشبه العمد والاحتفاء[2].

ومن ثم فإنّ مقاصدنا يجب أن تفترض ويجب أن يقدر مدخلها في تلوين أفكارنا ومواقفنا من المخاطبين[3]، والواقع أننا نتكلم في العادة من أجل أن نبلغ هدفا، هذا الهدف يؤثر لا محالة في القول الذي نقوله، ولذا كثيرا ما نجد الكتاب يلفتون إلى أهدافهم بالعبارات الاحتراسية والاعتراضات التي يبثونها من أجل مواجهتها، والحقيقة أنّ أهدافنا توجّه خطّة عقولنا[4].

وعلى هذا الاعتبار، يمكننا القول إنّ البلاغة القديمة وجّهت توجيهات نفعية بعيدة عن مراسيها العلمية الأصيلة التي كان عليها أن تخلّص التوجه نحوها. فقد أراد بها البعض خدمة غرضه (مقصده) لا غرضها، وهي لذلك تهدف بالدرجة الأولى إلى كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثمّ إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً،

1)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 189.

2)- اللغة والتفسير والتواصل، مصطفى ناصف، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 193، رجب 1415هـ/يناير، كاثون ثان، 1995م، ص: 11.

3)- المرجع نفسه، ص: 16.

4)- المرجع نفسه، ص: 12- 13.

حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة/ الخطاب.

وبهذا المعنى، يصح القول: إن البلاغة بخصائصها توجه للقلب والعقل معاً إذ يجمع القول فيها بين المضمون العقلي للحجّة (الشاهد) وصورها البيانيـــة، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البديعية، لأن مـــدار ذلـــك هـــو الإغـــراء والاستغواء قصد الإمتاع والإقناع[1].

فطريق الإغواء هو أسلوب يتّجه نحو مخاطبة العاطفة (ترهيبا وترغيبا)، حيث يلعب على الجوانب النفسية والمشاعر الحسّاسة؛ إنه تغييب شبه كلي للعقلانية. أمّا طريق الحجاج فهو أسلوب يتجه نحو مخاطبة العقل وآلياتـــه العقلانيـــة، إعمـــالا للحواس والإدراك والحدس، وليس بحثا عن الحقيقة المطلقة الـــتي دافـــع عنـــها أفلاطون، أو الحقيقة العقلية التي تغنّى بها ديكارت، بل سعيا إلى الإقناع والتدليل على الممكن الذي أعلن أرسطو ميلاده في القرن الخامس قبل الميلاد[2].

وجدير بالإشارة أنّ هذا التمييز بين الإغواء والحجاج لا ينبغي اعتبـــاره انفصالا نهائيا بينهما، لأن الأمر يتعلق بضرورة استيعاب هذه الثنائية القائمـــة على استعمال الإغواء كطريقة للإقناع واستعماله كطريقة منبثقة من طبيعـــة الحجاج الهادفة إلى الإقناع دون أن تكون بديلا عنه[3].

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، أ. حبيب أعراب، عالم الفكـــر المجلـــد30، العدد 01، مجلة دورية محكمة تصدر عن لمجلس الوطني للثقافة والفنـــون والآداب، الكويت، ليوليو/سبتمبر 2001، ص: 110.

2)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 15.

3)- المرجع نفسه، ص: 15.

1-8- موقع المستمع في الدراسات البلاغية:

يعدّ «المستمع» مكونا أساسا في العمليات التخاطبية والتواصلية وموجها ضروريا لطبيعتها، وبموجب هذا اعتنت البلاغة القديمة بحال المخاطب اعتناءً بالغاً؛ حيث تحدّث العلماء عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حديثا مفصّلاً وقد أدّت هذه العناية الشديدة ببعض الباحثين إلى الافتراض أنّ البلاغة القديمة تفترض أنّ الإنسان لا يفكر لوجه التفكير، ولا يشعر لوجه الشعور، وإنّما يشعر ويفكر من أجل التأثير في مخاطب أو التغلب عليه[1].

هذا المعنى الّذي أوجزه مصطفى ناصف بقوله: «إن ثقافتنا التقليدية لم تكن تحسن التمييز بين الجميل من ناحية والصواب والخير من ناحية أخرى ولهذا كانت اللّغة في أيدي البلاغة القديمة تخدم مقاصد معينة مختلفة»[2].

ولكن هذا الرأي قد يوهم بأن البلاغة العربية الموروثة لا تهتم بروح الإنسان ومتعته المتسامية على النجاح وجني النفع، بناء على أن الشعر لا يقصد به مخاطبا؛ وإنما هو انبثاق نفسي في صورة لفظية لحالة شعورية تتجسّد في هذا التعبير الفني معبّرا عن صاحبه؛ ذلك أن الشعر في جوهره لا يتغيّا إفادة المخاطب بمضمون معيّن، وإنّما هو تنفيس تلقائي لمشاعر نفيية حسية تجد انطلاقها في هذا العالم الشعري الغامض[3].

ومهما يكن فإن نظام البلاغة القديمة هو نظام إدراك المنافع ودفع المضار، وتحقيق النجاح العملي، ولكن هذا لا يتأتى إلاّ بالصياغة اللّغوية وقدرتها على

1)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 03.

2)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 148.

3)- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزي وشركاه، ط2، د.ت، ص: 67.

الإبهام والتخييل إلى درجة الإقناع.

وهكذا يتجلى أن المعوّل عليه في البلاغة هو المهارة اللّغوية التي تمتلك القلوب وتستأثر بها، وإن كنّا نجد أنّ هناك من نظر إلى هذه المهارة نظرة ريب[1]. كالجاحظ الذي يذكر أنّ البلاغة هي تصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق[2].

ويبدو أن فكرة الجاحظ عن البلاغة مؤداها إيهام المتلقي والعمل على خداعه واستدراجه في غيبة من رويته إلى ما يخالف عقله وعلمه، والواقع أن سحر الألفاظ وجمالها يخدم مبادئ متعارضة فهو يؤيد الدعاية والاستمالة البعيدة كما يعني إغراء الكلام والقدرة غير العادية التي تصرف المتلقي إليها دون أن يعرف لذلك سببا واضحا أو حجة مقنعة[3].

وعلى هذا ينبغي التمييز بين نوعين من الاستعمال اللّغوي؛ أحدهما استعمال حقيقي صادق، والثاني خلاّب ومستحبّ، وربما يجتمع للباطل أوجه استحسان باهرة وحسن البيان يرى الظلماء كالنور[4]. أو كما قال الشاعر:

فِي زُخْرُفِ القَــوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِــهِ وَالحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُــوءُ تَدْبِيــرٍ

ويصبّ في هذا السياق أيضا ما جاء على لسان الرسول الكريم ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً»، فهذا القول جمع بين عدّة اعتبارات: بين محبّة القول، بالرغبة والاستماع إليه من ناحية، والتعوذ من البيان الساحر إذا مَلَك عقل

---

1)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 4.

2)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج113/1.

3)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 04.

4)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 61.

الإنسان ونفسه، ووجه الشبه بين السحر والشعر أو البيان هو التأثير(1).

وإلى جانب هذا، هناك إشارة من القرآن الكريم تدل على تلك المفارقة بين القول الذي يغري بالاستماع إليه، والحق البريء من الزينة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاة الدُنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِـهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾(2)، وفي سياق آخر يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾(3).

ومن هذين المقامين ندرك ما يسمّى بـ«الاستمالة» وقد نظر إليها القرآن الكريم نظرة تحذير إذا لم تكن استمالة غير مشروعة(4).

وغير خافٍ، أنّ الإنسان كان يوما يرى أن كلمة تحرّك الريح، أو تغير طبائع الإنسان وتنقله من طور إلى آخر، وتنزل القمر من السماء، وكيفما كان الأمر يبقى القول؛ إنّ الأفكار في المجال الإنساني يحكمها اعتبار انفعالي وموقف من الآخرين(5).

والخلاصة إن بلاغة التأثير والإقناع والتخييل لم تكن العبارة فيها تستعمل من أجل البيان أو الإشارة المحايدة، وإنما من أجل الاستهواء والكسب والإقناع.

---

1)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 67.

2)- سورة البقرة، الآية: 204.

3)- المنافقون، الآية: 13.

4)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 04.

5)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 21.

هكذا نظر البعض إلى نماذج المهارة اللّغوية مشيرا إلى فتنة الزينة وجمال اللّفظ مع فساد المعنى، ولعلّ هذا ما جعل العقاد يحاول توثيق العلاقة بين مفهومي الجمال والحرية[1]. غير أنه ينبغي أن نتذكر قول ابن المقفع: «إنّ رضا الناس غاية لا تدرك «فقد يكون هذا الكلام صالحا لكل زمان، ولكنه في النطاق التاريخي يعبّر عن اتساع نطاق الخصومة وكيفية معالجتها في العظة والشعر والخطابة والسياسة[2].

وعلى هذا الأساس كان الغرض العاطفي محوراً في التراث البلاغي، حيث كان كل من الشاعر والخطيب يهدفان إلى إقناع الجمهور؛ وذلك بأن يكون هدف الإقناع خارج النص (فعل شيء ما) ثم هناك مقصدية التهييج، التي تكمن في البحث عن الانفعالات العنيفة من حقد، وألم وخوف وغيره، هذه الانفعالات التي تسيطر على الجمهور وبالتالي تؤدي إلى تهييج وقتي وانفجار عاطفي[3].

وفي هذا الإطار قال ابن خلدون: «لقد عبّر العرب بالشعر عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم، فقد كانوا عن طريقه يؤثرون في غيرهم، ويحملونهم على الحماس، ويغرسون فيهم أخلاقهم، ويدلّونهم على حسن الشيّم»[4].

ويبدو واضحا من خلال هذا القول؛ إنّ تعليم المستمع في مجال الأخلاق كان من أغراض البلاغة القديمة، وطبيعي أن يتضمن ذلك عناصر تعليمية

---

1)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

2)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 24.

3)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 146.

4)- المقدمة لابن خلدون- طبعة دار الكتاب اللبناني، ص: 1098.

واحتجاجية، كما يتضمن دعوة إلى العقل وتسجيل عناصر النصح والتحذير، ذلك أن التأثير والاستمالة يتطلبان الإبانة والوضوح وأساليب الإقناع[1]، وهذا ما يُثبته قول الجاحظ: «إن مدار العلم على الشاهد والمثل»[2].

هكذا حصرت بعض التعاريف وظيفة البلاغة «في مؤدّى الكلمة اللّغوية في الإبانة والإفصاح والبيان، ويرتبط موضوعها بالحكمة طريقا إلى زكاة النّفس وتربيتها وتأديبها؛ ممّا يبرز الطابع النفعي المنتظر من كل خطاب بليغ، بعيدا عن كل تصوّر فني وتأثير شعري»[3].

وبالإجمال، فإنّ التراث البلاغي لا يهتم بحقائق الأشياء ولكنه يهتم بالتأثير والإقناع وضم الجمهور إلى جانب دون الآخر، فبالبلاغة يتمكن المعنى لديك، ويحبّب إليك وتحسّ بنبله، ويتوفّر له أنسك، وهذا دليل على أسرار التأثير التي تقع في النفس من جرّاء صور البيان، فهي تداعب وتناجي وتحاور مشاعر المستمع وأحاسيسه وآماله وطموحاته[4].

وحتّى يسهل التأثير في نفس المستمع، فقد افترضت البلاغة القديمة أنّ لدى القائل شيئاً محدوداً معروفا يريد أن ينقله إلى السامع، وعليه أن يختار طريقة الأداء، وأن يزيل العقبات التي قد تعترض سبيل عقد الصلة بينه وبين هذا السامع[5].

1)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

2)- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ص: 171.

3)- التفكير البلاغي عند العرب، ص: 115

4)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 05.

5)- اللّغة بين البلاغة والأسلوبية، ص: 190.

ولقد سبقت الإشارة إلى أنّ البلاغة القديمة اتصفت بوجوه من الخداع والرياء المقبول وغير المقبول، ولذلك قال الجاحظ: «اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نُحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن»(1).

والمقصود من وراء هذا، هو الافتتان بالقول إلى الحدّ الذي يفقد الإنسان معه صوابه، فيعجز عندئذ عن التمييز بين خيره وشرّه، جيّده ورديئه، وإذا كان الناس يتناقدون قسوة الحجّاج بن يوسف الثقفي وعنفه وحزمه في معالجة الأمور(2)، فقد قال عنه مالك بن دينار: «ربما سمعت الحجاج يخطب ويذكر ما صنع به أهل العراق، فيقع في نفسي أنّهم يظلمونه، وأنّه صادق لبيانه وحسن تخلّصه بالحجاج»(3).

ومغزى هذا التأثير هو أن المستمع يواجه نشاطا لا يصمد صموداً تامّاً أمام لغة منزهة بريئة. ومن هنا يتجلى أن المقاصد ذات شأن كبير في البلاغة الموروثة وذلك أنّها تسود غيرها من الوظائف اللّغوية أو تصرفها حيثما شاءت(4).

وهاهنا تظهر المهمة الأساسية التي تضطلع بها البلاغة والتي تتمثل في وصف الطرق الخاصة في استعمال اللّغة وتصنيف الأساليب، بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض الذي يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في السامع، أو اقتناعه بما

1)- البيان والتبيين، ج1/03.

2)- مقال التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، ص: 06.

3)- البيان والتبيين، ج1/103.

4)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 16.

نقول، أو اشتراكه فيما نحسّ به، وغايتها مدّ المستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد(1).

وإذا كانت البلاغة تتّخذ اللّغة سبيلا لتحقيق مراميها، فلا غرو أن نشير إلى أنّ اللّغة في بدايتها كانت تمثل وظيفة اجتماعية يمارسها الإنسان ليؤكّد بها ذاته، وليستشعر عن طريقها وجوده متفاعلا مع غيره ممّن يشاركونه هذه الوظيفة(2).

وعلى العموم، إن للّغة وظيفتين جوهريتين هما: التعبير والتوصيل، وبناء على فكرة المقاصد، فقد كانت اللّغة تستعمل لغايات مثل التشريع، أو خدمة أغراض علم الكلام، أو إذكاء العصبية، أو التجمّل الواجب لكل من يتصدّى لمنصب من مناصب الحكم أو الرئاسة(3).

وانطلاقا من هذا فقد انطبعت محاولة الجاحظ بطابع نفعي واضح يمكن أن يعدّ بدون مبالغة أكمل محاولة في التراث اللّغوي العربي لتأسيس ما يسمّى «بنفعية الخطاب» (La Pragmatique du discours) وممّا يلاحظ على الجاحظ أنّه تناول الخطاب اللّغوي من زاوية كونه عملية تواصل (Communication) يستوجب قيامها حدّا أدنى من الأطراف لا يقل عن ثلاثة: المتكلم، والسامع، والكلام، والرابط بين الأطراف هو الوظائف الثلاثة: الوظيفة الإفهامية، والوظيفة الخطابية، والوظيفة الشعرية، حيث إنّ الأولى تقوم من القيمة مقام الأصل. فالجاحظ لا يتصور خطابا لغويا مهما كان مستواه، لا

1)- التفكير البلاغي عند العرب، ص: 47.

2)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 06.

3)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 151.

يكون الفهم والإفهام قاعدته. وغاية هذه الوظائف جميعا هي السّامع[1].

وهكذا، فبالبلاغة ينتصر الشاعر أو الخطيب لقضيته ويسوغها في النفوس، ويتم تمكينها في الذات «إنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة»[2] ولعلّ هذا ما جعل المتكلمين والمعتزلة يعتبرون تعلّم البلاغة غاية في حدّ ذاته، فهي تمكنهم من أداةٍ ناجعة، يظهرون بها على خصومهم في المناظرات والمجادلات[3].

ووفقا لذلك، فإن البلاغة هي الطريقة والوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب السامع، مع ما يقتضيه ذلك من محسنات وإبانة وإظهار وإقناع، ويعود هذا التصور إلى كون البلاغة قد نشأت في أحضان الصراع العقائدي، فقد وصف القرآن الكريم بعض الناس بأن لهم ألسنة حادّة، ووصف طائفة أخرى بأن لهم القدرة على الجدل والخصومة، وبديهي أن تكون اللّغة في خضمّ هذه الظروف ظاهرة من مظاهر الصراع وليس السلام[4].

وتبعا لهذه الظروف تحولت اللّغة الجميلة إلى وسيلة من وسائل القهر والخوف، يمكن أن تؤدي في حياة المجتمع إلى الشرّ، على نحو ما يمكن أن تؤدي به إلى الخير.

وممّا تجدر الإشارة إليه بعد هذا، أن اللّغة في الموروث البلاغي كانت خادمة للمنطق والإقناع، متأثرة بالمنطق الأرسطي الذي أدّى بالبلاغة القديمة

1)- التفكير البلاغي عند العرب، ص: 299.

2)- العمدة، في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، القاهرة، مطبعة 1925، ص: 245.

3)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 136.

4)- مقال التصور اللّغوي في البلاغة القديمة، ص07.

إلى العجز عن إمكانات التعبير اللّغوي التي تتجاوز البنية السطحية، وتوغل في شبكات الأبنية التحيّة للتركيب، ويعود هذا العجز إلى اعتماد البلاغة على ربط اللّغة بالواقع وحصر وظيفتها في الإشارة إليه، وهذا ما أدّى إلى الاعتناء بالحالة العقلية للمخاطب أكثر من الاعتناء بحالته الوجدانية ونزوعها إلى الوضوح بما هو مفهوم عقلي صرف[1].

ومن آثار المنطق الأرسطي ولع البلاغيين العرب بالتقسيمات والتفريعات الجامعة المانعة بما فيها من حدود ورسوم، ممّا كان له الأثر في حقائق البلاغة وفقدان رونقها الحيوي[2].

ومن منظور مصطفى ناصف، فقد كانت البلاغة القديمة تقوم على تعقل الأشياء أكثر من قيامها على وجدانها وأنها كانت تهتم بالعقل[3]، الّذي ينجرّ عنه حتما تراجع الخيال وانحصار قدراته وتحديد فعاليته في التجربة الشعرية يظهر ذلك جليا في تمسّك النقاد بالوضوح وعدم الإبعاد[4].

ونخلص بعد هذا كلّه إلى أن المنهج البلاغي القديم كان منهجا خطابيا نظريا شديد الاهتمام بالقسمة والتفريع، يستكثر من الشواهد والأمثلة، ولم تكن البلاغة مميزة من الثقافة الفلسفية أو العقلية[5]، وهي لذلك -أي البلاغة- كانت تزعم أن الذّهن الإنساني يتعامل مع الخاص منذ البدء وينتقل

1)- البلاغة والأسلوبية، ص: 182.
2)- اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، ص: 150.
3)- المرجع نفسه، ص: 151.
4)- مقال التصور اللغوي في البلاغة القديمة، ص: 08.
5)- اللغة والتفسير والتواصل، ص: 145.

منه إلى العام[1]، لذا عيب عليها أن أفقها لم يتجاوز الوحدات الجزئية، أو أنها كانت تميّز بين الجزئي والكلي بمقتضى المنطق والإقناع[2] في حين أن البلاغة الحديثة ليس لها حاجة دائمة إلى حدّة هذا التمييز.

II البلاغة الجديدة والخطاب:

ولد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958م في عنوان أحد الكتب الشهيرة التي وضعها المفكر البولوني المولد البلجيكي المقام «بريلمان شارل» (Perelman Charles) تحت اسم «مقال في البرهان: البلاغة الجديدة» يعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاجّة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع كتقنية خاصّة ومتميّزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر[3].

هذا عن مدرسة «بروكسل» البلجيكية، أما عن الشكلانية الروسية، فإنه يلاحظ عموما على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللّغة التواصلية، وأنّها ليست منبتة الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية، هي اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان[4].

---

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، د.صلاح فضل، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992، ص: 133.

2)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 129.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 73.

4)- بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 73.

وإذا كانت مدرسة بروكسل والمدرسة الروسية تمثلان التيـــار الأول في البلاغة الجديدة، فهناك تيار ثان نشأ في الستينات، يرى الباحثون بأنه يعمـــل في الاتجاه المضاد للتيار الأوّل وقد ولدت بلاغة هذا التيار في حضن البنيويـــة النقدية ذات النزوع الشكلاني الواضح، تتمثل حدّهما في أنها تقوم في مقابـــل التقاليد المدرسية للبلاغة الفيلولوجية، ويمثلها جماعة ممّن أطلق عليهم البلاغيون الجدد، معظمهم في فرنـــسا مثـــل: «جيرارجنيـــت» و«جـــان كـــوهين» و«تودوروف» و«جماعة.م» أو «جماعة ليجا»، كما يطلق عليهـــا أحيانـــا يلتقون في كثير من مبادئهم وإنجازهم بمثل الدراسات المجازيـــة واللّغويـــة في الثقافة الانجليزية والأمريكية على اختلاف في المناهج والغايات[1].

وبالإضافة إلى التيارين السابقين هناك اتجاه ثالث مجاوز للتيـــار الثـــاني، ومعتمد على السيميولوجيا من ناحية، والتداولية من ناحية أخرى، وقد تحول إليه في نهاية السبعينات بعض أنصار التيار الثاني أمثال «تودوروف» الـــذي اعترف عام 1979 بأن السيميولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة، وقد اتضح بعد هذا أنّ مفهوم بلاغة الخطاب مرهون بالاعتداد بها كعلم لكل أنواع الخطاب، علم عالمي في موضوعه ومنهجه، مهما اختلفت الأسماء الـــتي تطلق عليه[2].

---

1)- المرجع نفسه، ص: 73- 74.

2)- Del Formalis ma a la neoretoria, Pozuelo, y vancos, Jose Maria, Madrid, 1988, P: 189

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 74.

II-1- بلاغة البرهان عند «بيريلمان»:

يرى «بيريلمان» أن نظرية المحاجّة لا يمكن أن تنمو إذا تصوّرنا أنّ الدليل البرهاني، إنّما هو مجرّد صيغة مبسّطة بديهية ولذلك فإن هدف «نظرية البرهان» (Théorie de l'argumentation) هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدّم لهم، أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كثافته(1).

يقول «بيريلمان» في تحديد موضوعه: «إذا كانت القرون الثلاثة الأخيرة قد شهدت أعمالا كبرى تدور حول المشكلات الفلسفية والإيديولوجية، واتّسم هذا القرن الأخير بازدهار الدعاية والإعلان، فإن المناطقة المحدثين قد أغفلوا هذا الجانب، ممّا يجعل نظريتنا تقترب مرّة أخرى مبدئيا من شواغل عصر النهضة، ولذا فإننا نقدمها باعتبارها بلاغة جديدة...»(2).

ويبدو جليا أن مقاربة «بيريلمان» البلاغية تهدف إلى إبراز حقيقة هامّة، وهي أن كلّ محاجّة تنمو بالنظر إلى مستمعين، في حين رأى الأقدمون أن الفكر الجدلي موازٍ للفكر التحليلي، لذا يرى بيريلمان أنّ بحوثه تتجاوز بزمن طويل بلاغة الأقدمين(3).

فبالنسبة للأقدمين «كان هدف البلاغة قبل كل شيء هو «فن الكلام المقنع للجمهور»، فهي تتصل إذن، باستخدام لغة التكلّم بالخطب التي تلقى

______

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 74.

2)- Treate de l'argumentation- la nouvelle rhétorique Perelman, Ch. Oubseches- Tytica Trad- Madrid- 1989- P:36.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 75.

في الميادين العامّة أمام حشود من الناس، وتستهدف الحصول على تأييدهم للأطروحات المقدمة ومع أنّ هذا هو نفسه هدف كل محاجّة برهانية، فليس هناك ما يحمل الباحث على أن يقصر دراسته على العرض الشفهي للبراهين، ولا أن يحصرها في الجماهير المحتشدة في الميادين»(1).

وبالإضافة إلى هذا -يرى بيريلمان» أنّ «رفض الشرط الأوّل المتمثل في عدم حصر الدراسة على العرض الشفهي للبراهين يعود إلى الشواغل التي تحرّك المناطقة لفهم عمليات الفكر وآلياته، بعيدا عن اهتمامات من يعنون بتكوين النواب والخطباء والممثلين، وإذا كان صحيحا أن تقنية الخطب الجماهيرية تختلف عن المحاجّة المكتوبة فإنّه نظرا لأهمية الدور الحديث للطباعة، فإنّ هذا الاتجاه يعنى في المقام الأوّل بالنصوص المكتوبة، ممّا يجعله يغفل دراسة طرق الأداء وتقنيات الحركة والإشارة، لأنّ هذه المشكلات تتّصل بوظيفة معاهد الفنون الدرامية ومدارس الإلقاء والتمثيل»(2).

وإذا كان لابدّ من الاحتفاظ بشيء من البلاغة التقليدية حسب رأي الباحث، فإنّه ينبغي الاحتفاظ بفكرة المستمعين التي تنبثق مباشرة من فهم طبيعة الخطاب، فكل قول يوجّه إلى مستمع، وكثيرا ما ننسى أنّ الشيء ذاته يحدث بالنّسبة لكل مكتوب، وبينما نتصوّر الخطاب بالنظر إلى مستمعين، فإنّ غياب القراء ماديا ربّما يجعل الكاتب يظنّ بأنّه وحده في هذا العالم، بالرّغم من أنّ نصّه في الواقع مشروط دائما بهؤلاء الذين يتوجّه إليهم واعيا أو بشكل غير واعٍ(3).

1)- Treate de l'argumentation, P: 36.

2)- Ibid, P: 36.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 76.

II-1-1- كيف يكون الخطيب فعّالا ومؤثّرا من منظور «بيريلمان»:

عرفنا أن البلاغة عند الأقدمين هي دراسة التقنيات التي يستخدمها عامّة الخطباء للوصول بأسرع ما يمكن إلى النتائج المستهدفة وتكوين الآراء دون الاجتهاد في التمحيص الحاد، غير أن لـ«بيريلمان» وجهة نظر أخرى تتمثل في أنّ «البحث في البرهان لا يمكن أن يقتصر على ما يناسب هذا الجمهور الجاهل، وإذا كان الخطيب مضطرّا -لكي يكون فعالا ومؤثرا- أن يتكيّف مع الجمهور، فإنّ ما يترتب على ذلك هو أنّ أفضل الخطب ليست بالضرورة هي التي تقنع المفكرين. ومن هنا تنبع أهمية تحليل الحجج البرهانية فلسفيا، وهي ذات طابع عقلي أساسا، لأنها تتوجه إلى قراء لا يخضعون للإيحاءات والضغوط والمصالح والأهواء»(1).

وبعد ذلك يعلمنا الباحث أنه عندما يتضح لنا أنّ هذه التقنيات البرهانية تبدو على كل المسويات -سواء كان الأمر يتعلق بنقاش عائلي، أو بحوار جدلي في وسط مهني متخصّص أو بمحاجّة إيديولوجية- وإذا كانت نوعية المستمعين الذين يؤيدون بعض البراهين في مجالات التخصّص الدقيق هي ضمان قيمتها، فإن أبنية البراهين المستخدمة في المناقشات اليومية هي التي تجعلنا ندرك سبب وكيفية فهمها»(2).

ومن منظور المناطقة والفلاسفة أن ما يميّز البلاغة الجديدة هو أنّها «منطقيّة» لا «تجريبيّة»، فنظرية البرهان التي تهدف إلى بحث سبل التأثير عبر الخطاب بشكل فعّال في الأشخاص، كان يمكن أن تدرس كفرع من علم

---

1)- Treate de l'argumentation- P: 39.

2)- Treate de l'argumentation- P: 39.

النفس، وعندئذ تتحول إلى موضوع يتّصل بعلم النفس التجريبي، حيث نضع موضع الاختبار مختلف البراهين أمام مجموعات متنوعة من المتلقين الذين يتم اختيارهم بطريقة منظّمة، كي نستطيع استخلاص بعض النتائج الهامّة من هذه التجارب(1).

غير أننا نلاحظ أن موقف الفيلسوف المنطقي يختلف عن موقف عالم النفس، فالبون شاسع جدّا لأنّه لا يمكن لمنهج المعمل أن يحدّد قيمة الحجج المستخدمة في العلوم الإنسانية؛ لذا يصرح بيريلمان بأنّه يستلهم عمل المناطقة، ويتّخذ مناهجهم التي أعطت ثماراً جيّدة منذ قرن تقريبا(2).

وهو يعلن عن تصريحه هذا بقوله: «إنّ المنطق قد استطاع أن يظفر بدفعة، قوية منذ منتصف القرن الماضي، عندما كفّ عن تكرار الأشكال القديمة، وأخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل. فالمنطق الشكلي الحديث قد تأسّس باعتباره دراسة لوسائل البرهان الرياضي، لكن مجاله ظلّ محدوداً، ممّا يدفع المناطقة إلى استكماله بنظرية برهانية، وهذا ما نهدف إلى وصفه عبر تحليل أدوات الاستدلال الملائمة للعلوم الإنسانية»(3).

ونحن لذلك، كثيرا ما يكفي أن نصف خطاباً بأنّه «بليغ» لكي نسلبه فعاليته. إنّ كثيرا من كتب البلاغة والخطابة التي تعدّد إجراءات الإقناع توصف بأنها مصطنعة أو شكلية أو لفظية، ولهذا نجدنا كما يقول «بيريلمان» حيال هذه المجموعة من الثنائيات المتعادلة.

واقع	مضمون	طبيعي
↓	↓	↓
لفظ	شكل	اصطناعي

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 76.

2)- المرجع نفسه، ص: 77.

3)- Treate de l'argumentation- P: 41.

هذا التدني في قيم الخطاب التأملي الذي يتم تلقيه باعتباره إجراءاً يجعلنا نفضل الخطاب العفوي غير المعد مهما كانت نواقصه[1].

وتساوقا مع هذا يرى «بيريلمان» أنّ الإجراء هو طريقة العمل من أجل الوصول إلى نتيجة بين إجراءين إحداهما طبيعي، والآخر مفتعل (مصطنع)، فكثيرا ما تكون الدموع الكاذبة لاستدرار العطف، والمجاملة (المدح) بغرض العطاء أو النفاق لما للفظ من سحر كما سبق الذكر.

II-1-2: موقف المتلقي إزاء الخطيب:

يتم تلقي الخطاب باعتباره إجراءاً عندما لا نشعر بأنّه منبثق من موضوعه، فالمستمع عندما يتجاوب مع الخطيب في احترام القيم الممجّدة والإعجاب بها، يندر أن يحكم عليه باعتباره مستخدم إجراء بليغ، لكن من لا تعنيهم هذه القيم لا يرونه بنفس الطريقة، وكثيراً ما يعلّق المستمعون «إنّها مجرّد كلمات» لإدانة الآخرين لما يبدو في خطابهم من فراغ وخلوّ من القيم التي يعتدّون بها، كما يمكن أيضا أن نشعر بهذا الانطباع، وبأنّنا حيال إجراءات بلاغية في حالة الاتفاق على القيم عندما يبدو أن الخطيب يتّخذ قواعد وتقنيات لا تتوافق بشكل طبيعي مع الموضوع لشدّة أناقتها واتّساقها[2].

II-1-3-كيف نتفادى وسم الخطاب بأنه مجرّد إجراء؟

يرى صلاح فضل، أنّه يمكننا الوصول إلى هذا الهدف بتأكيد أن الخطاب نتيجة الواقع، وأيضا بمجموعة من التقنيات التي تؤدّي إلى تفادي إثارة الانفصام بين الشكل والمضمون، مع ضمان عدم إمكانيته على أن الطريق

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 79.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 79.

الصائب لذلك، هو ملاءمة الأسلوب للموضوع، كما يتصوّره المستمع أو المتلقي بصفة عامّة، فالملاءمة كثيرا ما تؤدي إلى تفادي هذا الانفصام، وتقوم العناصر التي يمكن تأويلها بأنها علامات على العفوية بدور فعال في تلاؤم الأسلوب مع الواقع وزيادة درجة الاقتناع به(1).

وينتهي «بيريلمان» إلى نتيجة مفادها إنّه لا يوجد أدب بدون بلاغة على أن نفهم من هذا المصطلح فن التعبير، لكن أدوات هذا الفن تفقد فعاليتها بقدر ما يتم تلقيها باعتبارها مجرّد إجراءات بلاغية، فالقيمة البرهانية لا تتعرّض للإهدار ما دام منتج الخطاب يعطي إيحاءً قويّا عن نفسه وعن الأشياء، ويقدم لهما صورة لا تحمل المستمع على الفصل بين الإجراء والواقع، وقد تكون علامات الارتباك والصدق مفيدة لتفادي هذا الفصل، وكل مظاهر النقص التي تبدو ضارة للوهلة الأولى بالنسبة للتأثير البرهاني، يمكن أن تصبح مفيدة له، وفي مقدمتها دلائل الارتجال والعفوية الصلاّقة(2).

ويبدو أن مبادئ هذه المدرسة تسهم بشكل فعّال في الحدّ من غلواء التحليلات الشكلية، وتشير إلى ضرورة الاهتمام بالوظيفة على المدى البعيد في الخطاب برمّته.

ومن خلال برنامج «بيريلمان» البرهاني نقف عند فكرتين محورتين لعلاقتهما الوثيقة بالفروض التفسيرية لفهم أهم الأشكال الأدبية، ولما لهما من أهمية في توضيح معالم هذه البلاغة الجديدة، أولهما: فكرة القياس (Analogie) ودوره في الأبنية البرهانية.

---

1)- المرجع نفسه، ص: 79- 80.

2)- Treate de l'argumentation, P. 688.

فالقياس عند «بيريلمان» يعدّ نقلا للبنية والقيمة معاً على أساس التفاعل الذي ينجم عن الرّبط بين المقيس والمقيس عليه، وإن كان يؤثر بشكل أوضح عل المقيس، فإنّه يؤثر أيضا على المقيس عليه، هذا التأثير يتجلّى بطريقتين: من خلال البنية وعبر انتقال القيمة المترتبة عليها، وبهذا فإن الأقيسة تلعب دوراً هاماً في عملية الابتكار وعمليات البرهان معاً(1).

ومن وجهة النظر البرهانية، يجب أن يظل القياس في دخل حدود لا يتجاوزها إذا أريد به دعم فكرة معينة أو انطباع خاص وكثيرا ما تكون تنمية القياس تعزيزا لقيمته، غير أنّها قد تعرّض المتكلم لخطر الهجوم من قبل المتلقي بعبارة بسيطة لكنها قاتلة «القياس مع الفارق»(2).

والفكرة الثانية هي فكرة ربط الأبنية النحوية بحالات المجتمع وحركيته، وبهذا الصدد يشير «بيريلمان» إلى أنّ لغة بعض المجتمعات المتراتبة تعتمد على الحثّ والتحريض، وقواعدها ونحوها لهما طابع سحري مقدّس، بحيث يبدو أن الرموز اللّغوية لا تمثل الأشياء، بل تتحوّل هي ذاتها إلى أشياء؛ إذ تحتلّ مكانا محدّدا في سلّم القيم، وتسهم الشعائر من مستواها الخاص، بينما نجد اللّغة في المجتمعات الديمقراطية ملكاً لكل الناس، تتطوّر بحرّيّة تامة، ويتم تجسيدها وتثبيتها في المجتمعات التراتبية، بحيث تكتسب التعبيرات والصيغ طابعا شعائريا، إذ يتم تداولها في مناخ من الاتصال والخضوع الشامل، ومع ذلك يكفي أن لا تكون هذه الصيغ إجبارية وأن لا تسمح بنفس روح الاتصال لكي تتحوّل إلى مجرّد عبارة مصكوكة(3).

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 81.

2)- Treate de l'argumentation- P: 68.

3)- Ibid, P: 264.

وصفوة القول، إنّ هذه الملاحظات الفلسفية التي آثارهـــا «بيريلمـــان» حول اللّغة أعادت الاعتبار للبلاغة، وأسهمت بشكل فعّال في إثارة قضاياها الجوهرية، حيث استفادت البلاغة من معطيات المنطق الحديث وشارفت أفق علوم الاتصال الجديدة.

II-2- البلاغة البنيوية العامة:

تبلور هذا الاتجاه في عقد الستينات من هذا القرن في كتابات مجموعـــة من النقاد البنويّين من المدرسة الفرنسية والألمانية حتى أعلنتـــه جماعـــة «م» (Group-M-) في بحوثها المتتالية(1).

ويلاحظ الدارس أن هذا الاتجاه يتميّز بعدد من السمات، أبرزها قطيعته الفعلية مع التقاليد البلاغية القديمة، وغلبة الطابع غير التاريخي عليه، وارتباطه الوثيق بالتجربة الشكلية، واتخاذ مبادئها وسيلة لإضفاء الطـــابع العلمـــي، لا الإيديولوجي على بحوثه، بعد تغيير المنظور العام بانتصار البنيوية وما بعدها، خاصّة عندما قام علم اللّغة بدور العلم القائد، وتـــزعم في الثقافـــة العربيـــة المعاصرة الاتجاه المحدّد إلى التحليل التقني ممّا برزت معه «العلامـــة-Signe» باعتبارها نقطة البدء في استكشاف الرسالة طبقا للمفهوم المتداول في علـــوم الاتصال الحديثة(2).

وتبعا لذلك فقد اهتم أنصار هذا الاتجاه بتحليل علاقات الأجزاء الخمسة المعروفة في البلاغة وهي: الأغراض، والترتيب، والعبارة، والذاكرة، والفعـــل بنظائرها في النظام اللغوي الحديث، وذلك عن طريق التمييز بـــين عمليـــات

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 82.

2)- المرجع نفسه، ص: 82- 83.

التلفظ، والعناصر الثلاثة الباقية هي اللفظ ذاته، كما أن هناك من ربط مفهوم الغرض البلاغي بالمستوى الدلالي، ومفهوم الترتيب بالمستوى النحوي، وجعلوا العبارة قاصرة على المستويين الصوتي والصرفي(1).

ولقد عمدت البلاغة العامة إلى وصف العمليات البلاغية في جملتها على أسس جديدة، باعتبارها تحوّلات أو انحرافات، تتضمّن تصوّرات عديدة، وتميّز بين مجموعتين كبيرتين من هذه التحوّلات: إحداهما تتصل بجوهر المادّة والأخرى بعلاقاتها، فالأولى تعاني فيها الوحدات ذاتها من التحوّل، والثانية تظل الوحدات كما هي، ولا يمس التحوّل سوى علاقاتهما، وهم لذلك يصفونها بالطريقة التالية(2):

II-2-1- العمليات الجوهرية:

إنّ هذه العمليات لا يمكن أن تتم إلاّ بشكلين؛ أحدهما حذف الوحدات، والثاني إضافة وحدات جديدة، وبفضل آليات التركيب، نجد أنّ أي تحوّل ظاهر يعود في نهاية المطاف إلى عمليات حذف أو إضافة لبعض الوحدات، ومن الممكن تصوّر عملية حذف مزدوجة؛ يتم فيها إجراء الحذف والإضافة معاً.

ولعلّ هذه العمليات تذكّرنا بقول الجرجاني في باب الحذف »...فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال الذي ينبغي أن يحذف فيها، إلاّ وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى

---

1)- Del formalis ma a la neoretorica, P: 202.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 83.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 83.

إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به»[1].

والحذف كما يشير إلى ذلك الجرجاني لا يتم فقط كمقولة نحوية، بل يأتي لدواعي قولية معينة، ويتم كذلك الحذف في الموضع والحال الذي ينبغي فيه كي يؤدي المعاني التي تقتضيها الشروط التداولية (النفعية) حتى يحصل تأثير القول الذي فيه حذف إلى تحريك نفس السامع[2].

II-2-2- العمليات العلائقية:

يُعدّ هذا النوع من أبسط العمليات وذلك أنها تقتصر على تغيير النظام الأفقي للوحدات دون أن تؤدي إلى تعديل في طبيعتها، وهذا ينتج في الواقع نوعاً من «التناوب» أيّا كان النّمط الذي ينتهي إليه، فهو ينحصر في تغيير ترتيب النظام السياقي لسلسلة الكلام المنطوق أو المكتوب[3].

واعتمادا على هاتين المجموعتين ألفينا البلاغيين الجدد يقومون بتحليل مستويات التغيير على عدّة محاور؛ التغيير اللفظي، والتركيبي والدلالي، مركزين على العلاقات القائمة بينها وهم لذلك يرون أن التغيير اللفظي إنّما هو عملية تؤدّي إلى تعديل التدفق الصوتي أو الاسترسال للرسالة، أي تغيير شكل الرسالة من حيث إنها ذات مظهر صوتي أو خطي. وينجم هذا التعديل في التدفق الصوتي بتغيير حرف أو أكثر، الأمر الذي يجعلنا نفضل اندماجه في الوحدة الأعلى منه[4].

---

1)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص: 153.

2)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 96.

3)- Rétorica General, Groupe U, Trad- Madrid, 1983, P: 91.

- نقلا عن: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 84.

4)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 84.

وهكذا، فإن تسلسل الأصوات دون أن يكون لأيّ منها فرصة الدخول في علامة لغوية، يعتبر تغييرا لفظيا لكنه لا يمكن تعريفه إلاّ من الخارج، قياسا على تسلسل صوتي آخر، يدخل بوضوح في وحدات أعلى ذات كيان قائم من قبل، ولهذا يظل من المهم أن تظهر هذه الوحدات العليا، وهي الكلمات المكونة من حروف ومقاطع.

وفي هذا السياق نجد البلاغيين يهتمون بالجانب الصوتي المنطوق والمكتوب لهذه الكلمات، باعتباره داخلا في الصورة التي يكونها المتكلم عن لغته، كما يوضح المنظور الذي يتّخذونه أساسا بالنسبة للجسم اللغوي وذلك باختيارهم لثلاثة مستويات متراتبة(1).

- أولها ما يطلق عليه «ما تحت اللّغوي» وهو مستوى الخواص الخلافية في اللّغة، والتي لا تشكل بذاتها تعبيراً مثل: الجهر، والهمس، والأنفي، واللثوي، والحلقي في الصوتيات والأشكال الكتابية للحروف المستقيمة والممدودة، وطابعها في الرسم وخواصها في أوّل كلمة أو وسطها أو آخرها وقابليتها للاتصال أو الانفصال وبقية تشكلاتها الخطية المنوعة.

- وثانيها ما يطلق عليه «المستوى الأولي» وهو المتعلق بالحروف ومجموعاتها التي تشكل عناصر صرفية للعلامات أو تشكل مقاطع تقوم بدورها في تكوين الكلمات.

وثالثها هو «المستوى المركب» وهو المستوى الخاص بالتراكيب أو مجموعات الكلمات والمتتاليات المتماسكة التي تكون بدورها جملا وفقرات تامّة.

---

1)- المرجع نفسه، ص: 84- 85.

ولكن هذا الطابع الطولي خاصّة، في المستويين الثاني والثالث لا يمكن تطبيقه إلاّ على الشعر؛ لأنّه يحدّد الموقع بدقّة تبعا لعملية النظم التي تفرض مكانا للوحدات، ممّا يجعله يتضمّن شفرة إضافية للّغة توجب عليها أشكالاً لا تكميلية يتوقعها المرسل إليه كما يلاحظ في التغيرات اللّفظية والتركيبية(1).

وهكذا، فإنه يمكننا معرفة أين تتم عملية الإضافة أو الحذف، وذلك بالاستعانة على الشعر.

ثم إنه إذا كان مستوى التغيير اللّفظي يحيل إلى الصوتيات والصرف فإنه يحيل كذلك إلى النحو عندما يتم التغيير التركيبي في الجمل. وعليه، فمن الصعب استبعاد جميع القيم الدلالية من مجال النحو، فعندما يضع النحاة مثلا مراتب مثل المبني للمعلوم مقابل المبني للمجهول أو مرتبة المفرد مقابل المثنى والجمع، فإن عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار جانب المعنى في تحليلاتهم، وإن كانوا لا يحتفظون له بنفس درجة الأولوية السابقة(2).

وخلاصة القول، إن النّحو يظل يحتل مكانا يسبح بين الصرف والمنطق والدّلالة.

وهكذا عندما يكتشف «جاكبسون» (Jackobson) «أيقونيا» (Iconique) يتعلق بالرسم البياني في الظواهر النحوية فإنه يفضي بنا إلى منطق بنية الجملة، وكما يقول فإن ترتيب الكلمات في معظم اللّغات المعروفة يستجيب لعوامل عدّة طبقا لمنطق المعنى، كما يستجيب لتتابع الأفعال طبقا

1)− Retorica general- Groupe- U- P: 97

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 85.

2)− Ibid P: 97

- نقلا عن نفس المرجع، نفس الصفحة.

لترتيب الأحداث الزمني، ويجعل الأولوية للفاعل على المفعول لأنــه بطــل الرسالة إلى غير ذلك من المراتب المحدّدة[1].

وهكذا نلاحظ أن الخطاب العادي لا يُعنى كثيرا بخلق توازنات منتظمة، فهو لا يبدأ في تشكيل هذه التوازنات إلاّ عندما يتعــد عــن الاســتعمال المتوسط، ويشرع في «الترتيب الجيّد» للكلمات، وعندئذ يهدف إلى تحقيــق غرض فعّال وغريب عن الرسالة التي تتوخّى مجرّد التوصيل، لافتا الانتباه إليها في ذاتها، ومبرزا تميّزها التعبيري، ممّا يجعل إجراءات الاتساق الإيقاعي أشكالا بلاغية بلا ريب[2].

وإلى جانب التحولات اللفظية والتركيبية التي رصدتها البلاغة البنيويــة العامّة، هناك التغيّرات الدلالية التي وصفت بأنّها الشكل الــذي يــؤدّي إلى إحلال وحدة دلالية محل أخرى، هذه الوحدات التي تتجلى عادة في كلمات ومن خلال كلمات.

II-2-3- طبيعة الاستجابة الجمالية للنص ووظيفته البلاغية من وجهــة نظر البلاغة الجديدة:

يعود سبب تعقيد الظاهرة الأدبية حسب الباحثين إلى فكــرتي الأثــر والقيمة فيها، ومن هنا يمكننا التعرف على التأثير الجمــالي باعتبــاره حالــة عاطفية تثيرها الرسالة لدى المتلقي الخاص وتتنوع فاعليتــها طبقــا لــبعض العوامل التي يتصل بعضها بالمتلقي ذاته[3].

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 85- 86.

2)- المرجع نفسه، ص: 88.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 95.

ومن هذا المنظور، فإن القيمة التي تعزى إلى النّص ليست بالضرورة شيئاً كامنا فيه، بل يتمثل معظمها في استجابة القارئ أو السامع له؛ إذ أنّ هـــذا الأخير لا يكتفي بأن يتلقّى بيانا جماليا محسوسا، لكنه يتأثر ببعض المـــثيرات وهذا التأثر في طبيعته تقييم.

يستنتج ممّا سبق أنّ فكرة التأثير ذات طابع سيكولوجي في المقام الأوّل عندما نتحدّث عن الأعمال الأدبية وكذلك فكرة القيمة، لكنها تتزحزح إلى المرتبة الثانية من وجهة النظر المعرفية[1].

ولقد استطاع «ريفاتير» (Riffaterre- M) أن يميّز في إجراءاته التحليلية بوضوح بين المثيرات والأحكام الناجمة عنها، إذ أن الخصائص الجمالية الـــتي تعزى لبعض الوقائع لابدّ من عزلها عن ردود الفعل السيكولوجية التي تـــثير، لأنها بالنسبة للدارس اللّغوي مجرّد مؤشرات بغض النظر عن قيمتها الإيجابيـــة أو السلبية[2].

وانطلاقا من هذا الرأي، فإنّ الأثر الرئيس للمجاز عندهم إنّمـــا هـــو إطلاق عمليات التلقي الأدبية للنص الذي يدخل فيه بمعناهـــا الواســـع، إذ يكشف حينئذ عن الوظيفة الشعرية التي تحدّث عنها «جاكوســـون» والـــتي يفضل هؤلاء الباحثون أن يسمّوها بلاغية، هذه الوظيفة التي تركّـــز علـــى الرسالة، بما هي رسالة في دوالها ومدلولاتها، وتبرز بشكل مجســـّم الجانـــب الملموس للعاملات اللّغوية[3].

---

1)- المرجع نفسه، ص: 96.

2)- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، جدّة، 1988، ص: 248.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 96.

وبعد هذا، فقد لاحظ «تودوروف» أنّ الخاصية الوحيدة المشتركة بين جميع الأشكال البلاغية أهّا كلّها «مجوّفة Opaque» أي أنّها تنـــزع إلى أن تجعلنا نتلقى الخطاب، ذاته وليس دلالته فحسب.

هذه، إذاً بعض مبادئ الاتجاه البنيوي للبلاغة الجديدة في سياق عـــرض لبعض النظريات.

III- التحليل التداولي للخطاب:

إنّ المهمة الأولى حسب أنصار هذا الاتّجاه لتحديـــد علاقـــة البلاغـــة بالتداولية (Pragmatique) هي تعريف مجال كلّ منهما خاصّـــة أنّ هنـــاك بعض التعريفات الموسّعة المريحة التي تساعد على التحديد العلمي الدقيق وذلك مثل من يعرفون البلاغة بأنّها «فن القول بشكل عام» أو «فن الوصـــول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ» ممّا يجعلها مجرّد أداة نفعية ذرائعية[1].

يقول الباحث الألماني «لوسبرج» (Laus berg- H): «إنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصوّرية والبلاغية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدّد»[2].

أمّا «ليتش» (Leitch, V) فإنّه يرى بأنّ البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلاّن إشـــكالية علاقتـــهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما، ولذلك فإنّ البلاغة والتداولية البراجماتية تتّفقان في اعتمادهما على اللّغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقـــي،

---

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

2)- Del Formalis ma a la neoretorica, P: 196.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

على أنّ النّص اللّغوي في جملته إنّما هو «نصّ في موقـــف» ممّـــا يـــرتبط لا بالتعديلات التي يفرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعهما علـــى معنـــاه فحسب، وإنّما بالنظر إلى تلك التعديلات التي في سلوكهما أيضا(1).

ولكن هذا الاعتقاد قد يجعل من كل شيء بلاغة، انطلاقا من أنّ لكـــل شيء أهدافه النفعية، لذا فإن دارسي التداولية يرون أنّه من الأنسب تـــضييق مجال دلالة البلاغة؛ لأنهم يفهمون التداولية اللّغوية الآن كتنظيم غير مخـــالف لعلمي الدلالة والنحو وكلّ في المستوى المناسب؛ إذ أنه يقـــوم بجمعهمـــا في مستوى ثالث خاص بالسياق المباشر، ممّا يجعل التداولية قاسما مشتركاً بـــين أبنيّة الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية(2).

وعلى العموم، فإنّ التداولية هي المعرفة الشاملة بالآخر والمعرفة العميقة بمكوّنات عملية التخاطب، أو هي كما يحدّدها «فكوني» جزء مـــن العلـــم المعرفي، باعتباره المستوى الوسيط بين العالم الحقيقي أو الفيزيائي، وعالم اللّغة، وهما عالمان لا يرتبطان بشكل ميكانيكي، وإنّما تعمل اللّغة علـــى تجـــسيد سيرورة البناء المعرفي الواسع للعالم(3).

بيْد أن سيرورة البناء المعرفي لا يمكنها أن تعكس العبارات التي ينـــشئها الإنسان، ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر قضاياه صورة للتعبير اللّغوي، وإنّمـــا

---

1)- Ibid;196.

- نقلا عن نفس المرجع، ص: 98.

2)- Del Formalis ma a la neoretorica, P: 196.

- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 98.

3)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 14.

تنحو في اتّجاه تنظيم الميكانيزمات التي تشتغل وفقها الأنظمة الـــسيكولوجية والذهنية.

فاللّغة باعتبارها ميكانيزما سيكولوجيا تتقاسمه ذهنية متنوعة (تركيـــب، استنباط، استنتاج، مجاز، معجم،...).

تشتغل وفق عمليات تفكيكية واستنتاجية، وهي عمليات أصبحت تُعالج اليوم في إطار تداولي داخل النظرية الحجاجية بعدما كانت تـــدرس داخـــل النظام التواصلي الذي تحكمه قواعد النقل[1].

يستنتج من هذا، أن التداولية هي العلم الذي يختصّ بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصّة، كما يعنى بتحليل وظائف الأقوال اللّغوية وخصائـــصها خـــلال إجراءات التواصل بشكل عام، هذا العلم الذي أخذ ينمو في العقود الثلاثة الأخيرة والذي تغذيه -حسب طبيعة «عبر تخصيصية» جملة من العلوم أهمهـــا الفلـــسفة، وعلم اللّغة، والأنتروبولوجيا وعلم النفس، وكذا علم الاجتماع[2].

ومن أجل ذلك، يعنى التداوليون بالاقتراب من الخطـــاب كموضـــوع خارجي، أو كشيء يفترض وجود فاعل منتج له، وعلاقة حوارية مع مخاطب أو مرسل إليه.

ومن وجهة النظر الألسنية، فإن فكرة الفاعل ضرورية لمتابعة تحوّلات اللّغة في الخطاب وعلى العكس من ذلك ما نراه من وجهة النظر العمليـــة المتـــصلة بالفواعل المتكلمين التي ترى بأن اللغة ليست نظاما وحيد الاتجاه، ولا الفاعـــل

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 25.

المتكلم وحده شخصية أو فردا معروفا في ممارسته القولية على الرغم من أنّ كلا من اللّغة والمتكلم يمثلان الأساس الضروري لنظرية اللّغة والأسلوب.

ففي علم اللّغة نجد أنّ تصوّر الفاعل المنتج للخطاب تقترن به ملاحظة حُضوره في هذا الخطاب ذاته، فالفعل الفردي ليمتلك اللّغة يدخل المتكلم في كلامه وهذا اعتبار يعدّ جوهريا في تحليل الخطاب، إذ أنّ الخطاب هو المكان الذي يتكون فيه فاعله ومن خلال هذا الخطاب فإنّ الفاعل يبني عالمه كشيء ويبني ذاته أيضا.

وعلى هذا الاعتبار، لابدّ من الإشارة إلى أهمية هذا الازدواج في فكرة الفاعل الذي يعتبر منتجا للخطاب، وناتجا عنه في الآن ذاته؛ حيث يتمثل وجوده فيه، سواء كان واقعا تجريبيا مثل مؤلّف النص، أو مرسل الخطاب القائم تاريخيا، وشخصيا أو كان تكوينا نظريا في إطار علم اللّغة طبقا للأصول المعرفية المنبثق عنها(1).

وهكذا، يعرف الفاعل من خلال خطابه، وتعتمد نظرية الخطاب على تصوّراتها الخاصة المتجانسة، ويشمل التحليل النصي موقف الفاعل الداخلي تجاه قوله.

وانطلاقا ممّا ذكر، فإن النصّ يقدّم دائما باعتباره «موسوماً» (Marqué) أو «غير موسوم» بطريقة شخصية أي أنّه يتّصل بفاعل يتجلّى فيه، معبّرا عن رأيه أو وجهة نظره، مشيراً إلى تجربة أو حدث متعلّق به ذاته، وعندئذ يصبح النص موسوماً، أو متّصلا بوقائع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل، وعندئذ يكون غير موسوم؛ هذان الوضعان الأساسيان للخطاب بكلّ ما

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 98.

يدخلهما من تعديلات وتداخلات يتجلّيان نصيا من خلال العوامل التالية[1]:

- مؤشرات الشخص والمكان والزمان.

- كيفيات القول التي تحدّده مثل: موقف التأكّد واليقين، أو الشك والاحتمال.

- مؤشرات الموقف التي لا تتصل بفعل القول ذاته، وإنّما بوقف القائل ممّا يقوله، ويدخل في ذلك تلك العناصر اللّغوية الذاتية أو الخارجية التي تحدّد الموقفين.

وبناء على هذه العوامل قسّم التداوليون الخطاب إلى نوعين كبيرين: خطاب مباشر وآخر عير مباشر وهم لذلك «يعتبرون إدخال كلمات القائل في صيغة الخطاب بشكل مباشر يعدّ أقصى درجة من الموضوعية بقدر ما يلتزم عموماً بالنقل الحرفي دون تحريف حتى إنّ بعضهم يعتقد أنّه يمكن أن يصل الخطاب الذي يستخدم هذه الطريقة إلى نسبة 100% من الموضوعية»[2].

لكن هذه الموضوعية التي قال بها التداوليون قد لا تتطابق تماما مع الخطاب وتوضيحا لحالات الخطاب المباشر، يعرض الباحثون بعض الأمثلة والأشكال الخاصة به وهي كالآتي:

- يمكن استخدام كلمات شخص آخر لكي يعبّر الإنسان عن نفسه دون أن يغفل أنّ هذه الكلمات صدرت عن شخص آخر، ويمثل هذا الشكل

---

1)- Analisis del discourso, lozono, Jorge penaquarin, Grisixa, Abril- Gouzalo- Madrid- 1986- P:89.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 99.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 100.

حالة النصوص المقتطعة من المؤلفين الذين يحتجّ بأقوالهم، أو يعتمد على سلطتهم الأدبية[1].

وكنموذج لهذا الشكل أن ينطق من يريد الانتقام بعبارة العين بالعين، والسنّ بالسنّ والبادئ أظلم».

أو كعبارة التهديد والوعيد الخاصّة بالحجّاج: «إنّي أرى رؤوسا قد أينعت، وقد حان قطافها، وإني لصاحبها».

على أن استخدام هذه العبارات الجاهزة يجعلنا أمام قائلين: القائل المقدس وهو صاحب العبارة الأصلي، والقائل الفعلي الذي يقوم بالانتقام أو التهديد، أي الذي يتقمص شخصية القائل المقدّس، متمثلا بكلماته، متّكئا على سلطته ومعانيه.

وفي أحيان أخرى يُرادُ بالخطاب المباشر مجرّد نقل الخبر، ولكن حتى هذه الظاهرة لا يمكنها أن تتصف بالموضوعية التامّة، لأن القائل ناقل الخبر قد يضفي عليه نسخة من الغضب أو السخرية، أو نبرة تهكمية دون تغيير الكلمات ذاتها[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بعض الأشكال الخاصّة بالخطاب المباشر وعلى رأسها استخدام عبارات الغير، تحيل إلى تحليل النصوص الأدبية التي أضاءها «باختين» (Bajtin, M) ببحوثه، وتابعتها «كريستيفا» (Kristeva- J) بتعميقها لمفاهيم «التناحي» أو ما يسمّى «بالتناصية».

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- Analisis del discurso, P:149

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 101.

أمّا القسم الثاني من أشكال الخطاب الكبرى فهو الخطاب غير المباشر والملاحظ، أنّ هذا الخطاب يتولّد من امتصاص خطاب الآخر وأدائه بطريقة غير حرفية، ممّا يتطلب تحويل أزمنته الفعلية، وتعديل ضمائره وإشاراته كي تتّسق في اتجاهاتها وإحالاتها الأمر الذي يجعله مختلفا عن الخطاب المباشر(1).

وهكذا، فإن القائل في هذا القسم من أشكال الخطاب يقوم بإعادة صياغة الكلام الذي ينقله متوخيا الدقة والحذر في نقله حينا، أو إيجازه واقتطاع بعض أجزائه حينا أخرى؛ مستخدما كلماته هو ليؤدّي بها ما قاله المتكلم المنقول عنه، فتصبح تلك الإشارة والأزمنة التي قام القائل بتغييرها أقل موضوعية وحيادا من الخطاب المباشر(2).

يستنتج من هذا، أنّ القائل يدمج خطاب الآخر في خطابه هو، وينقله إلى موقفه القولي، فيصبح المتكلم الأوّل شخصا غائبا ويتحول المضارع الذي استخدمه المنقول عنه إلى ماضٍ في عبارة المتكلم الثاني، أي إن إعادة الصياغة غالبا ما تتضمن الإبقاء على بعض عناصر القول الأوّل من تعبيرات مميّزة وعلامات تعجّب أو استفهام أو ترجيعات وتكرار، وروابط استدلالية وسببيّة وإشارات أخرى لغوية من قبيل الخطاب المباشر الأمر الذي يؤدّي بالضرورة إلى تداخل الفواعل(3).

---

1)- Analisis del discurso, P: 151.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 102-103.

2)- Ibid, P: 151

- نقلا عن المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- Ibid, P: 151.

- نقلا عن المرجع نفسه والصفة نفسها

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، يشير التداوليون إلى ظاهرة أخرى، هي ظاهرة «التباعد» (Distance)، فعندما يعمد المتكلم إلى اتخاذ موقف لا يدل على التبني الكامل لما يقول، فإن هذا يؤدّي إلى خلق مفارقة واضحة، وقد يتم ذلك عن طريق العلامات التنصيص أو غيرها، ممّا يجعلنا نتساءل: هل هناك دائما استيلاء على كلمات الآخرين، أو إشارة إليها كموقف مقابل يدلّ على التباعد عن الكلمة الخاصّة[1].

وإذا كان تيار تحليل الخطاب التداولي قد أفاد في الآونة الأخيرة من مبادئ السيميولوجيا فذلك أنّ وصف التوظيف السيميولوجي لا يتأتى عن طريق تحليل المكونات المعجمية والجملية، وإنّما عن طريق البحث في الخطاب بأكمله، وإذا كان اللّغويون قد تعوّدوا أن ينتقلوا من الأصوات إلى الكلمات ثم إلى الجمل، فقد شرعوا في الآونة الأخيرة في التدرّج نحو الخطاب ثم منه إلى الطبيعة والعالم.

وعموماً، فإن الخطاب من هذا المنظور يظل هو الأولى بالعناية باعتباره نمطاً من الإنتاج الدال، يحتل موقعا محدّدا في التاريخ، ويشغل علما بذاته كان يسمّى «البلاغة» من قبل[2].

ولكن هذا الخطاب الذي ظل ردحاً من الزمن يسمّى «بلاغة» لم يصمد أمام ما اعتراه من تحولات معرفية أسهمت فيها البحوث السيميولوجية، والتحوّل إلى ما يسمّى اليوم «علم النص» (Science du texte) وعليه، فإننا

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 103.

2)- Analisis del discurso- P: 36.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 107.

عندما نشغل بهذا الخطاب النصي ونصف طريقة قيامه بوظائفه، فإننا نلاحظ أن النظم البنيوية التي تكوّنه تتصل من الوجهة التداولية بظروف إنتاجه، مثلما تتصل بمشكلات فهمه وقراءته(1).

وفي النهاية نخلص إلى أنّ النص ينتج معناه بالتكييف الدلالي للأجزاء في ضوء البنية الكلية الشاملة للنص لا بالانتقال من الجزء إلى الكل.

IV- عملية الفهم ضمن إطار الوظائف الاتصالية للخطاب النصّي:

إن عملية الفهم تشكل دائرة مغلقة تحكمها قوانين محدّدة خاصّة بها، بينما تتّسع عملية التفسير لقضايا أخرى تتحكم بها عوامل متباينة وفي حين لا يتطلب فهم الوحدة اللّغوية مهارات خاصّة، فإنّ عملية التفسير تحتاج إلى مهارة إضافية، وعلى الرغم من اقتناع علماء النفس بأنّ الاتصال التفاعلي لا يقتصر على الفهم فقط، بل يتعدّاه إلى مرحلة التفسير فإنهما قد أدمجا في بوتقة واحدة، يشار إلى تحقيقهما بنجاح عملية الاتصال التفاعلي(2).

ونظرا لأهمية عملية الفهم، فقد بدأ التحول في مجال علم النفس المعرفي خلال الفترة الأخيرة من تحليل فهم الجملة إلى فهم النص/ الخطاب. ويلتقي علم اللغة بعلم النّفس المعرفي في الجانب الذرعي (المقصدي)، لكون التحليل اللّغوي بحاجة إلى نواح غير ظاهرة في الخطاب، ومجال وجودها هو التحليل

1)- Analisis del discurso, P: 36.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 107.

2)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، د.فالج شبيب العجمي، عالم الفكر، المجلس الوطني الثقافي والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلّد 28، العدد01، يوليو/سبتمبر 1999، ص: 346-347.

النفسي لذلك بذلت -كما يقول محمد مفتاح- محاولات للخروج بها من ميدان علم النفس إلى مجال اللسانيات(1).

IV-1- تحليل عمليات التلقي وتأثيرها:

يتعيّن على الدارس البلاغي للخطاب أن يتبنّى منهج اللسانيات الوصفية، ببعده الديناميكي المفتوح، محاولا تحديد الأشكال اللّغوية المناسبة في النص دون إغفال للمحيط الذي وردت فيه، وذلك للكشف عن الاطّرادات الظاهرة ووصف حركتها.

فمحلّ الخطاب يعتبر الكلمات والعبارات والجمل التي تظهر في المدونة النصيّة لخطاب ما، دليلا على محاولة المنتج، توصيل رسالة إلى متلقي، مما يجعله يعنى على الخصوص ببحث كيفية وصول متلقّ ما إلى فهم الرسالة المقصودة من قبل المنتج في مناسبة معيّنة. وكيف أن متطلبات المتلقي المفترض تؤثر في تنظيم خطاب المنتج، وتتّخذ هذه المقاربة الوظيفة التواصلية مجالا أوليا للبحث، وبالتالي تسعى إلى وصف الشكل اللّغوي ليس كموضوع ساكن، وإنّما كوسيلة منظمة دينامية للتعبير عن الدلالة المقصودة(2).

وتساوقا مع هذا، يتمثل حكم القيمة في التعبير بشكل ظاهر أو ضمني عن مدى الرضى والارتياح الجمالي للوظيفة التي يقوم بها النص، أو الضيق بها والتبرّم منها. فهو يفترض سلّماً من القيم يصعب قياسه علميا حتى الآن؛ لأنه يرتبط بمتغيرات كثيرة ذات طابع نفسي واجتماعي وثقافي، يمكن أن يكون

---

1)- دينامية النص (تنظير وإنجاز)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990، ص: 38.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 127.

خاضعا لتأثير أنظمة قيميّة أخرى أخلاقية ودينية وسياسية ماثلة لدى المفرد المتلقي شعوريا أولا شعوريا والدراسة المتعمقة للاستجابة الماثلة في حكم القيمة تنتمي إلى مستوى آخر من البحث الذي يتطلب منهجية وتصوّرات مختلفة عن تلك التي تقوم بتنميتها البلاغة والأسلوبية[1].

ومن هذا الجانب يرى «بيريلمان» أن التمييز بين أحكام الواقع وأحكام القيمة لا يمكن أن يكون مطلقا؛ لأنه يعتمد على درجات مختلفة من الكثافة والتداخل في كثير من الأحيان اعتمادا على المفهوم الجديد للتأويل الذي يرى «هانز جورج غادامير» أنّه «يتمثل في التركيز على الوحدة الوثيقة بين اللّغة والفكر باعتبار هذه الوحدة هي الفرض الذي تنطلق منه الألسنية وتصبح بفعله علما،... فعن طريق تحليل الظاهرة التأويلية؛ نجد أنفسنا في مواجهة الوظيفة الكلية للفعل اللّغوي، وفي انكشافها تمتلك الظاهرة التأويلية مدلولا كليّا»[2].

على أنّ أكبر تحدّ واجهته التداوليات المعاصرة منذ مطلع الثمانينات، تمثل في وصف عملية التأويل (التفسير) التامّة للقول، نظرا للإشكالات التي بدأت تظهر وتطرح في مختلف مجالات العلوم التواصلية حيث تعدّدت المناهج والمقاربات النظرية في محاولة لسدّ الفراغات وضبط المفاهيم وتحديد الآليات، وذلك كله بغرض الوصول إلى نتائج تلائم التطورات التي عرفتها المجالات التواصلية الآلية (الحاسوب، والعقول الالكترونية، والانترنيت،...)[3].

---

1)- Discourse Analisis, G.yule brown, Campridge, 1983-P. 245.

- نقلا من بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 128.

2)- فن الخطابة وتأويل النص ونقد الايديولوجيا، هانز جورج غادامير، ترجمة: نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، 1988، ص: 34.

3)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 20.

وهكذا، توزعت جهود التداوليين بين مقاربتين لوصف عملية التأويل[1]:

– المقاربة الأولى: تتعلق بتأويل جزئي للجملة، وانطلاقا من المكونات الداخلية (تركيب، دلالة، فونولوجيا) وتندرج داخل التأويل اللساني.

– المقاربة الثانية: ويتعلق التأويل بإسناد مرجع معيّن لمختلف الحدود الداخلية للقول على أنّ المرجع يشير بصفة عامة إلى أشياء العالم، وتندرج هذه المقاربة داخل التأويل التداولي.

وممّا يلاحظ، أنّ هاتين المقاربتين غير متكافئتين على مستوى التحليل؛ لأن ما يمكن أن تحقّقاه، يمكن أن يكون متشابها في بعض أجزائه بالنظر إلى الدلالة أو المعنى أو المرجع، وهي عناصر لا تخرج عن الهدف والغاية من كل تأويل للقول؛ وهكذا فإن الإشكال الذي طرح مع التداوليات منذ ظهورها هو: كيف يمكن الفصل بين عمليتي الفهم التي تكون أسرع، وعملية التأويل التي تأتي في مرتبة ثانية لتحليل أو معالجة الفهم[2] الحاصل بين المتخاطبين.

ولمعالجة هذا الإشكال، لابدّ من الإحاطة الشاملة لمفهوم التأويل، ثم إبراز التقاطعات المختلفة لبعض النظريات التي تعرضت لعملية التأويل.

فمفهوم تأويل الأقوال هو عملية مرتبطة بواقع وحقيقة الأقوال؛ ذلك أن التأويل يفترض إجراءات تحليلية وصفية لعمليات كلاميّة، موجودة فعلا، أي متحققة بفضل اللّغة، التي هي نظام مزدوج: نظام من العلامات والرموز

---

1)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)– Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, Paris, 1972, P:133.

اللسانية، ونظام معرفي سيكولوجي وعلى هذا الاعتبـــار تطـــرح إمكانتـــان إجرائيتان لمفهوم التأويل[1].

– الإمكانية الأولى: يكون للتأويل فيها موضوع واحد هو وصف عملية الفهم التي تحقّق عن طريق اللّغة وحدها، وهذا الوصف ليس له أيـــة علاقـــة بالحقول المعرفية الأخرى (نفسية سياقية،...).

– الإمكانية الثانية: يكون التأويل فيها مندمجاً داخل منظومـــة عامـــة للعمليات المعرفية التي تحقق الفهم، وهي منظومة تـــسمح بالإحاطـــة بكـــل الحقول المعرفية التي تدور في فلك الفهم الشامل للقول.

وبناء على هاتين الإمكانيتين ظهرت النظرية التداولية المعرفية التي أرسى قواعدها كـــل مـــن «ســـبيربر» و«ولـــسون» في كتابهمـــا «الإصـــابية» (Pertinence)، هذا الكتاب الذي ينطلق في تحليله لعملية الفهم من مجموعة من المبادئ والمفاهيم أبرزها مبدأ الملاءمة[2].

IV–2– مبدأ الملاءمة (الإصابية):

هو مفهوم ذو خصوصية سيكولوجية، يعمل على اختيار مـــا يأخـــذ باهتمام المتخاطبين وما يثير فيهم من أقوال وحجج فكل الكائنات البـــشرية تمتلك حدس الإصابية وذلك أنها تستطيع التمييز بين المعلومات الملائمة وغير الملائمة، على الأقل بالنسبة لسياق معيّن. ومن هنا فإن الفهم يمثـــل درجـــة الملاءمة لا وجودها أو غيابها فقط؛ ما دامت المعلومات متعلقة بنظـــام مـــن

1)– Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, Paris, 1972, P:133-140.

2)– إشكالات التواصل والحجاج، ص: 22.

المعتقدات ومندمجة ضمن هذا النظام وبالتالي فهي لا تتركه عاريا، وإنّما تعمل على تعديلات معينة هي من مستويات مختلفة[1].

يستنتج من هذا أنّ دور المعلومة الجديدة من شأنه الرفع أو التقليل من درجة معتقدات النظام، أو التأكيد والنفي، ممّا يكشف عن بعض التضمينات السياقية التي بإمكانها أن تجرّ إلى معتقدات أخرى؛ تؤدّي في النهاية إلى تفاعل المعلومة الجديدة بالمعلومة القديمة.

وعلى حدّ تعبير «بيريلمان» فإن مبدأ الإصابية ليس قاعدة، ولكنه يشتغل كمحرّك لعمليات التأويل على مستوى النّظام المركزي للفكر[2]، وبذلك فهو يختلف عن المبدأ الكرايسي والمبادئ التي تفرعت عنه. باعتبار هذه المبادئ معايير وقواعد يجب على المخاطبين معرفتها بهدف تحقيق التواصل الفعال، وإن كان بالإمكان خرق هذه المبادئ، في حين أن الإصابية لا تتطلب من المتخاطبين معرفة مسبّقة، وبالتالي لا يمكن خرقها؛ لأنها موجودة مسبّقا عند كل الكائنات البشرية[3].

وهكذا، فإن الإصابية تعدّ مبدأً يكون أصلا في كل تواصل، وهذا المبدأ مؤسس على التصوّر الاستدلالي والمعرفي، ومدعم في الآن ذاته بأسباب سيكولوجية ومنطقية يصعب خرقها؛ ومن أجل ذلك تعتبر الإصابية قاعدة لفعل التواصلي بامتياز[4].

---

1)- Dictionnaire critique de la communication, P: 894.

2)- Théorie de l’argumentation, P :25.

3)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 34-35.

4)- المرجع نفسه، ص: 35.

وعلى الجملة، فإن النظريات التداولية التي ارتبطت بدراسات كل من «أوستين وسورل» و«كرايس وديكرو» كان من نتائجها أنها قلّصت من دور التحليل المنطقي اللساني، واتسع مجالها إلى التحليل الخارجي للأقوال، عل اعتبار أن هذه الأقوال مرتبطة بالوقائع الخارجية القابلة للتحقق، وأن الكلام مرتبط بالاستعمال العادي أي اللغة اليومية(1).

ولعل العمل الجبّار الّذي قام به كرايس في تقعيد التخاطب، كان له الدّور الأساس في تحديد المبادئ الرّئيسة في عمليات المحادثة، وأشكال التواصل بين المتخاطبين؛ هذه المبادئ التي ساهمت في إبراز القيمة التداولية للكلام، وأعطت مفهوما جديدا للمعنى الضمني، والمعنى المعجمي، ولمعنى التأويل والفهم،وعالجت إشكالات المقامات والسياقات التي كانت تقف في وجه التحليل المنطقي التقليدي، معالجة أخذت بتوظيف نتائج العلوم المعرفية(2).

فالمعول عليه في العلوم المعرفية؛ هو أنّها تمثّل تآلفا لمجموعة من العلوم المستقلة؛ بعضها وصفي تجريبي (علم النفس المعرفي، اللسانيات، والأنطروبولوجيا المعرفية) وبعضها نظري تطبيقي (الذّكاء الاصطناعي) هذه العلوم التي تلتقي في استهدافها للعمليات الآلية التي يشتغل بها الذهن البشري؛ من تفسير، وتجميع، وإنتاج للمعارف وتأويلها.

IV-3- أنواع الفهم:

ويوجد نوعان من الفهم: فهم إجابي، يفترض كمّا كبيرا من الذكاء، ويعدّ مهمّة غاية في التعقيد وهو ما يمكن ما يسمى «البصيرة» (Insight)،

1)- المرجع نفسه، ص: 22.

2)- المرجع نفسه، ص: 23.

وينشأ هذا الفهم عندما يصبح هذا الفهم مشكلة[1].

أما النوع الثاني فهو الفهم السلبي: وهو ما تحققه أغلب الناس بسهولة فطرية، ممن ليس لديهم فهم إيجابي، أو ليس لديهم منه إلاّ القليل، فهذا الفهم شكل من «المعفة الضمنية» أو «القدرة المعرفية» السلوكية، وهي إمكان الكفاءة لفعل الكلام، وهي باختصار «عادة» (Habit)، ومعلوم أن كل ما يمارسه الإنسان بقوة العادة يعمله بشكل طبيعي؛ أي دون إعمال فكر، فالعادة -إذن- توجد مقابل التفكير الواعي، ومن أجل ذلك يختلف «الحدس العام» (Commonsense)، من زمن لآخر، ومن مكان إلى غيره، فهو ليس «طبيعيا» بل «ثقافي» لأن العادة ثقافة ونوع من الطبيعة الثانية، لذا يعطي الحدث العام قالبا تكوينيا جاهز الصنع، الشيء الّذي يمن بواسطته تفسير الوقائع والأحداث اليومية[2].

ولعلّ هذا ما ذهب عليه «ابن رشد» في كتابه «فصل المقال» حينما قال: «ولما كان مقصود الشرع تعليم الحق والعمل بالحق، كان التعليم صنفين؛ تصوّرا وتصديقا، كما بيّن ذلك أهل العلم بالكلام. وكانت طرق التصديق الموجودة للناس ثلاثة؛ البرهانية، والجدلية، والخطابية. وطرق التصور اثنين؛ إما الشيء نفسه، وإما مثاله. وكان الناس كلّهم ليس في طباعهم أن يقبلوا البراهين، ولا الأقاويل الجدلية فضلا عن البرهانية، مع ما في تعليم

1)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 375.

2)- Understanding a phenomenological, pragmatic, Analysis in philosophy, no19, G.B.Madison, Connecticut, green wood press, 1982, P:155-158.

- نقلا عن مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 357.

الأقاويل البرهانية من العير، والحاجة في ذلك إلى طول الزمان لمن هو أهل لتعلمها، وكان الشرع إنما مقصوده تعليم الجميع، وجب أن يطون الشرع يشتمل على جميع أنحاء طرق التصديق وأنحاء طرق التصوّر»(1).

يفهم من هذا القول أن طرق التصديق منها ما هو عام، ومنها ما هو خاص، ومن أجل ذلك يواصل ابن رشد قائلا: «ولمّا كانت طرق التصديق منها ماهي عامّة لأكثر الناس -أعني وقوع التصديق من قبلها- وهي الخطابية؛ والخطابية أعم من الجدلية، ومنها ماهي خاصّة لأقل النّاس وهي البرهانية. وكان الشرع إنّما مقصوده الأوّل العناية بالأكثر من غير إغفال تنبيه الخواص، كانت الطرق المصرح بها في الشريعة هي الطرق المشتركة للأكثر في وقوع التصوّر والتصديق»(2).

وانطلاقا من هذا الرأي فأصناف الناس في الشريعة من منظور ابن رشد على ثلاثة: «صنف ليس هو من أهل التأويل أصلا؛ وهم الخطابيون الّذين هم من جمهور الغالب، وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يعرى من هذا النوع من التصديق، وصنف هومن أهل التأويل الجدلي وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة، وصنف هو من أهل التأويل اليقيني، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصنعة، أعني صناعة الحكمة»(3).

1)- تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 50.

2)- تلخيص الخطابة ابن رشد، ص: 50-51.

3)- فصل المقال، ابن رشد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص: 52.

ويبدو أنّ هذه الآراء التي جاء بها ابن رشد كانت جديرة بأن تـثير ردّ فعل عنيف من قبل الأصوليين المسلمين الّذين رأوا فيها انصياعا كليّا للفلسفة اليونانية، ومن هؤلاء الأصوليين «ابن القيم» الذي يردّ على ابن رشد قـائلا: «ويضنّ جهال المنطقيين وفروخ اليونان، أن الشريعة خطاب للجمهور، ولا احتجاج فيها، وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطرق الخطابة، والحجج للخواص، وهم أهل البرهان، يعنون أنفسهم، ومن سلك طريقهم. وكل هذا من جهلهم بالقرآن؛ فإنّ القرآن مملوء بالحجج والأدلّية والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد»[1].

ومهما يكن من أمر، فإن اختلاف دارسي الخطاب القرآني يعود إلى اهتمام البلاغيين بمقتضى الحال، وهو مدار الحديث في صحيفة بشر بن المعتمر الّذي رأى فيها بديلا لدروس إبراهيم بن جبلة السكوني في تعليم الخطابة؛ هذه الصحيفة التي يقدّم من خلالها جملة من الآراء تتعلّق بأحوال المستمعين وكذا بقضية الفهم ومطلعها كالآتي:

«والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ من مقام من المقال، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي تلطف على الدهماء، ولا تجفو على الأكفاء فأنت البليغ التام[2].

1)- الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980، ص: 244.

2)- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: د.درويش جويذي، ج91/1.

واعتمادا على ما جاء في هذه الصحيفة «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها، وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات. فإن كان الخطيب متكلّما تجنّب ألفاظ المتكلّمين، كما أنّه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به، ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ أميل وإليه أحنّ وبها أشغف(1).

ومن منظور الجاحظ يمكن لهذه القاعدة أن تخرق في الخطاب عامة على وجه التظرّف والتملّح، كقول الشاعر أبي نوّاس(2):

وذَات خَدٍّ مُوَرَّد ... قُوهِيَّة المُتَجَرَّد
تَأْمَلُ العَيْنُ مِنْهَا ... مَحَاسِنًا لَيْسَ تَنْفُذ
فَبَعْضُهَا قَدْ تَنَهَى ... وبَعْضُهَا يَتَوَلَّد
والحُسْنُ فِي كُلِّ عضوٍ ... مِنْهَا مَعَادٌ مُرَدَّدُ

يستنتج من هذا، أن اللّفظ العامّية والوحشي، يوافق البدوية الأعرابيّ: وذلك «أنّ الوحشي من الكلام يفهم الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوق، وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس لأنفسهم في بقات»(3)؛ ومن أجل ملاءمة الكلام لشخصية الخطيب نصحوا بأن يحتفظ للنّادرة بلغتها،

1)- البيان والتبيين، الجاحظ، ص: 92.

2)- المرجع نفسه، ص: 94-95.

3)- البيان والتبيين، ص: 95.

وألاّ يدخل عليها أيّ تحسين في الإعراب أو اللّفظ، أو التلفّظ[1].وعلى ضوء مراعاة مقتضى الحال، وأنّ لكل مقام مقالا، صنّفت البلاغة العربية فيما بعد؛ المخاطبين الّذي يلقى إليهم الخبر على أصناف ثلاثة:

- مخاطب خال الذهن.
- مخاطب شاكّ متردّد.
- مخاطب جاحد منكر.

على أن درجة تأكيد الخطاب تتصاعد حسب هذا التركيب، كما أنه يمكن لكل صنف من هذه الأصناف الثلاثة أن يوضع مكان الآخر، وذلك حسب الملابسات التي يحدّدها أو يفرضها المقام[2].

وانطلاقا مما جادت به بلاغة القدامى والمحدثين تمّ تحديد أنواع الفهم، ولكن هل الفهم مطلقا؟

قبل التطرق إلى الإجابة عن هذا السؤال هناك إشكالية المعرفة، وهو سؤال مركزي في العلم المعرفي طرحه بشكل دقيق العالم اللساني النحوي «نوامتشومسكي» سنة 1975 الّذي يقول: «كيف يحدث أن الكائنات البشرية بارتباطها المحدود والشخصي بالعالم تكون رغم ذلك قادرة على معرفة ما تعرفه»[3]. فالإنسان يملك معرفة ما، عن حقائق ذ موجودة فعلا، وعن بعد (Distal) سواء كان طبيعية أو اجتماعية أو رياضية أو لسانية، ويدخل مباشرة معها في تفاعل معظم الحواس، ثم بواسطة الحدس، وأخيرا عن طريق التفكير

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط2، ص: 34.

2)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 35.

3)- Dictionnaire critique de la communication, P :874.

المعقلن، يستحضر تلك الحقائق الموجودة ليوظّفها متى دعت الضرورة إلى ذلك(1).

ولكن المعرفة التي يمتلكها الإنسان وينشدها ويشيّدها لا تتأتى هكـــذا؛ وإنما عن طريق البنيات الإدراكية وعمليات الإدراك، هذه البنيات التي تطرح إشكالات حول طبيعة النظام الّذي يشتغل به الذهن البشري، وكيف يستقبل ويرسل، وكيف يستنتج، فالذهن البشري نظام كلي يشتغل وفـــق آليـــات فيزيائية من أجل نمذجة البنيات والعمليات الإدراكية، وتشغيل البرنامج المعرفي وبالتالي تحقيق المعارف(2).

وفي الحقيقة، فإن الفهم يتجه ضرورة إلى سوء فهـــم نفـــسه، لأنّ أولى مراحل التحرّر لدى المرء من أوهام الفهم أن يعي ذلك؛ فهو لكي يحصل على بعض الفهم، يجب عليه أولا أن يراعي أن كلّ المعرفة اعتقاد فحسب، وأنه لا يوجد فهم يكون حقا مطلقا، ويكون معفة للحقيقة، وذلك أن الاعتقـــاد لا يمكنه أن يسائل نفسه، ولكننا نستطيع أن نحرّر أنفسنا من الغوغائية(*) مـــتى جان اتجاهنا المتأصّل لأخذ الأشياء عن معتقداتنا عن الحقيقة نفسها(3).

IV-4- عوامل تكوين فهم الخطاب:

IV-4-1- التوقعات:

السائد أن المتلقي يبدأ الفهم بعد تلقيه للرســـالة موضـــوع الخطـــاب، ويستغرق ذلك إجراءات متتالية توصله في النهاية إلى الفهم الكلي للخطاب؛ ولأن السامع يتلقّى الرّسالة دون إرادة منه، فإن توقّعاته لمـــضامين الخطـــاب

---

1)- إشكالية التواصل والحجاج، ص: 24.

2)- Dictionnaire Critique, P : 873-876.

* الغوغائية: تكون باعتبار المرء اعتقاده قاطعا وغير قابل للنّقد.

3)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ث358.

تكون أقلّ درجة من توقّعات متلقي النصوص المكتوبة، وذلك أن القارئ لا يتعامل مع النص بشكل محايد وبريء، ولا يذهب إلى عالم النص وهو صفحة بيضاء، بل تكون لديه معلومات مختزنة في ذاكرته، تسمح له بالتعميم اعتمادا على مبدأ النظير، كما أن النص بخصائصه الظاهرة هو الذي يتيح للمتلقي القيام بعمليات المقايسة والتصنيف والتماس الخصائص النوعية(1).

ويقدّم كل من «ريزبك» (Riesbeck) و«شانك» (Schank) «في دراستهما «التحليل التصوري» ما يدعّم مبدأ الدور المهم الّذي تسهم به التوقعات في فهم القارئ، حيث ينسبان جزءا كبيرا من الفهم إلى توقعات تصوّرية وليست معجمية، ويجزمان بأن تصنيف المفردات يتم على أسس من التوقعات في ذهن المتلقي أثناء تعامله مع النص اللغوي الّذي يكون بحاجة إلى نقله إلى تصورات بغرض تحليله وفهمه وتفسيره(2).

وتنشأ توقعات المخاطب كذلك من مدى معرفته بشخص الخطيب وخلفيته، وكذا من الإمكانات الذهنية والتصوّرية التي يمكن أن تظهر في أقواله، كما أن للمسافة الزمانية والمكانية والاجتماعية دورها في طبع توقّعات المتلقي إلى جانب بعض العوامل النصيّة والسياقية، مثل معرفة لموضوع أو سياق الخطاب، أو سياق أحداثه أو الوضع الجسمي للأطراف المشاركة من حيث هيئة الجسم وطبيعة الحركة، وتقاسيم الوجه ممّا يجعل التوقعات أكثر دقة وتحديدا(3).

---

1)- دينامية النص، محمد مفتاح، ص: 42.

2)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 260.

3)- تحليل الخطاب، ج.ب.براون، ج.بول- ترجمة محمّد لطفي الزّليطي، منير التريكي، الرياض، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1997، ص: 48.

IV-4-2- الأحكام المسبقة:

وللأحكام المسبقة أيضا دورها في بناء توقعات المتلقي، حيث تجعله مستعدّا لتقبل التوقع على أنه حكم فعلي «فقد ننظر إلى التحيّز العنصري مثلا، على أنه مظهر لنمط محدّد من التفكير، بشأن أفراد نصادفهم لعهد قريب، فتمنحهم صفات وأفعالا مخصوصة على أساس نسق ذهني مسبق، رسمناه لأفراد من جس معيّن... فبدلا من اعتبارها قيوداً حتمية تحدّد كيفية فهمنا للخطاب، يمكن اعتبار الأنساق الذهنية بمثابة الخلفية المعرفية المنظمة التي تقودنا إلى أن نتوقع أو نتنبّأ بمظاهر معينة في تأويلنا للخطاب»(1).

IV-4-3- الصّفات الشخصية للمتلقي:

ليست المعرفة أو التوقعات فقط هي التي تلعب دوراً مهما في الفهم والتمثيل الإدراكي، بل أيضا الصفات الشخصية للمتلقي، تلك الصفات التي تترسّخ من خلال التجارب الحياتية والخبرات الذهنية التي يَبْنيها في الوعي أو اللاوعي، والتي على ضوئها تكون محصلة الفهم الأولية مناسبة لما اخترته من قبل أو غير مناسبة، إذ تقوم عمليات فهمه على ربط كل حدث أو حالة بالتجارب السابقة المشابهة، ويتم ذلك من خلال أقيسة ذاتية الصنع يخزن فيها ما لا يتلاءم معها بوصفه نمطا جديدا(2).

واعتماداً على الصفات الشخصية للمتلقي، يجب أن يفرّق بين الفهم الشخصي للخطاب والفهم الشخصي للموقف الّذي يتحدّث عنه الخطاب،

1)- تحليل الخطاب، ج.ب.براون، ج.بول، ص: 296.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ففي الحالة الأولى يكون موضوع الاعتقاد أو الرأي أو الصفة الوظيفية المباشرة للسياق التواصلي الحالي، وهو بذلك يتضمن تقويما للخطاب أو بعض صفاته، أو تقويما للفعل الكلامي المكوّن بواسطة التلفظ بالخطاب، أو تقويما للمتكلم، أمّا في الحالة الثانية فتشكل الآراء أو الاعتقادات أو الصفات بمراعاة ما تعود إليه من مرجعية موضعية أو شمولية في الخطاب مثل: الحدث السياسي أو الحالة الاجتماعية أو المشاركين في مثل تلك الأحداث والمواقف(1).

وعلى أساس هذه العوامل التي تساهم بشكل فعّال في الفهم، يوجد لدى «روبرماثيير» (Roepert Matthier) استعارة يشبه فيها تلقي الرسالة اللّغوية بعمل محقّق الجريمة الذي يتحرّى الجزئيات ويحاول أن يطابق بين ما يوجد في مشهد الجريمة وما لديه من ملفات المتهمين في تطابق البصمات أو اتفاق يدعو إلى تأكيد التهمة، فرجل التحرّي يضيف من عنده معلومات إلى الوقائع الفيزيائية بالاعتماد على تجربته الذاتية، وفي إدراك الكلام يُعيد بإيجابية بناء حلقات القطع الصوتية، التي يفترض أن تكون قيلت من قبل المتكلم، بأخذ المفاتيح المعطاة في الموجات الصوتية التي سمعها. واعتمادا على معرفته بطريقة عمل لغته وأيضا على كيفية عمل الأصوات اللّغوية يُضيف معلومات يُكمل بها ما يفوته سماعه أو ما لم يفهمه من الرسالة(2).

---

1)- Opinions and attitudes in discourse comprehension, Language and comprehension, T.A.Van dijk, ed J.F, Ny, w Kintch, Amsterdam, North Holland publishing company, 1982, P: 37.
- نقلا عن: مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 364.

2)- Understanding and producing speech E. Matthier and T.Roeper, Great Britain Fontana Paperbacks, 1983, P: 70.
- نقلا عن: مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 364-365.

وتلقي الرسالة يقوم على ما نسمع أو نرى، لكن ماذا نسمع؟ وماذا نرى؟

حتى وقت قريب كان ينظر بين علماء اللّغة والنفس، أن المستمع أشبه ما يكون بالطابع على الآلة الكاتبة «فهو يتلقى الرموز الصوتية المفردة التي تتألّف منها الكلمات بشكل سلبي تماماً، ثم يطابقها على الأصوات اللّغوية المخزونة في ذهنه، فيتعرّف عليها الواحدة تلو الأخرى»(1).

غير أن هذه النظرية لم تعمّر طويلا، إذ جاءت تجارب عديدة أثبتت بطلانها، فمن الناحية الصوتية البحتة ليس بإمكان الفرد أن يسجّل الأصوات منفردة وبالتتابع لأسباب كثيرة، إنّ مجرّد النظر إلى سرعة النطق بتلك الأصوات يجعل هذا الأمر مستحيلا(2).

وهكذا، فإن كل ما يستطيع المستمع أن يستخلصه من الأصوات التي يسمعها، لا يعدو أن يكون دليلا على محتوى الرسالة الصوتية، أو إطاراً عامّا يمكنه من إعادة بناء الجمل؛ ومن أجل ذلك يشبه العلماء دور المستمع بدور المحقق الجنائي الذي تتجمّع لديه أدلة مختلفة غير مترابطة في ظاهرها فيحاول هو أن يربطها معاً ليهتدي بها إلى دليل متكامل يرشده على هوية المجرم(3)، كما أشار إلى ذلك (روبيرماثيير).

ولعلّ من نافل القول، أن نشير إلى أنّ عمليتي الكلام والاستماع محاطة كثيرا بظروف قد تكون غير مواتية فتشوه الأصوات أو تعرقل مسيرتها في

---

1)- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987 ص: 200.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص: 201.

الهواء، أو تعترض تلك المسيرة أو تقحم فيها أصواتا أخرى بحيث لا تصل الرسالة الصوتية واضحة وضوحا كاملا إلى أذن السامع.

ومعلوم أن كل مستمع يحاول أن يتخلص الرسالة الصوتية التي يحتمل أن تكون قد صدرت عن المتكلم، مستفيدا من معرفته المسبقة للّغة، وهذه المعرفة المتبعة أمر هام للغاية لسببين: أولهما؛ أنّها تزود المستمع بتوقعات معينة من حيث الأصوات التي يسمعها، كما أنّ هذه التوقعات تنسحب أيضا على النظام اللّغوي مثلما تنسحب على نظام المعاني في اللّغة[1].

ولا أحد ينكر أنّ كل إنسان سوي مزود في ذهنه بمعرفته لأنظمة لغته؛ من نظام صوتي، ونظام نحوي، ونظام للمعاني؛ ولذا فهو يتوقع أن يسمع كلاماً يتماشى وهذه الأنظمة جميعا؛ ولكن ليس من الضروري أن يسمع كل ما يتوقع سماعه؛ ومن أجل ذلك فهو يفتش فيما يسمعه عن استشارات تشير إلى الإطار العام لتركيب الجملة، وبالتالي فإنه يتوقع ماهو آت من الكلام.

فمثلا: نحن كمتحدّثين باللّغة العربية، عندما نسمع شخصا يبدأ كلامه قائلا: الرّجل... فإننا نتوقع أن نسمع الخبر؛ لأنّ معرفتنا بلغتنا العربية زوّدتنا بالتراكيب الأساسية للجملة البسيطة، وسواء كنا مثقّفين أو أميّين فإنّ في ذهننا أن الجملة البسيطة في اللّغة العربية تتألف من عنصرين هما، المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل، كما أننا نعرف أيضا أن المبتدأ يسبق الخبر -غالبا- لذلك فحالما نسمع كلمة «الرجل» تعتبرها مبتدأ وننتظر الخبر الذي يمكن أن يكون كلمة واحدة مثل: «مريض» فتصبح الجملة: الرجل مريض أو شبه جملة: الرجل في البيت. أو فعلا وفاعلا: الرحل يدخن.

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وهكذا فإنّ معرفتنا بقواعد لغتنا تجعلنا نتوقع ما هو آت من الكلام بناء على معرفتنا أيضا بمعاني المفردات، ولقد دلّت الأبحاث التي اتّبعت هذا المنهج في الدراسة، وخاصة تلك التي قام بها «توم بيفر» (T.G.Bever) في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية، أن المستمع يسمع ما يتوقع أن يسمعه، ويساعده على هذا التوقع معرفته بأصوات لغته ومعرفته بقواعد لغته، ومعرفته كذلك بمعاني مفردات لغته، وكذلك معرفته بالعالم بوجه عام وبحضارة أمته بوجه خاص(1).

وخلاصة ما سبق ذكره أن المستوى الذي تقوم عليه عمليات التفريق بين الأصوات في اللغة البشرية يتغير كثيرا، ولذلك أشار «فيليب لبيرمان» إلى أن القطع الصوتية تأتي إلينا بمستوى 20 إلى 30 قطعة في الثانية، بينما أسرع مستوى يمكن أن يصل إليه مستوى التعرّف الذي يعتمد عليه بين الأصوات المفردة في التتابع بين سبع وتسع قطع في الثانية. والنظام النظري (Visuel System) يقع تقريبا في المستوى نفسه. ومن أجل ذلك يضيف السامع أو القارئ كما سبق الذكر معلومات من مخزونة الذهني يكمل بما ما يفوته أو ما لم بفهمه، ومعنى ذلك أن ما ينتج عند وضع قطع الجمل في سياق منطوق أو مكتوب ليس هو الجملة التي تنقل أفكاراً محدّدة، وإنّما مشروع جملة، ومجموع هذه المشاريع أو ناتجها يشكل مشروع نص وليس نصًّا، وذلك كله بعد استقرار الأفكار لدى المتواصل معه(2).

---

1)− The Cognitive basis for linguistic structure in « hayes, cognition and The development of language, T.G.Bever, (N.Y.Willey 19970), P184.

− نقلا عن أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص: 203.

2)− مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 365.

وبعد هذا العرض البسيط لعوامل تكوين الفهم، نخلص إلى أنّه إذا كان تكوين النص، يعتمد على المتلقي الذي يوجه الفعل الكلامي، ويعتمد عليه نجاح الحدث الاتصالي، لا على المنتج، فإن المعاني الأقرب إلى ذهن المتلقي هي التي تكون مفضلة لديه، والشيء نفسه يتحقق عندما يكون للعبارة أو النص أكثر من دلالة، فإنه يختار أكثرها سهولة أو بداهة، ففي الدعاية مثلا؛ عندما يكون للعبارة أكثر من معنى، ويكون أحد تلك المعاني جنسيّا، فإنّ المعنى الجنسي هو الذي يقفز أولا إلى ذهن المتلقي(1).

ولكن ما الفرق بين معنى النص وبين مفهومه؟

في كثير من التصورات الذرعية يفرّق بين معنى النص ومفهومه وذلك أنّ أغلب عناصر النص لها دلالات ذرعية في طرح الحجج مثلا أو صيّغ الخطاب أو طرق الكلام، وحتى في الكلمات المفردة أو الجمل الكاملة التي يكون مضمونها قابلاً للدراسة، ومع ذلك لا يمكن فهمها بشكل صحيح إذا لم يرجع إلى المواقف التي قيلت فيها أو إلى الخلفية المعرفية المرتبطة بها، ومعلوم أنّ كل عنصر في النص له من ناحية المبدأ إمكان ذرعي، والواقع أننا نتكلم من أجل أن نبلغ هدفاً(2).

ومن خلال خلفية المواقف المختلفة، يمكن أن يفرق هنا بين معنى النص بوصفه ذلك المضمون الذي يحتويه النص تركيبا ودلالة (أي ما يوجد في

1)- On the cognitive aspects of the Joke, R.Giora, jornal of pragmatics, 16 (1991), P: 477.

- نقلا عن مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 365.

2)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، ص: 366.

النص فعلاً) وبين مفهوم النص بوصفه الشيء الذي ينقله النص في موقف معيّن وبدلا من مفهوم النص يمكن أيضا أن تسمى «الوظيفة الاتصالية».

يستنتج ممّا سبق أن النص يدخل في سياق حدث ينتج في إطاره تبعا للهدف المقصود، ويفهم في إطاره أيضا، أمّا ما يؤخذ من مفهوم النص أو الوظيفة الاتصالية، فإنه لا يعتمد على النص فقط، بل يجب على المتلقي أن يتلقاه من تراكم معقد من معنى النص وعوامل إنتاج الموقف وفهمه (يتبع إلى ذلك شركاء الاتصال والغرض من الكلام وكذا حدود العلاقات بين هؤلاء الأطراف)[1].

وبعد هذا، يبدو التباين بين معنى النص ومفهومه في النصوص المنطوقة أكثر جلاء، الأمر الّذي يوضح إعطاء وزن أكبر في حالات الحوار للعوامل غير اللّغوية المساعدة في تحديد المفهوم، خصوصا نبرة الصوت، وتعابير الوجه، والحركات الجسمية المصاحبة أكثر من حالات النصوص الأحادية (الكاتب والنص).

وفي النهاية، نخلص إلى أنّ أهمّ الدراسات المشتركة بين العلوم المختلفة المتصلة بالخطاب هي تلك الدراسات النفسية اللغوية والاجتماعية اللّغوية، والتي كان لها الفضل في وضع الأسس التجريبية والنظرية لتحليل الخطاب، وتحديد طبيعة العلميات المعرفية والمستخدمة في إنتاج الخطاب وفهمه، وتخزينه وإعادة إنتاجه، بالإضافة إلى القواعد العرفية العامة، وكذا البلاغة الجديدة والشعرية والتداولية التي تعدّ أحدث فرع من العلوم اللغوية التي تعنى بتحليل عمليات الكلام والكتابة، ووصف وظائف الأقوال وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام.

---

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

I- الإقناع:

I-1- مفهومه:

يخضع الإقناع للقوانين التي تحكم عملية الإدراك والمعرفة والدافعية لذى يرى محمد عبد الرحمن عيسوي أنّ الفرد يميل إلى الاقتناع بالإيحاءات التي يعتقد أنها تصدر من الأشخاص ذوو المكانة الاجتماعية البراقة[1]. كما يعرّف الإقناع بأنّه آلية رئيسة لتكوين الآراء والمواقف[2].

والإقناع عند «والاس» «تأثير المصدر في المستقبلين بطريقة مناسبة ومساعدة على تحقيق الأهداف المرغوب فيها، عن طريق عملية معينة، أين تكون الرسائل محدّدة لهذا التأثير»[3].

ويعرّف «توماس شايدل» (Thomas Scheidel) الإقناع بأنه «محاولة واعية للتأثير في السلوك»[4].

---

1)- دراسات في علم النفس الاجتماعية، عبد الرحمن محمد عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1974، ص: 19.

2)- رسائل الإعلام وأثرها على تقييم نشأة الطفل الاجتماعي المجتمع العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1992، ص:170.

3)- Theory of Amman communication, Stephen W, little john, Charles E-Merrill company, 1978, P: 163.

4)- Persuasive speaking, Scott, scheidel, Thomas M foresman and Co. Glenview, 1967, P: 01

- نقلا عن مقال: النص الحجاجي العربي، محمد العبد، مجلة فصول للنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، العدد 60، 2002، ص: 45.

بينما يرى «أوستن فريلي» (Austin Freely) أن الإقناع والحجاج جزءان من عملية واحدة، ولا اختلاف إلاّ في التوكيد (Emphasis)؛ يولي الحجاج الدعاوي المنطقية أهمية خاصّة، ولكنه يجعل من اختصاصه أيضا الدعاوي الأخلاقية والعاطفية، أمّا الإقناع فإنه ينعكس على التوكيد الّذي يبطل ضدّه[1].

وإلى جانب ما سبق من تعاريف يرى كل من «هوارد مارتين» (Howard martin) و«كنيث أندرسون» (Kenneth Andersen) أن كل اتّصال هدفه الإقناع، وذلك أنه يبحث عن تحصيل ردّ فعل على أفكار القائم بالاتصال[2].

ويبدو أن هذين الباحثين بتعريفهما هذا؛ يقصدان الإقناع بمعناه العام؛ وليس الإقناع الحجاجي الذي يصدر عن وسائل منطقية ولغوية خاصّة. ويمكن توضيح هذه المسألة بالنظر إلى نصوص الخطابة العربية، إذ يكون النص الخطابي نصّا إقناعيا، ولكنه ليس نصّا حجاجيا بالضرورة، لأنه لا يعبّر بالضرورة عن قضية خلافية.

وبناء على ذلك، فإن كلّ نص حجاجي نصّ إقناعيّ، ولكن ليس كل نصّ إقناعيّ نصّا حجاجيّا، يرتبط الإقناع إذن بالحجاج ارتباط النّص بوظيفته

---

1)- Argumentation and debate, Freely Austin, J. wids worth publishing Co.Belmont, 2nd, 1966, P: 07.
- نقلا عن مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 45.

2)- Speech communication, Martin Howard, H. Andersen, Knneth E-Allyn and bacon, Inc boston, 1968, P:06.
- نقلا عن المرجع السابق، ص: 45.

الجوهرية الملازمة في محيط أنواع نصية أخرى كالوصفيات والسرديات[1].

وعلى أيّة حال، فهناك من يفرق بين نوعين من الإقناع، فهناك الإقناع العقلاني، وهو أحد أشكال النفوذ المرغوبة والكريمة، ويتم بواسطة الاتصال العقلاني هذا الشكل الذي يقوم به (أ) ليمكن (ب) من الوصول إلى فهم الموقف الحقيقي من خلال توفير المعلومات الصحيحة، حيث يتفق الإقناع عن طريق الاتصال العقلاني مع مبدأ الأخلاقي الذي أوصى به «كانط» (Kant) ومؤدّاه أنّ المَرْءَ لابدّ أن يتعامل مع أقرانه من البشر بوصفهم غايات في ذواهم، وليس مطلقا كوسائل للوصول إلى غاية[2].

وهناك الإقناع الخداعي، ويتمثل هذا النوع من الإقناع في صور غير أمينة للاتصال، لا تتضمن نقل المعلومات الصحيحة فحسب، وفي هذه الحالة يمكن أن يكون الإقناع مقصوداً؛ حيث يقوم (أ) بإقناع (ب) ليقوم بعمل ما، أو سلوك ما، ليس عن طريق تزويده بالفهم الصحيح للبدائل المبنية على المعلومات الصحيحة، ولن عن طريق تشويه فهم (ب) لهذه البدائل[3].

ولكن هذا النوع من الإقناع لا يتوافق مع المبادئ الأخلاقية «لكانط»، لأنّ الناس ضمن هذا الإقناع لا يعاملون كغايات وإنّما كوسائل وأدوات أو مواضيع لتحقيق الأغراض.

ومهما يكن فإن الإقناع الخداعي يجد أرضيته الخصبة في كلّ من الدعاية المغرضة، وفي وسائل الإعلام الإشهارية وكذا في المجال السياسي.

---

1)– مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 45.

2)– الإقناع الاجتماعي (خلفيته النظرية وآلياته العملية)، د.عامر مصباح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005، ص: 17.

3)– المرجع نفسه، ص: 17.

ومجمل القول فإن الإقناع: عملية إيصال الأفكار والاتجاهات والقيم والمعلومات إمّا إيحاءً أو تصريحا، عبر مراحل معينة، وفي ظلّ حضور شروط موضوعية وذاتية مساعدة، وكل هذا عن طريق الاتصال.

ومن جهة أخرى لابد من الإشارة إلى أن مفهوم الإقناع يرتبط بمفهوم آخر وهو **التأثير**، ويكاد هذان المفهومان يكونان متلازمين؛ فظاهر لفظ التأثير يشير إلى عملية تبدأ من المصدر لتصل إلى المستقبل مع توفر إرادة لذلك في حين أنّ مصطلح التأثّر يشير إلى الحالة التي يؤول إليها المتلقي بعد التعرض لعملية الإقناع واستقبال الخطاب وتفاعله معه(1).

فالتأثير إرادة وفعل لتغيير السلوك والاعتقادات أو الآراء، أو على الأقل تعديلها أو ترسيخ قيم وأفكار جديدة، أمّا التأثر فهو النتيجة المحققة من وراء عملية التأثير وبهذا ندرك أن **التأثير** مرادف **للإقناع**، و**التأثّر** مرادف **للاقتناع**(2).

وهناك مصطلح آخر قريب من مصطلح الإقناع وهو «**الإيحاء**» الذي يشير إلى التأثير غير المباشر في سلوك الآخرين عن طريق النفوذ النفسي، والقدرات السيكولوجية للمقنع(3).

ويعرّف «الإيحاء» على أنّه: «التأثير النفسي القائم على التقبل الصّاغر لما يوحى به من عمل أو سلوك أو أفكار أو رغبات»(4).

1)– الإقناع الاجتماعي، ص: 17.

2)– المرجع نفسه، ص: 18.

3)– الإقناع الاجتماعي، ص: 19.

4)– وسائل الإعلام وأثرها في المجتمع العربي، ليلى داود، ديوان المطبوعات الجزائرية، 2000، ص: 170.

ونستنتج من هذا أن الإقناع يمثل عملية تتقاسمها عدّة مراحل حتى يصل إلى النتيجة المرجوة، وهي التأثير في سلوك الفرد، إمّا بتغيير هذا السلوك أو بتعديله، أو بناء رأي أو اتجاه جديدين؛ ولذلك نجد «ولبرشرام» و«دونالد روبرت» يعرّفان الإقناع على أنّه «عملية اتصال تتضمن بعض المعلومات التي تؤدّي بالمستقبل إلى إعادة تقييم (Réapprisse) إدراكه لمحيطه أو إعادة النظر في حاجاته وطرق التقائها أو علاقاته الاجتماعية أو معتقداتها أو اتجاهاته»[1].

ومن خلال هذا التعريف يظهر أنّ عملية الإقناع هي تلك العملية التي ترمي إلى توضيح وبيان كيفية إشباع حاجات الفرد، وتحقيق رغباته؛ وإن كان الإقناع في حقيقته أوسع وأدق من مجرّد إشباع وتحقيق الرّغبات.

وحتى تؤدّي عملية الإقناع غرضها وتحقق هدفها يرى «هربرت ليونبرجر» أنّه يجب على هذه العملية أن تتم عبر المراحل التالية[2]:

1- مرحلة إدراك الشيء (Awareness): وهي المرحلة التي يختبر فيها المخاطب أو الجماعة لأوّل مرّة الفكرة أو الصور أو الاتجاه الجديد، وفي هذه المرحلة يمكن للمخاطب أن يقبل ما قيل له أو يرفض ذلك.

2- مرحلة المصلحة والاهتمام (Interest): وفيها يحاول المتلقي أن يلتمس مدى وجود مصلحته فيما يطلب منه.

---

1)- الأسس العلمية لنظريات الإعلام، جيهان أحمد رشتي، دار الفكر العربي، 1975، ص: 171.

2)- المدخل السوسيولوجي للإعلام، أحمد الخشاب وأحمد النكلاوي، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1974، ص: 25.

3- مرحلة التقييم أو الوزن (Evaluation): وفيها يبذل المتلقي الجهد للمقارنة بين ما يمكن أن يقدم له هذا الأمر أو الاتجاه الجديد، وبين ما تقدمه له ظروفه الحالية.

4- مرحلة المحاولة (Trial): واختبار أو تجريب أو جسّ نبض الشيء من قبل المخاطب أو المرسل إليهم من ناحية ومحاولة التعرّف على كيفية الاستفادة من ناحية أخرى.

5- مرحلة التبنّي (Adoption): وفيها يصل المرسل إليه أو الجمهور إلى حالة الاقتناع الكامل شفهيا وعمليا بالفكرة الجديدة أي بالمطلوب، حيث تصبح هذه الفكرة جزءا من الكيان الثقافي والاجتماعي للفرد والجماعة.

ومن زاوية أخرى أشار كل من «راين» (Ryan) و«جروس» (Gross) إلى أن تبني الفكرة الجديدة يتم عبر مراحل أربع هي(1):

1- الشعور بالفكرة.

2- الإقتناع بفائدتها.

3- محاول قبولها.

4- التبني الكامل لها.

I-2- بعض نظريات الإقناع والتأثير:

إنّ استمالة الرأي العام نحو فكرة معينة هي هدف كل قائم بالإقناع والتأثير، ومن أجل ذلك ينصب اهتمام القائمين به على أفضل السبل للوصول

1)- دراسات في العلاقات العامّة والإعلام، علي عجوة، القاهرة، عالم الكتب، 1985، ص: 26.

إلى تغيير اتجاهات هذا الرأي أو بناء اتجاهات جديدة أو تعديلها أو لفت انتباه الجمهور نحو قضية معينة.

وعلى هذا الأساس تراكمت البحوث العلمية في هذا المجال بشكل لم يصبح الإقناع والتأثير مجرّد طريقة فنية يمارسها الخطيب البليغ وإنما أصبحت علماً يدرّس.

ولقد بدأ الاهتمام بالإقناع والتأثير بعد ظاهرة الدعاية النازية والدعاية الشيوعية، والدعاية الصهيونية بعد الحرب العالمية الأولى، حين أصبحت الدعاية والتأثير على الرأي العام وعلى معنويات الشعوب والمقاتلين لا تقل أهمية على سلاح الدبابات والطائرات[1].

فالإقناع يستهدف معنويات الخصم بالتشكيك والتضليل والإحباط من القدرات، ممّا يساعد على شنّ الحروب، كما يستهدف معنويات الجنود فتشحذ هممهم وتعبأ وتنفخ فيهم روح القتال والدفاع والأمل في النصر وما إلى ذلك.

كما يمتدّ الإقناع إلى مجال آخر وهو مجال تسويق البضائع فأصحاب المصانع والشركات يولون التسويق الإقناعي لبضائعهم في وسائل الإعلام أهمية كبرى، على اعتبار أن اقتناع المستهلك للبضاعة هو المحدّد لمستقبل المؤسسة المنتجة.

ولا يقف الإقناع والتأثير عند هذين المجالين وإنّما يتعديان ذلك إلى مجالات أخرى كالحملات الاجتماعية، والتسويق السياسي (تسويق الإيديولوجيات والأفكار ومشاريع الحكومة) وكذا مجال علم النفس العيادي[2].

1)- الإقناع الاجتماعي، ص09.

2)- الإقناع الاجتماعي، ص: 10.

ونظرا لهذه الأهمية القصوى للإقناع والتأثير سعى بعض العلماء، خاصّة علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى دراسة هذه الظاهرة فنظّروا لها بناءً على متطلبات العصر، ومن هؤلاء «ميشال لونات» و«والاس».

I-2-1- نظرية التاءات الثلاثة:

تتم عملية الإقناع والتأثير في سلوك الأفراد عبر ثلاث مراحل حسب نظرية «ميشال لونات»[1]، وهي التوعية، والتشريع ثم التتبّع أو المراقبة Convaincre, Concraindre, Contrôle ومن هذه التسميات اشتق اسم نظرية التاءات الثلاثة.

أ- مرحلة التوعية:

تتضمن التوعية آليات الإقناع اللّساني والتوضيح والتفهيم، وتعزيز كل ذلك بالأدلة والبراهين المقنعة التي تنساب إلى عقول المستقبلين، على أن يتوفر في الأفكار المراد إيصالها البساطة والوضوح، حتى لا يتعب المتلقي في فك رموزها أو ما غمض منها، وبالتالي يسهل عليه فهمها وهضمها، فتنال بذلك الرسالة الإقناعية المصداقية، وممّا يساعد كذلك على فهم هذه الرسالة، وضوح الغرض المقصود[2].

ولا يتوقف نجاح هذه المرحلة عند هذا الحدّ فحسب، بل لابدّ للمرسل من أن يختار الظرف المناسب لإلقاء رسالته حتى نجد صداها، أو الآذان الصاغية والقلوب الرّحبة فللظرف المحيط أو الراهن فعله كذلك في عملية الإقناع والتأثير.

---

1)- الإعلام الاجتماعي، ميشال لونات، ترجمة: صالح بن حليمة، مراجعة: مصطفى المصمودي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1993، ص: 13-16.

2)- الإعلام الاجتماعي، ص: 26.

ب- مرحلة التشريع:

من منظور «ميشال لونات» يجب أن تعزز مرحلة التوعية والتفهيم بمرحلة تابعة تتمثل في إصدار قانون يدعم الفكرة ويمنع المتلقي من مخالفتها؛ ولذا يرى أنّ التوعية وتوضيح الأشياء وبيان العواقب غير كاف للتأثير في سلوك المتلقي للإتيان بالأمر المطلوب أو الامتناع عنه، فالاقتناع والتأثير لابد وأن يحملا في طياقما معنى السلطة والمسؤولية والاختيار والترغيب والترهيب(1).

ولعلّ المبرر لرأي «ميشال لونان» حول إصدار القوانين هو أنّ الإنسان يجد نفسه عاجزا أمام سلوكه ونزواته ورغباته ودوافعه، ولذا لابدّ من -حمايته من نفسه عن طريق سنّ لا قوانين التي ترهب-(2).

ولكن سن القوانين بمفرده لا يكفي لحماية المجتمع من كل ما يحيط به من أخطار، لذا يجب أن يتلازم القانون مع الترغيب والترهيب مع تكرار ذلك باستمرار حتى الوصول بالمتلقي إلى الغرض المقصود.

ج- مرحلة التتبع:

من أجل نجاح عملية الإقناع والتأثير، لابد من المراقبة والتتبع؛ وهذا يستوجب التأكيد على ضرورة احترام القوانين أو العمل بالمطلوب والتنبيه والتحذير من التقاعس.

وعملية التأكيد والتذكير والمتابعة هي التي تزيد من درجة مصداقة الرسالة الإقناعية لدى المتلقين، كما أنها تجذب اهتمامهم.

---

1)- الإقناع الاجتماعي، ص: 60-61.

2)- المرجع نفسه- ص: 62.

ويبدو أن نظرية التاءات الثلاثة هذه قد، أهملت الجانب النفسي للمتلقي، لأنّ من حقه أن يقبل أو يرفض، لذا فهي تخدم السلطة السياسية التي تستدرج المتلقين لتقبل القوانين الجديدة، وهذا بعض من فيض، لأن هناك نظريات عدّة تعرّضت للإقناع والتأثير بالدراسة والتحليل، لا يمكن حصرها كلها، لأنّ مجال البحث لا يتسع لدراستها كلّها.

II- وسائل الإقناع:

يمكن التمييز بين نوعين من وسائل الإقناع في الخطاب الإقناعي العربي، وهي الوسائل المنطقية-الدلالية، والوسائل اللغوية؛ حيث تتضافر هذه الوسائل فيما بينها لإنجاح الوظيفة الإقناعية، ويضاف إلى هذه الوسائل أدوات أخرى غير لغوية، لها دورها هي الأخرى في الإقناع والتأثير؛ كالرمز والإشارة وكذا حركة الجسد.

II-1- الوسائل المنطقية-الدلالية ضمن نظرية أنواع النصوص:

II-1-1- الحجاج:

أ- مفهومه:

يعتبر مفهوم الحجاج (المحاجة) من المفاهيم التي تحدث الالتباس لدى أيّ باحث، ومردّ ذلك إلى أسباب عدّة ملخصها كالآتي:

- «تعدّد مظاهر الحجاج وتنوعها (الحجاج الصريح، الحجاج الضمني،...).

- تعدّد استعمالات الحجاج وتباين مرجعياتها: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، المنطق،...

- خضوع الحجاج في دلالته إلى ما يميّز ألفاظ اللّغة الطبيعية من رخوة وليونة تداولية، وكذلك من تأويلات متجدّدة وطواعية»[1].

وعلى هذا الأساس، يصعب تحديد سريع ودقيق كل الدقّة لمفهوم الحجاج أو المحاجة؛ ولذلك تضفي تعييناته وسياقاته طابع النسبيّة، ثم إنه إذا ما حاول الباحثون إلحاق الحجاج- بالمنطق «فإنّ آلياته وصيغه الممكنة لا تحتمل الشكلنة الصارمة، وربما يحتاج الحجاج إلى إطار بحثي خاصّ به»[2].

هذا من جهة المنطق، أما على المستوى الإجرائي فإن الحجاج يستمدّ معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محدّدة ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته الفردية والجماعية، ولا غرابة والحالة هذه، أن هناك حجاجا خطابيا (لسانيا) وحجاجاً خطابيا (بلاغيا)، وآخر قضائيا أو سياسيا أو فلسفيا،...

وبناءاً على ذلك، يصبح الحجاج بعداً جوهريا من أبعاد الخطاب الإنساني، المتاح باللغة المنطوقة أو المكتوبة، كما أنّه فعالية لسانية- منطقية ضمن هذا الخطاب، وبقدر ما تختلف وتغتني أشكال ومضامين هذا الخطاب، بقدر ما تختلف وتتباين فيه درجات الفعالية الحجاجية إن على مستوى الإظهار أو مستوى الإضمار وكذلك على مستوى الإنشاء والاشتغال[3].

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري)، أ.أحمد عراب، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، المجلد 30، العدد 01، ص: 97- 98.

2)- المرجع نفسه، ص: 99.

3)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 98.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات، لابدّ من التعرّض لمفهوم الحجاج ضمن مجالاته الاستعمالية الأساسية، لتتبيّن دلالته على أوسع الآفاق، ولعلّ من المفيد العودة إلى المعنى اللّغوي لهذا المفهوم.

أ-1- المعنى اللّغوي للحجاج: الحجاج والمحاجة مصدر لفعل «حاجج» وفي لسان العرب لابن منظور وُجد مايلي[1]:

- حاججته: أي غلبته بالحجة التي أدليت بها.

- الحجة: هي البرهان أو ما دوفع به الخصم، وتجتمع الحجة على حجج وحجاج، ويقال: حاججته محاجَة وحجاجًا أي نازعته بالحجّة.

- التحاج: هو التخاصم، والرجل المحجاج هو الرجل الجدل.

- الاحتجاج: من احتج بالشيء، أي اتخذه حجّة، ويقال: أنا حاججته فأنا محاجهُ وحجيجه أي مغالبه بإظهار الحجة التي تعني الدليل والبرهان.

ومن خلال هذه التحديدات القاموسية يبدو أن لفظ الحجاج أو المحاجة يحمل في مضمونه دلالة ومعنًى مستمدّين ممّا يشكّل سياقه أو شرطه التخاطبي المتمثل في (التخاصم) و(التنازع) و(الجدل) و(الغلبة) كعمليات مأخوذة هنا بمعانيها الفكرية والتواصلية[2].

وعلى سبيل المقارنة تحيل لفظة (Argumentation) في معجم اللغة الفرنسية على عدّة معان أبرزها ما جاء بها في قاموس «روبير» (Robert)[3]:

1)- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، 1997، مادّة (حجَجَ)، ص: 228.

2)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 99.

3)- Dictionnaire de la langue Française le grand Robert, Paris, 1989- T1, P :535.

- القيام باستعمال الحجج.
- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.
- فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة.

وفي القاموس نفسه يشير الفعل (Argumenter) «إلى الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج أو عرض وجهة نظر معارضة مصحوبة بحجج»[1].

ويبدو جليا أن كلا التحديدين القاموسيين لمفهوم الحجاج لا يختلفان عن بعضهما إلا في الجوهر، لا في الدلالة.

أ–2– المعنى الاصطلاحي للحجاج: عرف الحجاج من زوايا شتّى: السمات الموضوعية العامة، أو البنى اللّغوية المميزة، أو الغرض البلاغي والوظيفة الاتصالية أو التقاط سمة أولية مائزة،... وتطول قائمة التعريفات، فنراها تدنو تارة من جوهر الحجاج، وتنأى عنه قليل تارة أخرى ومن أهم التعريفات التي يبدو أنها تقترب عن غيرها من جوهر الحجاج مايلي:

- الحجاج عند «أندرسين (Andersen) و«دوفر» (Dover) طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوي المنطقية، وغرضها حلّ المنازعات والصراعات واتّخاذ قرارات محكمة والتأثير في وجهات النظر والسلوك[2].

---

1)– المرجع نفسه، ص: 535.

2)– Reading in argumentation- Andersen jerry, M.Dover, Paul J.Allyn and bacon, inc boston, 1968, P: 03.

- نقلا عن النص الحجاجي العربي، ص: 43.

الحجاج عند «بيريلمان» (Perelman) و«تيتكا» (Tyteca) طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو إلى زيادة درجة تلك الاستمالة(1).

وبناءً على عنصر الاستمالة والموالاة التي بنيت عليها تعريفات بيريلمان وتتيكا، يعرّف كلّ من «ريك» (Rieke) و«سيلارز» (Sillars) الحجــاج بأنه عملية عرض دعاوى تتضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والــدعامات المناسبة بغية الحصول على الموالاة لإحدى تلك الدعاوي(2).

وإلى جانب هذه التعريفات، تبرز تعريفات أخرى كون الحجاج فعــلا لغويا أو عملية اتصالية أو جنساً من خطاب تفاعلي مع إبراز أهم مكوّناتــه، على نحو ما نجد في تعريف «أوتس ماس» (Ritz mass) و«ديبورا شيفرين» (Deborah Schiffrin) وكل من «هاينمان» (Heinemann) و«فيفيجر» (Viehwerger):

فالحجاج عند «ماس» سياق من الفعل اللّغوي، تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلف في شأنها، حيث تمثــل الفرضــيات المقدمــة في الموقف الحجاجي، مشكل الفعل اللّغوي(3).

---

1)- Traité de l'argumentation, perelman, Ch.Tyteca, olbrechts presses universitaire de Lyon, 1981, P: 92.

2)- Argumentation and the decision Making process, Reike Richard D-Sillars, malcolm, O-John Wiley and sons Inc USA, 1975, P:6-7.

3)- Argumentation, Maas, Utz: Spachliches, Handeln II in Hans Bueluler (hersg), Sprach 2, Fisher tas chenbuch Verlag, Frankfurt, 1973, P: 158-178.

- نقلا عن النص الحجاجي العربي، ص: 44.

والحجاج عند «شيفرين» جنس من الخطاب، تبنى فيه جهود الأفـراد وعامة مواقفهم الخاصّة في الوقت نفسه، الذي ينقضون فيه دعامـة موقـف خصومهم[1].

والحجاج عند كل من «هاينمان» و«فيفيجر» عملية اتصالية هي كـل ضرب من ضروب عرض البرهـان الـذي يعلـل الفرضـيات والـدوافع والاهتمامات[2].

وتمثل هذه التعريفات نماذج دارت حول عناصر موضـوعية، وبنائيـة ووظيفية، وخلاصة ذلك أنّ الحجاج جنس خاص من الخطاب يـبنى علـى قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عـبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقيا، قاصداً إلى إقناع الآخـر بهـدف دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية.

أ-3- الحجاج عند العرب: الحجاج عنـد العـرب هـو الحجـاج والاحتجاج والجدل والمجادلة، يضرب الحجاج بجذور قوية في الخطاب العربي، فضلا عن ذلك الدور الذي لعبه في الحياة العقدية والسياسية في البيئة العربيـة الإسلامية- وفضلا كذلك عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطـاب العلمـي البلاغي التي تجلت في دفاع عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) عن إعجـاز

---

1)- Every day Argument, The organization of Diversity in Talk in Analysis, Vol3: Discourse and Dialogue, Academic, press, London, 3d, edition, 1989, P: 35-46.

2)- Textlinguistik, Heinemann, Wolfgang, Viehweger, Dieter, eine einfuhrung, Max Niemeyer, Verlag, Tuebingen, 1991, P: 249.

- النص الحجاجي العربي (دراسة في وسائل الإقناع)، ص: 44.

القرآن وذلك بإقناع الناس بفكرة النظم[1].

ولقد شغل الحجاج بعض القدماء جنسا خاصا من الخطاب، ومن بين هؤلاء أبو الحسن إسحاق بن وهب (ت 337هـ) وحازم القرطاجني (ت 684هـ) اللّذان تعرضا للحجاج بالدراسة والتحليل.

وممّا ذكره ابن وهب في مبحث «الجدل والمجادلة» يمكن استخلاص النقاط الرئيسة التالية:

1- «وأما الجدل والمجادلة، فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات، والتنصل في الاعتذارات»[2].

2- والجدل كما يفهم من كلام ابن وهب خطاب تعليلي إقناعي، فالجدل إنّما يقع في العلّة من بين سائر الأشياء المسؤول عنها[3]، لذا يرى ابن وهب أنّه ينبغي للمجيب إن سئل أن يقنع، وأن يكون إقناعه الإقناع الّذي يوجب على السائل القبول. وإذا كان الفلج في الجدل إظهار الحجة التي تقنع، فالغالب الّذي يذكر ذلك[4].

3- إذا كانت مقامات الجدل مقامات اختلافات وخصومات فإن الاعتبار الأخلاقي من أوجب ما توجبه تلك المقامات، ولهذا يفهم من كلام ابن

1)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 46.

2)- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، تحقيق: د.أحمد مطلوب، ود.خديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، 1378هـ-1967م، ص: 222.

3)- البرهان في وجوه البيان، ص: 228-225.

4)- المرجع نفسه، ص: 242-243.

وهب أنّ الجدل المحمود ما قصد به الحقّ واستعمل فيه الصدق والجـــدل المذموم ما أريد به المماراة والغلبة، وطلب به الرّياء والسمعة[1].

وهكذا فإنه إذا كان القصد هو الحق والصواب، وجب على المجـــادل أو المخاطب ألاّ تحمله قوّة إن وجدها في نفسه، وصحّة في تمييزه، وجودة خاطره، وحسن بديهته، وبيان عارضته، وثبات حجّته، على أن يشرع في إثبات الشيء ونقضه، ويشرع في الاحتجاج له ولضدّه، فإن ذلك ممّا يذهب ببـــهاء علمـــه، ويطفئ نور بهجته، وينسبه به أهل الدين والورع إلى الإلحاد وقلة الأمانة[2].

أما في مبحث «أدب الجدل» فلقد اشترط ابن وهب مايلي[3]:

1- أن يحلم المجادل عمّا يسم u من الأدى والنبز.

2- ألاّ يعجب برأيه وما تسوّله له نفسه، حتى يفضي بذلك إلى نصائحه.

3- أن يكون منصفا غير مكابر؛ لأنه إنّما يطلب الإنصاف مـــن خـــصمه، ويقصده بقوله وحجّته.

4- ألاّ يستصغر خصمه ولا يتهاون به، وإن كان الخصم صغير المحل في الجدال.

وممّا ذكره ابن وهب في مبحثي «الجدل والمجادلـــة» و«أدب الجـــدل» نستخلص أنه: يمكن أن ينظر إليه من منظـــور الاســـتراتيجيات الاتـــصالية الحجاجيّة ومن أهم ذلك:

1)- أن يبني المجادل مقدماته ممّا يوافق الخصم عليه[4].

---

1)- المرجع نفسه، ص: 222.

2)- البرهان في وجوه البيان، ص: 235.

3)- المرجع نفسه، ص: 236-239.

4)- المرجع نفسه، ص: 224.

2)– أن يصرف همّته إلى حفظ النكت التي تمرّ في كلام خصمه ممّا يبني منها مقدّماته وينتج منها نتائجه، ويصحح ذلك في نفسه، ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ماهو أحوج إليه منه(1).

3)– ألا يقبل قولا إلاّ بحجّة، ولا يردّ إلا لعلّة(2).

4)– ألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله، ولا يبادر بالجواب قبل تدبّره، واستعمال الرويّة فيه(3).

5)– ألا يشغل إذا شاغبه صاحبه، ولا يردّ عليه إذا أربى في كلامه، بل يستعمل الهدوء والوقار، ويقصد مع ذلك لوضع الحجّة في موضعها، فإنّ ذلك أغلظ على خصمه من السبّ(4).

6)– أن يخاطب الناس بما يعهدون ويفهمون، فلا يخرج في خطابهم عمّا توجبه أوضاع الكلام(5).

ويبدو أن قول ابن وهب «إن الجدل إنّما يقع في العلّة» مطابق لما جاءت به النظرية الحجاجية المعاصرة التي ترى أن الكائنات البشرية صانعة علة (Reason-Makers) ومستخدمة علّة (Reason-Users) والوقوف على كيفية صناعة الناس العلل واستخدامها هو الوسيلة الضرورية لبيان عملية تطوير الدعاوي ومنح الموالاة، وإذا كانت العلّة في جوهرها هي ما يقدم ردّا

1)– المرجع نفسه، ص: 240.
2)– البرهان في وجوه البيان ، ص: 237.
3)– المرجع نفسه، ص: 240.
4)– المرجع نفسه، ص: 239.
5)– المرجع نفسه، ص: 244-243.

على السؤال «**لماذا**»، فإنّ العلّة المقنعة هـي العلّـة في أنّ المستمع يمنح موالاته[1].

أمّا حازم القرطاجني (ت 684هـ) فإن أهم ما يستخلص من نظريته العامّة «التخيل والإقناع» الأمران التاليان:

1- أنه ميّز بين جهتين للكلام. 2- أنّه ميّز بين طريقتين لإقناع الخصم.

ففي تمييزه الأول يقول حازم القرطاجي: «لما كان مل كـلام يحتمل الصدق والكذب إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإمّا أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال»[2].

ولعل حازم في تمييزه بين الإخبار والاقتصاص وبين الاحتجاج والاستدلال يريد أن يميز بين نوعين من النصوص- النصوص السردية والنصوص الحجاجية على الترتيب.

وإذا كانت التمويهات والاستدراجات من الاستراتيجيات الحجاجية المهمة، فإنّ أوّل من تفطن إلى هذا الاستدراج هواني الأثير الـذي سبق القرطاني إلى استخراج هذه الاستراتيجية من النص القرآني، ولذا فالاستدراج

---

1)- Argumentation and the decision making process, P: 06-07.

- نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 46-47.

2)- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص: 63.

عند ابن الأثير (ت 637هـ) هو من «مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال»[1] بمعنى «استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم»[2].

أمّا حازم القرطاجني، فقد ربط التمويهات والاستدراجات بالطبع والحنكة معًا، وهو لذا يقول: «التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنّه على غير ماهو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك، والتدرّب في احتذائها»[3].

وإضافة إلى هذا الربط فقد ميز القرطاجني بين التمويهات والاستدراجات قائلا: التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال والاستدراجات تكون بتهيّؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه أو بإطبائه إياه لنفسه، وإحراجه على خصمه، حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول»[4].

ومن طرق تحقيق التمويهات التي ذكرها لقرطاجني[5]:

أ- طي محل الكذب من القياس عن السامع.

---

1)- المثل السائر ضياء الدّين بن الأثير، قدّمه وعلّق عليه: د. أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة، دار النهضة، مصر للطباع والنشر، ط2، 1973، ج250/2.

2)- المرجع نفسه، ج250/2.

3)- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 64.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ب- اغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنّها صادقة لاشتباهها بما يكون صادقا.

ج- ترتيب القياس على وضع يوهم أنّه صحيح لاشتباهه بالصحيح.

د- إلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب بضروب من الإيداعات والتعجيبات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس.

ولقد وقف باسل حاتم على استراتيجية في الحجاج المضاد (Counter argumentation) تعرف في التقليد البلاغي الغربي باسم «لعبة الولاء الكاذب» (Straw man Gambit) وذلك بقوله: «لمّا كان قصد المجادل هو أن يقود خصمه إلى قبول الدليل المطروح، فإنّ عرض الدليل الذي يؤخذ من قول الخصم نفسه، سوف يصبح -على نحو مؤكّد- الطريقة الأعظم تأثيرا في إنجاز غايات المجادل،...»[1].

وخلاصة هذا، أن كلام المخاطب لا تخلو جملة من دوافع خفية لذلك فهو يعرض محتوى الخطاب في جوّ من الرفض والمرواغة حتى يتمكن من التأثير على خصمه أو جعله يقبل الدلائل المطروحة.

أ-4- الحجاج ومعناه في «نظرية الحجاج»: يجد الحجاج جذوره وخصائصه في كل أنماط الخطاب والخطابة وما تشتمل عليه من جدل وتبرير وإقناع، لذا كان مفهوم الحجاج منذ القدم تابعا تبعية عضوية واستعمالية لمجالات أفعال تتطلبه وتستدعيه، أمّا بعض الأبحاث والكتابات الحديثة فقد

1)- نموذج المجادلة من البلاغة العربية، باسل حاتم، بحث مترجم في: بحوث تحليل الخطاب الإقناعي، اختيار وترجمة د.محمد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1419هـ- 1999م، ص: 39.

جعلت منه موضوعاً خاصّاً بها، حيث تفاعلت هذه الأبحاث مع اللّغويات والمنطق والفلسفة، ومن منظور هذه الكتابات يشير الحجاج والتدليل إلى ذلك الخطاب الصريح أو الضمّي الذي يستهدف الإقناع والإفحام معًا مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك.

هذا ما يدل عليه «ميشال مايير» (Michelle Meyer) أحد منظري «نظرية الحجاج» حيث يعرّف الحجاج عادة بكونه جهداً إقناعيا (إفحاميا)، معتبر البعد الحجاجي بعداً جوهريا في اللّغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه[1].

وعلى هذا الاعتبار، يصبح الحجاج بعداً جوهريا في اللّغة ذاتها، فينتج عن ذلك أنّه حيثما وُجد خطاب اللّغة، فإنّ ثمّة استراتيجية معينة نعمد إليها لغويا وعقليا، إمّا لإقناع أنفسنا أو لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية في الحجاج نفسه وهي تستمدّ خصائصها وقيمتها من الحقل الذي تتحقق فيه ويعطيها الشرعية وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس وقيمهم أو يكون الفكر والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا أو تجريداً[2].ويبدو واضحا من هذا أنّ الحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنّما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة التي تمنحه العناصر الأولية والقاعدية، أي عناصر الاستدلال والتدليل.

1)- Logique, langage et argumentation- meyer (Michel) Hachette Université- 2ème édition- Paris- 1982- P: 136.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 99-100.

هكذا يتبنى وجود أكثر من سياق لمفهوم الحجاج كما تتعدّد حقوله الوظيفية من الحجاج الخطابي البلاغي إلى الحجاج الفضائي (القانوني) إلى الحجاج الفلسفي أو الرياضي،...

ومن ثم، كان من البديهي أيضا أن يكون للحجاج كخطاب وكعمليات استدلالية إقناعية علاقات معقّدة ومتجدّدة سواء مع البلاغة الكلاسيكية والحديثة أو مع المنطق والبرهان أو مع اللسانيات والتداوليات(1).

ومن أجل الأهمية القصوى للحجاج، تسعى كل الأجناس المعرفية إلى ضمّه إلى حضيرتها الخاصّة، وهو لذا أثري وطُعّم بمفاهيم ووظائف وتنظيرات مختلفة في تطوّر مستمر.

ب- حقول الحجاج ومجالاته الاستعمالية:

ب-1- الحجاج والتداولية: يرى الباحثون أن الحجاج ظاهرة متجسدة في الخطاب وبه يتحقق، وهو ملتبس بألبسة لسانية وأسلوبية، ومن نتائج ذلك، أن مقاربة هذه الظاهرة مقاربة لسانية غدت حاليا مسألة طبيعية إن لم تكن ضرورية.

لذا يعدّ التناول الألسني لظاهرة الحجاج ملتقى تتقاطع فيه مقاربات متباينة أشدّ التباين، منها اللسانيات العامّة، والتداولية والأسلوبية والبلاغية.

ولقد اعتاد الدارسون اللسانيون النظر إلى الخطاب اللفظي الحجاجي، كخطاب يتوفر على خاصيات بنائية وبراغماتية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات السردية والحكائية والإخبارية،...(2).

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 100.

2)- Langage et représentation sciences humaines, J.P.Brouckart, N°21, Hors série, juin- juillet, 1998, auxairre, P:20-23.

ومن هذا المنطق يحدّد «جون بول برونكار» (Jean Paul-B) أنماط الخطاب في أربعة هي: السردية والحكائية والتفاعلية الحوارية، ثم النظرية؛ وينبني هذا التصنيف على أسس لسانية داخلية؛ وإذا كانت النصوص «التفاعلية- الحوارية». وحتى النظرية هي الأكثر احتضانا للحجاج، فإنّ هذا لا ينفي إطلاقا أن أشكال النصوص الأخرى لا تحتضن الحجاج[1].

وتسعى المقاربة اللسانية وحتى الأدبية إلى التعامل مع نوع خاص من التخاطب والتكلّم، وعليه فإنّ التخاطب الحجاجي خاضع لفظيا إلى مثلثات سيميولوجية لسانية هي كالآتي:

1- المرسل---الرسالة----المستقبل (جاكبسون Jackobson).

2- التعبير---المعنى----الإقناع والانفعال (بوهلر Buhler).

3- المخاطب---الخطاب---المخاطب (أوسيتني Asrtin).

وحتّى يتم إدراج الحجاج ضمن الدوائر السابقة، لابدّ من رصد كل الأفعال الكلامية والتكلمية التي لها مرجعيّة أو سياق مشترك بين المتكلم والمستمع أو بين المخاطِب والمخاطَب.

ولئن كان البعض يعتقد أن دراسة الحجاج في الخطاب اللفظي هو شأن لتداولية (Pragmatique)، فإن لهذا الاعتقاد ما يبرّره، إذ بالفعل نجد الخطاب الحجاجي يخضع ظاهريا وباطنيا لقواعد شروط القول والتلقي؛ بعبارة أخرى إنّ كل خطاب حجاجي تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية، وبالتالي قيمة ومكانة وأفعال الذوات المتخاطبة[2].

---

1)- Langage et représentation sciences humaines, J.P.Brouckart, N°21, Hors série, juin- juillet, 1998, auxairre, P:20-23

2)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 101.

ولكن مجال التداوليات مجالٌ واسع ومتشعب؛ فهناك مجال تداولية البلاغيين، ومجال تداولية اللسانيين، ومجال تداولية الفلاسفة والمناطقة؛ ونظرا لتشعّب التداوليات ذهبت أرمينيكو فرانسواز «Françoise Armingaud» إلى القول: «إنّ التداولية كبحث في قمة ازدهاره لم يتحدّد بعد في الحقيقة، ولم يتم بعد الاتفاق بين الباحثين فيما يخصّ تحديد افتراضاتها، واصطلاحاتها»(1).

وعلى الرغم من تداخل اختصاصات التداولية فإن الباحثة «أرمنيكو فرانواز» تحاول الإجابة عمايلي:

- من يتكلّم؟ وإلى من؟
- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟
- ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟
- كيف نتكلّم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

وتستدعي الإجابة عن هذه الأسئلة استحضار مقاصد التكلم وأفعال اللّغة وبعدها التداولي، وكذا السياق، فالباحثة تحاول أن تستعلم عن المتكلم والمستمع، ثم عن نوع الرسالة أو الموضوع أو الخطاب، ثمّ عمّا يحيط بالرسالة من لبس أو غموض، وسؤالها الأخير استعلام عن الأشكال البلاغية من استعارة ومجاز وكناية وغيرها.

وجدير بالذكر، أن هذه الأسئلة تنطوي على كل أنواع الخطاب بما في ذلك الخطاب الإقناعي الذي ينطوي على عدّة مستويات أهمها المستوى

1)- المقاربة التداولية، أرمينيكو فرانسواز، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ت، ص: 11.

الحواري أو التحاوري سواء كانت ذوات هذا التحاور غائبة أو حاضرة أو متعدّدة الأصوات والأمارات.

وعن الحوارية تقول الباحثة فرانسواز: «تعدّ الحوارية مكوّنا لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين توجدان في علاقة حالية، ويقدم المبدأ الحواري من خلال الحدود التالية كل تلفظ يوضع في مجتمع معين، لابدّ أن ينتج بطريقة ثنائية، تتوزع بين المتلفظين الذين يتمرّسون على ثنائية الإصاتة، وثنائية العرض على حدّ تعبير فراسيس جاك (F.Jacques)»[1].

وبناءًا على هذا القول؛ فإنّ الظاهرة التخاطبية-الحوارية صميمية في كل خطاب على الإطلاق؛ غير أن الاتجاه الحجاجي في هذه الظاهرة يبدو أكثر وضوحا على صعيد التواصل الفكري.

إنّ أساس الحجاج، إذن، في منظور بعض الاتجاهات التداولية هو الحوارية وما تتطلبه من عمليات حجاجية تتنوّع وتتباين تقنيا بتنوّع وتباين أنماط التحاور ومراتب الحواريه، هذا الأمر الذي دفع طه عبد الرحمن إلى الاعتقاد بأن «الحوارية تنقسم إلى الحوار» و«المحاورة» و«التحاور» وكل منها يخضع لمنهج حجاجي استدلالي، وآلية خطابية، وبنية معرفية، وشواهد نصيّة»[2].

بيد أن هذا الاعتقاد قد تعرّض إلى النقد، كونه قد يسقط الباحث في نزعة تفاضلية وتعسفية نظرا لما يترتب عليه من تقسيمات منهجية، لذا يرى أحمد عراب أنّ الحوارية وحجاجها هي ذاتها من نتائج «العملية التواصلية»

1)- المقاربة التداولية، ص: 85.

2)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص: 51.

ومن ثم فمن الصعب جدّا حصر كل اتجاهات المناقشة والتخاطب الحجاجي، حتى لو حاولنا أن نضع لذلك قواعد و«مبادئ»، أو مسلّمات كتلك التي سمّاها «كرايس» (Grice) بمبادئ المناقشة القائمة على «التعاون»[1].

مبادئ المناقشة عند كرايس[2]:

1- مبدأ الكم: اشتمال مساهمة المناقش على كمية من المعلومات المطلوبة لا زيادة فيها ولا نقصان.

2- مبدأ الكيف: المساهمة في النقاش تكون حقيقية لا تؤكد ما يعتقد صاحبها أنّه خطأ، ولا تؤكد ما هو في حاجة إلى حجج.

3- مبدأ العلاقة: التكلم في صميم الموضوع وعند الضرورة.

4- مبدأ الطريقة: الوضوح في الكلام وتجنب الالتباس في الحديث، وكذا تجنّب الكلام الغامض مع توخّي الاختصار والمنهجية.

ولكن هذه المبادئ لا يمكن اعتبارها تداولية أو حجاجية محضة، لأنّها تعتبر عديمة المعنى خارج نطاق النشاط التخاطبي باعتباره نشاطا عقليا، وهذا النشاط بدوره ليس معزولا عن مضمونه السوسيو-أخلاقي والتواضعي (العرفي). والدليل على ذلك أنّ كل مناقشة، أو تفكير حجاجي أو غير حجاجي هو تفكير مع الآخر، وتواصل معه[3].

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 102.

2)- Elément pour la lecture des textes philosophies, cossuta frediric, bordas, Paris, 1989, P: 187-188.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 103.

ب–2– الحجاج واللسانيات: تهدف المقاربة اللسانية إلى معالجة ظاهرة «الحجاج» كظاهرة لسانية–نصّيّة لا يمكن تفسيرها دون إبراز مراتب المتكلمين وأدوارهم في أفعال الكلام؛ ودون إغفال العناصر والروابط الحجاجية التي هي بمثابة أدوات لسانية.

ومن الّذين اهتمّوا بالتحليل اللساني للحجاج، «إ.بنفنيست» (I.Benveniste) و«أ.ديكور» (O.Ducrot) وآخرون، ومن أبحاث «بنفنيست» نفهم أنّ اللغة لا يمكن أن تتحقق فعليّاً إلا بواسطة التلفظ (Enonciation) وحينئذ تتحوّل اللّغة إلى خطاب يجسّد علاقة بين متكلم ومستمع.

وهو لذا يرى أنّ «الفعل الفردي الذي سَتَعْمَلُ بواسطته اللغة، بجعل من المتكلم قبل كل شيء ما يشبه المحدّد الثابت في شروط التلفظ الضرورية، فقبل التلفظ لا تكون اللّغة سوى عبارة عن إمكانية لغوية، وبعد التلفظ تصبح بمثابة الخطاب الذي يصدر عن متكلم في شكل صورة ناطقة تستهدف مستمعاً، يبعث تلفظا آخر ارتجاعيا»(1).

ومن زاوية أخرى يؤكّد اللساني (بنفنيست) على أنّ «التلفّظ يتميّز بحدّة العلاقة الخطابية مع الشريك، سواء أكان شريكا حقيقيا أو متخيّلاً فرديا أو جماعيا، وهذه الخاصية تطرح بالضرورة ما يمكن أن نطلق عليه، الإطار التشخيصي للتلفظ»(2).

1)– Les problèmes de la linguistique générale (Emile) Benveniste, 2ème édition Gallimard, Paris, 1974, P: 81-82.
2)– Les problèmes de la linguistique générale (Emile) Benveniste, 2ème édition Gallimard, Paris, 1974, P: 85.

وعلى هذا الاعتبار، فإنّ التلفظ يتخذ من بين أشكال الخطاب «صورتين» ضروريتين؛ الأولى بمثابة مصدر التلفظ وتمثل الثانية هدف أو غرض التلفّظ، إذاً، فالقضية هنا تتعلّق ببنية الحوار.

واستمراراً لهذه الأفكار التي أتى بها «بنفنيست» حول التلفظ والتكلم والخطاب، يتصور «ديكرو» أن الخطاب الحجاجي وراءه ذات متكلمة أي له مصدر أو مصادر؛ فالتكلم –داخل الخطاب– هو المصدر المسؤول عن الخطاب بصفة عامّة، وعن حجاجة بصفة خاصّة، ومن أجل هذا يميّز «ديكرو» بين المتكلم والمتلفظ، على اعتبار المتلفظ هو المسؤول عن منطوق (قول) أو أكثر، وهو الصوت المتحدّث باسم المتكلم للتعبير عن رأي أو أطروحة (موقف خاص) ضمن هذا الخطاب الحجاجي ككلّ(1).

وفي هذا السياق؛ أبدع «ديكرو» مفهوم «المتلفّظ –متعدد الأصوات– لحلّ مشكلة تحليل بعض الأقوال التي لا نعرف بالضبط لمن تنسب فيها الكلام، هل لمتكلّم واحد، أم لأكثر من متكلم»(2).

وإذا كان الاتجاه اللساني يجعل (معنى) القول يتعارض مع (قيمة) القول والذي ينجرّ عنه تعارض الدلالة مع التداولية، فإن للّساني «ديكرو اعتقاداً آخر مؤداه «أنّ المعنى لا يحدّد من دون الرّجوع إلى مقاصد القول وحجاجه»(3).

1)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 104.

2)– La philosophie des discours argumentatifs in pratiques auricchio (angues) et Alliés (Revue) N° 73, Mars- 1992, P: 07-40.

3)– Les échelles argumentatives, Ducrot- (Oswald), édition des minuit, Paris, 1989- P: 08.

ولكن هذا الطرح اللساني لا يفصل بين البعد التداولي والبعد الدلالي للخطاب، إلاّ أنّ للباحث «ديكرو» رأياً آخر يتمثل في تفريقه بين الاستدلال العقلي وبين الخطاب؛ إذ الأوّل لا يشكل حسبه خطاباً؛ لأنّ كل قضية من قضايا الاستدلال تحيل بوحدها إلى حالة واقعية أو افتراضية من حالات الواقع(1).

وهكذا يقول ديكرو: «بالنسبة لي، إنّ كلاً من الاستدلال العقلي والخطاب ينتميان إلى نظامين مختلفين إطلاقاً، أي نظام ما نطلق عليه عادة «المنطق» ونظام ما أطلق عليه «الخطاب»»(2).

ولعلّ «ديكرو» بكلامه هذا يريد تنبيه الباحث إلى نتيجة مفادها «إنّ الخطاب اللفظي يتوفر على خاصية حجاجية مباطنة له دون أن تعيّر هذه الخاصية بمعايير منطقية خارجية. وحجاج هذا الخطاب يتجلّى في العلاقات بين المنطوقات والأقوال، وهي علاقات مكونة لتلك الأقوال وتوجّهها في مجتمع ما، توجيها معيّنا(3).

وانطلاقا من هذه النتيجة، راح كل من «ديكرو» و «ج.ك.أسكومبر» يطلقان على الحجاج الخطابي اسم «الحجاج داخل اللّغة»(4).

إذ يتعلق الأمر هنا بحجاج يمكن وصفه بـ«منطق الكلام» أي تلك القواعد الداخلية للخطاب والتي تتحكّم في ترابطه وتسلسله(5).

---

1)- مقال الحجاج والاستدلالي الحجاجي- ص105.

2)- Les échelles argumentatives, Ducrot, O- P: 10.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 105.

4)- Les échelles argumentatives, P: 11.

5)- المرجع نفسه، ص: 12.

ومما سبق ذكره نستنتج أن كثيرا من أفعال الكلام لها وظيفة حجاجيـــة، خاصة تلك الأفعال التي تهدف إلى توجيه المتلقي نحو مرمى معين أو صرفه عنه.

ومن منظور «ديكرو» تتوفر الوظيفة الحجاجية على خصائصها في بنية الجملة ذاتها، وبعبارة أخرى: «...إنّ القيمة الحجاجية لقول ما، ليست هـــي حصيلة المعلومات التي يقدمها فحسب، بل إنّ الجملة بإمكانها أن تشتمل على مورفيمات وتعابير وصيغ، والتي بالإضافة إلى محتواها الإخباري فهي تـــصلح لإعطاء توجيه حجاجي للقول، وتوجيه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذاك»[1].

وخلاصة هذا العرض الذي يجعل استعمال الحجج ليس عنصرا يـــضاف إلى اللغة، بل يسري فيها سريان طبيعيا، سوف يميّز بـــين الـــدليل (الحجـــة القاطعة) وبين الحجة العادية من جهة وسوف يولي اهتمامه التحليلي لإبـــراز نظام وتراتبية الحجج (حجج قوية، حجج ضعيفة) أو (حجج عليا، حجـــج سفلى) بالنسبة لنتيجة معينة من ناحية ثانية[2].

وبعد هذه المقاربات، هل نستطيع القول بـــأنّ كـــل مـــن التداوليـــة واللسانيات استطاعتا أن تمتلكا نواصيَّ حجاج الخطاب؟

ب-3- الحجاج والأسلوبية: والجواب عن السؤال الـــسابق هـــو أن الفعالية الحجاجية كفعالية خطابية لا تظهر وتنحـــسم لغويـــا إلاّ بمهـــارات أسلوبية، وتأثيرات بلاغية فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعيّة والإبتكارية كمتطلبات جمالية وألبسة يتلبسها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية[3].

---

1)- Les échelles argumentatives, P: 18.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 105.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 106.

ولا يخفى على أي باحث أنّ قيمة هذه العوامل تتفاوت من نصّ حجاجي إلى آخر، فالأساليب ومهارات البيان والتبيين تقوّي الحجج وتزيد من فعاليتها؛ أي أنها تعمل لصالح التأثير والإقناع، لذلك يمكن النظر إليها كظواهر أدبية وخطابية قائمة الذات؛ كما يمكن النظر إليها في علاقاتها بأدوارها الحجاجية وقيمتها الإقناعية.

وعليه، فإذا كان الحجاج قد بقي جذوره مع التداولية واللسانيات، فإنه لم يهمل عند البلاغيين والأسلوبيين الّذين اهتمّوا بتحديد وتصنيف أنواع الحجج والأساليب الحجاجية خاصّة في مجال الخطابة.

ولأنّ أنواع الحجج والأساليب عديدة، ولا يمكن حصرها نهائيا؛ فقد حاول كل من «ج.ج.روبريو» (J.J.Reberieu) في كتابه «عناصر الخطابة والحجاج» و«ج.روس» (J.Russ) بكتابها «المناهج الفلسفية» حاولا أن يحدّدا هما أيضا أنماط الخطاب الحجاجي[1].

وبالإجمال، فإنّ اللّغة باعتبارها نسقاً دلاليًّا لفظيا استراتيجيا في التواصل الإنساني، تتفوّق عن باقي الأنساق الدلالية الأخرى؛ لكونها على حدّ تعبير «ر. بارث» تمدّنا بالمعنى، بل هي نموذج المعنى في حدّ ذاته ، ثم إن اللّغة اللفظية بطبيعتها تؤثر ووجدت لتؤثر. فخاصية المعنى وخاصّة التأثير في اللّغة الطبيعية تفسّران لماذا لا يخلو كلامنا من حالات الاستدلال والمحاجّة، ولماذا لا تخلو أسليب التعبير والقول من أفعال استدلالية وأدوات لغوية نحوية-لسانية،

1)- Les échelles argumentatives, P: 20.

تمفصل أجزاء الجمل وتجمعات الجمل، وتستسيغها العقول والمعايير المتعارف عليها لدى جماعة بشرية معينة(1).

وإذا كان التعبير عماده الجمل، وهي بدورها عمادها المعنى؛ فإنّ اختيار مناسبات وكيفيات استعماله أمور تبقى من اختصاص المتكلم ونوعية أسلوبه.

ومن وجهة نظر «دمشقية عفيف» تنطلق الأسلوبية اللغوية من الأسلوب باعتباره «قائما على استخدام الموارد الإبلاغية للغة، لصياغة الفكرة بأقصى ما يمكن من الفعالية»(2).

ونظرا لذلك التداخل الحاصل بين القول الشفاهي والقول الخطي (المكتوب)، وبإحالة أحدهما على الآخر، فإنه لا يمكن إهمال تلك الظواهر الأسلوبية التي تتدخل سواء في إيصال المحتويات والدلالات أو في تحقيق التأثير، لأن هذه الظواهر تتعلق بكيفية انتقاء عناصر العبارة، وتناغم الأصوات اللغوية، وإيقاع العبارة ونبراتها، والاستعارة والاشتقاقات، وباقي الطاقات الإبلاغية والتعبيرية التي تلعب أدواراً متناقضة بالنسبة لوضع الحجج، داخل تناصية معينة(3).

ولكن هذه الأساليب والتعبيرات لا يمكنها أن تؤثر أو تقنع من دون مضمون، أي من دون التنسيق ما بين المعاني والأفكار، ومن دون العلاقة الحجاجية القائمة على تلك القسمة العادلة بين الناس والمتمثلة في العقل.

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 106.

2)- الإبلاغية فرع من فروع الألسنية، ص: 25.

3)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 107.

ب-4- الحجاج والبلاغة: إذا كان أرسطو قد نظر إلى البلاغة على أنّها هي نفسها الخطابة بقوله: «الريطورية قوّة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»[1] فإننا نجد في التراث العربي فرقا واضحا بين كل من الخطابة والبلاغة، كون البلاغة أشمل وأعم من الخطابة التي هي جنس ن أجناس التواصل وفنّ القول.

وإذا كانت الخطابة شديدة الارتباط بالشعر عند العرب، فقد فصل أرسطو بين الخطابة (الريطوريقا) وبين الشعر (البويتيقا) إذ الخطابة عنده قوّة تتكلف الإقناع، وهذا الإقناع يتطلب بالضرورة قواعد ووسائل يمكن اعتبارها منهجية، لأنها تدخل في صميم بناء الخطابة، وعناصر هذا البناء ثلاثة: «وسائل الإقناع أو «البراهين» والأسلوب أو «البناء اللّغوي» وترتيب أجزاء القول»[2].

إذ «اللاّتي ينبغي أن يكون القول فيهنّ على مجرى الصناعة ثلاث؛ (إحداهنّ): الإخبار من أي شيء تكون التصديقات و(الثانية) ذكر اللاتي تستعمل في الألفاظ، و(الثالثة) أن كيف ينبغي أن تنظم أو تنسّق أجزاء القول»[3]، ثم هناك عنصر الإلقاء الذي أضافه الدارسون المحدثون بعد أرسطو، ومنهم البلاغيون العرب باعتباره عنصرا مستقلا يتضمن الحركة والصوت.

1)- النقد الأدبي، و.ك ومزت، ك.بروكس: ترجمة: حسام الخطيب ومحي الدّين صبحي، دمشق، 1973، ج103/1.

2)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط1، ص: 17.

3)- الخطابة، أرسطو، الترجمة العربية القديمة، تحقيق: د.عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، 1979، ص: 181.

وإذا كانت هناك علاقة توتر وتنابذ بين الخطابة والفلسفة داخل الفكر اليوناني، فعلى العكس من ذلك ما نجده في الثقافة العربية من تكامل وتفاعل بين الأجناس الثلاثة؛ الخطابة والبلاغة والشعر.

وعمومًا، «فالخطابة -عربيا- هي نوع من القول والتخاطب، أمّا البلاغة فهي بعد أسلوبي في هذا القول؛ لذلك جاز الحديث عن بلاغة الخطابة واستحال العكس»[1].

وعلى اعتبار أن مفهوم البلاغة يشير إلى الطريقة والأسلوب فطبيعي ألاّ ينحصر هذا المفهوم في الخطابة وحدها، بل يتعدّاها إلى أنماط أخرى من القول كالشعر والفلسفة وغيرهما؛ لهذا اشتملت البلاغة على ثلاثة علوم جدّ بارزة؛ علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع.

فعلم المعاني يستهدف البحث عن كيفية تجنّب الأخطاء والاستهجان في تأدية المعنى من خلال كلام معيّن، ويستهدف علم البيان البحث عن كيفية تجنّب أوجه الغرابة والتعقيد في الكلام، بينما ينصب علم البديع على تحسين

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 108.

الكلام وإضفاء جمالية التعبير عليه.

وتبعا لذلك فإنّ البلاغة هي الطريقة والوسائل المتبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب السامع وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسّنات وإبانة وإظهار وإقناع، وهي لذلك يمكن أن تعرّف على أنها «ملكة اكتشاف وسائل الإقناع الممكنة بالرجوع إلى الموضوع أيّا كان»(1).

ولأنّ حقول البلاغة متشعبة ومتنوعة، فقد تباينت منظورات الباحثين في تناولها؛ ومن الّذين أسهموا بشكل كبير في الدرس البلاغي، عبد القاهر الجرجاني في (ت.471هـ) الذي أولى عناية فائقة للمعاني وكذا لدور التطبيق والاستعارة والقياس فيها ملخّصا ذلك في كتابة «أسرار البلاغة» بقوله:

«واعلم أنّ غرضي في الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ومن أين تجتمع وتفترق(...) وأبيّن أحوالها في كرم منصبها من العقل وتمكّنها في نصابه وقرب رحمها منه»(2).

ولقد ركّز الجرجاني على «التشبيه والتمثيل والاستعارة لأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرّفاتها، وأقطاب تحيط بها من جهاتها»(3).

وجملة هذا أنّ البلاغة عند الجرجاني وثيقة الصلة بنظرية النظم (التأليف) والمعنى، متخذة في ذلك القرآن الكريم، وأشعار العرب مرجعيّة لها.

---

1)– النقد الأدبي، وك. مزاتن، ك. بروكسن، ص ج103/1.

2)– أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هلموت ريتر، دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص: 25.

3)– المرجع نفسه، ص: 26.

أمّا السكّاكي فإنّه يعرف البلاغة بقوله: «هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقّها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها أعني البلاغة طرفان: أعلى وأسفل، متباينان تباينا لا يتراءى لهما نارهما، وبينهما مراتب تكاد تفوق الحصر...»(1).

وبهذا المعنى فإن بلاغة السكاكي تجمع بين خواص تراكيب الكلام، ومراعاته لمقتضى الحال، وأوجه الاستحسان وبين مطابقة الكلام لقصْده ومراعاته لوضوح الدلالة.

وإذا كان السكاكي قد ذهب في كتابه «مفتاح العلوم» إلى حدّ تقعيد وترتيب علوم البلاغة ترتيبًا يكاد يكون نهائيا، فإنه يرى أنّ الفصاحة قسمان: أحدهما راجع إلى المعنى؛ وهو خلوص الكلام من التقعيد، والثاني راجع إلى اللّفظ؛ وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة تجري على قوانين اللّغة وتكون سليمة عن التنافر(2).

واعتمادا على ما ذهب إليه البلاغيون العرب من تعريفات وأبحاث حول البلاغة استنتج «أدونيس» أنّ «البلاغة تهدف إلى أمرين؛ الوضوح (الارتجال) والتأثير (النفع)»(3).

وانطلاقا من هذا الاستنتاج يبدو جليّا أن البلاغة قد أخذت هنا كمحدّد أساس للخطابة، لأن الخطابة تخاطب جمهورا معينا، ومن ثمّ حاجتها

---

1)– مفتاح العلوم، محمد بن علي السكاكي، ضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص: 415– 416.

2)– المرجع نفسه، ص: 416.

3)– الثابت والمتحول، أدونيس، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، ط2، 1979، ج3/133.

للبلاغة لإقناعه والتأثير فيه. فالتأثير والاستمالة يتطلبان الإبانة والوضوح وأساليب الإقناع، ومن هذا نفهم أنه يجب الإقرار بوجود حجاج بلاغي يجد عناصره الأساسية في المعاني البلاغية كأدوات إقناعية؛ مثل الشاهد والاستشهاد والحجة والدليل والاستدلال...[1].

وبهذا الصدد يرى الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» بأن الشاهد عنصر من عناصر الحجاج والإقناع؛ كما أنه مرادف للحجّة والدليل والبرهان، وبناءً على هذا فإن للحجاج دلالة بيانية وبلاغية وكذلك له حمولة عقلية ومعنوية؛ إذ به يحصل التصديق والاستدلال والخبر والبرهنة على صدقه[2].

ومن هذا المنظور، اعتبر الحجاج البلاغي القائم على الشواهد دعامة لإرساء الحقائق وبناء صرح العلم عند كلّ من الجاحظ، وكل من نهج نهجه؛ وهكذا يؤكد الجاحظ أنّ «مدار العلم على الشاهد والمثل... «[3].

ولعلّ الجاحظ يكون قد استمدّ دور الشاهد والمثل من عادة العرب في هذا الميدان، وهو لهذا كثيرا ما كان يجعل من الحجّة والدليل والشاهد أشياء مترادفة ومتطابقة، وفي هذا يقول: «وكان المقنع الكندي الشاعر واسمه محمّد ابن عمير، كان الدهر مقنعاً، والإقناع سِمةُ الرؤساءِ والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أنّ رسول الله ﷺ كان لا يكاد يُرى إلاّ مقنعاً»[4].

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 109.

2)- المرجع نفسه، ص: 09.

3)- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر ودار الجيل، بيروت، المجلد الأول، ص: 171.

4- البيان والتبيين، ج103/1.

ويدعم الجاحظ قوله هذا بقول آخر ليؤكد أنّ الدليل والحجّة متمـــثلان في أقوال يُستدلّ بها، لا يَطالها الشك؛ لأنّ «الدليل الواضح والشاهد القاطع، قول النبيّ ﷺ: نصرت بالصّبا وأعطيت جوامع الكَلم، وهو القليـــل الجـــامع للكثير»[1].

ولعلّ هذا الترادف والتطابق الحاصل بين الحجّة والبرهان والشاهد والدليل هو الذي جعل القواميس العربية لا تميّز بين هذه المفردات دلاليا ووظيفيّا.

أما أرسطو، فإن الشاهد عنده يتمثل في القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء، ويختص إجمالا بالخطابة القضائية ومنها في الخطابة العربيـــة تضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر والأمثال والحكـــم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليهـــا وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارهـــا وتوجيههـــا إلى الغـــرض المرصودة للاستدلال عليه»[2].

جاء في البيان والتبيين: «وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطـــوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلاّ أن تكون إلى الخلفاء»[3]، وقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثل بالشعر في خطبهم وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية»[4].

---

1)- البيان والتبيين، ج29/1.

2)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط1، ص: 65.

3)- البيان والتبيين، ج118/1.

4)- الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعـــارف مـــصر، 1969، ص:198.

وكان صالح المري القاص العابد البليغ كثيرا ما ينـــشد في قصـــصه وفي مواعظه هذا البيت[1].

نبات يُرَوِّي أصولَ الفَسيل
فعَاشَ الفسيل ومَاتَ الرّجلُ

وأنشد الحسن البصري في مجلسه في قصصه وفي مواعظه[2]:

ليس من مات فاستراح بميّتٍ
إنّما الميت ميـــت الأحيـــاءِ

وكان العرب «يستحسنون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمـــع آي من القرآن الكريم، فإن ذلك ممّا يورث الكلام البهاءِ والوقار والرقة، وسلس الموقع»[3]، ويستشهد الجاحظ على كلامه هذا بعمران بن حطان الذي خطب خطبة أعجب بها الناس، ثم إنّه مرّ ببعض المجالس فسمع «رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن»[4].

وإذا كان الحجاج البلاغي قد تجاوز نطاقه الخطابي ليجد مكانته في علـــوم أخرى، فإنّه لم يتخلّ عن خصائصه المتمثلة في كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشـــباع مـــشاعره وفكره معاً حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة/ الخطاب[5].

---

1)- جمهر خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، ج396/3.

2)- المرجع نفسه، ج398/3.

3)- البيان والتبيين، ج118/1.

4)- المرجع نفسه، ص: 118.

5)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

وعلى هذا الأساس، فإن الحجاج البلاغي هو حجاج موجه للقلب والعقل معًا، إذ يجمع بين المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البيانية.

وواضح جدّا أن أساليب الحجاج البلاغية تتميّز بمعايير أدبية وجمالية، الأمر الذي جعلها تمتدّ إلى كلّ أنشطة (اللّغة والقول وبهذا الصدد يقول «ميشال مايير» (M.Meyer): «إن كل شيء قد أضحى «تواصلا» من الصداقة إلى الحبّ، ومن السياسة إلى الاقتصاد، حيث نجد العلاقات تقام وتفسخ بناءً على فشل أو نجاح البلاغة»[1].

ومن هذا القول نستخلص أنّ وراء كل حجاج بلاغة، ووراء كل بلاغة حجاج؛ لأنّ مدار ذلك هو الإغراء والاستغواء قصد الإمتاع والإقناع.

يقول حبيب أعراب: «إنّ البلاغة هي قبل كل شيء عتاد بنائي وتبليغي يتوسّله الخطيب أو القائل عموماً، لغرض موضوعه أو رأيه أو قناعته؛ ولأجل كسب تأييد الآخر أو التأثير فيه. إلاّ أن الصور البيانية والحيل المجازية واللّغوية (فن القول) وحدها لا تحقق التصديق والتدليل ما لم تستند بأدوات ترجيح الرأي وتسويغه عقليا، وهذه الأدوات هي التي يُوفّرها الحجاج أو المحاجة»[2].

ونفهم منذ هذا، أنّ البلاغة قد تؤثّر وتستميل وتمتع ولكنّها قد لا تقنع وتفحم معاً، ما لم تتلاحم مع الحجج والمحاجة وإذا كانت «جاكلين روس» (Jacqueline Russ) تعتقد أن «الصور البلاغية عي عملية أسلوبية تنشط

1)– Questions de rhétorique, Langage, Raison et séduction, Meyer Michel, Librairie générale, Française, Paris, 1993, p: 07.

2)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

الخطاب ولها وظيفة إقناعية»[1] فإنّ الباحث حسب إعراب يرى أن «هـــذه الصّور على الرغم من أهميتها لا تستطيع أن تصمد أمام العقل النّفاذ، والشك الوقاد ما لم تكن مدعومة عضويا بالحجج العقلية التي تخضع هي بدورها لمعيار الضعف والقوة»[2].

وهو لهذا يقول: «أن الحجاج البلاغي يبني ويسوغ الـــرأي الـــصائب والصادق، أما الأسلوب البلاغي فهو يعرض هذا الحجاج وموضوعه في صور وتقنيات تقتضيها جمالية الإيصال والتلقي»[3].

وإذا كانت البلاغة تمثل إمبراطورية واسعة على حدّ تعبير «ش.بيريلمان» فإن الأساليب الحجاجية ماهي إلاّ رافد من روافد هذه الإمبراطورية؛ لذلك لا يجوز إطلاقا اختزال البلاغة سواء كفنّ الكلام والقول أو كمباحث ودراسات في مفهوم الحجاج والمحاجة (البلاغية)[4].

نستنتج من هذا الرأي، أن هناك صنفا من الحجج خاضـــعاً في بنائـــه وترتيبه لقواعد البلاغة والبيان، يتّسم بالسمات التالية[5]:

– اندماجه عضويا بالخطابة في شكلها المكتوب والمنطوق.

– اشتراطه لرغبتين هما؛ إرادة المتكلم (المؤثر والمقنـــع) وإرادة المتلقـــي (المتأثر والمقتنع).

---

1)– Les méthodes en philosophie, Russ Jacqueline, Ed Armand colin, Paris, 1992, P. 55-58.

2)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

3)– المرجع نفسه، ص: 111.

4)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 110.

– خضوع حججه للتراتبية والتنظيم: القوّة، الضعف، البدء، الختم، الإبطال، الإثبات،...

– اشتماله على البعد الإستدلالي والبعد الإمتاعي أو الجمع بين البيان والبديع.

– عدم قابليته للقولية والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية.

– أهداف الحجاج في الخطاب البلاغي: يمكن اختصار هذه الأهداف في العناصر التالية:

– التأثير في المتلقي (السامع أو القارئ) وجعله يتقاسم مع المخاطب اعتقاده واقتناعه الخاص.

– التأثير في المتلقي لجعله يقوم بالفعل الذي يطلبه ويريده المخاطب.

– استمالة وإغراء المتلقي باعتباره ذهناً وعاطفةً (عقلا وقلبا) لكسب تأييده وتوافقه الضمني أو الصّريح.

وبناء على سمات الحجاج وأهدافه؛ فإن الحجاج سواء كان استدلالاً أو سجالا في الحقول التواصلية والمعرفية الأخرى؛ مثل: السياسة والقضاء والفلسفة، لن يتخلّص كلية من رواسبه البلاغية والخطابية، فالحجاج الذي يتغذّى من اللّغة الطبيعية وهاجس الإقناع والتأثير سيظلّ دائما محتفظا بقدر معيّن من البلاغة والخطابة[1].

وقد لا نبالغ إذا قلنا: إنّ اللّغة الطبيعية باستثناء لغة الرمز والدلالات الواحدة تنزع من تلقاء نفسها إلى الإغراء وهذا ما يؤكده «ج.بوديار»

1)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 111.

من أن «الإغراء هو أمر بدائي في اللّغة في كلّ خطاب يتواطأ في هذا الاستمتاع، وفي هذا الانحراف الإغرائي، وإذا لم يفعل ذلك بنفسه، فإن هناك من سيفعله مكانه»[1].

ولكن هذا الرأي نفسه قد تعرض للنقد على اعتبار أن أطروحة (ماير وديكرو) التي اعتبرت الحجاج خاصية مباطنة لكل خطاب لغوي، لم تراع في تعليلاتها الفروق الواضحة بين الأداء الشفاهي، والأداء الكتابي، بين الاستعمال التواصلي العفوي والحي للغة وحجاجها، وبين الاستعمال التقني والمدروس لهذه اللّغة[2].

ونظرا لتداخل الأبعاد التداولية واللسانية والبلاغية والأسلوبية والسيميوطيقيّة، فإنّ أوضاع الحجج تتشابك وظائفها وأماراتها تتعقّد، خاصة في الخطاب الشفاهي؛ الذي كثيرا ما يتعرض إلى التشوّه والتفكك، ممّا تنعكس آثاره على اتساقيته وبنائه، كما على ضوابطه ومساراته الحجاجية.

ب–5– الحجاج في القضاء: يفترض «ش.بيريلمان» أن الحجاج يغطي كل مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع، مهما كان المتلقي ومهما كانت الطريقة المتبعة[3].

ويعد القضاء أحد المجالات التي تستدعي الحجاج والحجة، والمقصود بهذا القضاء، هو ذلك القضاء الذي يتم فيه إصدار الأحكام من قبل القضاة.

---

1)– Questions de rhétorique, Langage- Raison et séduction, P: 125.

2)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 111.

3)– Question de rhétorique, Langage, Raison et séduction, P: 125.

- مسوّغات الحجاج القضائي وأهم مميّزاته: يتميّز مجال المرافعة والمداولة في النشاط القضائي بالسجالات والتأويلات والمحاكمات، وتتدخل في هذا المجال أطراف أساسية هي: القاضي والمحامي، والمدّعي العام،...، وحتى تأخذ الأحكام الصادرة عن القضاة صبغة شرعية عادلة يفسح المجال -غالبا- لخطابة الإقناع والتبرير؛ لأنّ المرافعة هي قبل كل شيء خطابة ومحاجة، والمداولة هي الأخرى تبرير وحجاج[1].

وقد صنف أرسطو أنواع الخطابة، معتمدا في تصنيفه ذلك على حال المتلقي الذي اعتبره حكماً، ثم نظر بعد ذلك إلى القضايا المحكوم فيها[2]، ونصّ كلامه في ذلك حسب الترجمة العربية كالآتي:

«أنواع الريطورية ثلاثة عداداً، وكذلك يوجد السامعون للكلام، والكلام نفسه مركب من ثلاثة؛ من القائل، ومن المقول فيه ومن الذي إليه القول، والغاية إنّما هي نحو هذا، أعني السامع، فالسامع لا محالة إمّا نظّار وإمّا حاكم، والحاكم إمّا في المستقبلات كرئيس الجمع والذي يحكم في اللاتي. قد كفّ كالقاضي، وأما الناظر فللقوّة، فمن الاضطراري أن يكون الكلام الريطوري ثلاثة أجناس؛ مشوري، ومشاعري، ومثبتي»[3].

ومن هذا النص نفهم أن «أرسطو» قد ميّز بين الخطابة الاستشارية، والخطابة القضائية والخطابة الاحتفالية، ولهذا يمكن القول: إنّ الحجاج القضائي هو حال كذلك في الخطابة القضائية التي تتميّز بمقامها وحالها وبحججها وأقيستها.

---

1)- المقال الحجاجي والاستدلال الحجاجي، ص: 112.

2)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط1، ص: 33.

3)- الخطابة، أرسطو، ص: 17.

وتختصّ الخطابة القضائية -إجمالا- عند أرسطو من القوانين، والشهود والاعترافات، وأقوال الحكماء، ولذلك تعدّ حججًا جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها، وتواترها وتدخّل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه[1].كما سبق الذكر.

أما القياس الخطابي الذي يجسده الحجاج القضائي، فهو ذلك القياس القائم على الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور، ولعلّ الداعي إلى هذا القياس (القياس المضمر) هو ضرورة التبرؤ من التهمة بالاحتجاج والأدلة المقنعة؛ لأن القضايا القضائية تعدّ بمثابة مشاكل تحتاج إلى حلول، تصاغ في شكل أحكام وقرارات.

وبمجرّد ما تطرح المشكلة، فإمكانية الرأي المعارض وإمكانية النقاش تصاحب هذا الطرح،... عندما تعالج مشكلة ما في سياق معين تصبح الحجّة هي الجواب المصاحب للنتيجة «الحل» على حدّ تعبير ميشال مايير[2].

والواقع إن كل ما يواجه الناس أفراداً وجماعات من مشاكل يضطرهم إلى الاستعانة على الأقل بأداتين لمحاولة حل هذا المشاكل، وهاتان الأداتان هما: اللّغة والسؤال أي التحاور[3].

ولأن المرافعات والمداولات القضائية تقوم على التحاور يمكننا القول: إن القضاء وأحكامه تشكل مجالا خصبا للتدليل والحجّة، وفق قوانين هذا الحقل وضوابطه.

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، ص: 65.

2)− Logique, Langage et argumentation, M. Meyer, P: 137.

3)- المقال الحجاجي والاستدلال الحجاجي، ص: 113.

وإذا كان إصدار الحكم من اختصاص القاضي أو الهيئة القضائية، فإن المحامي المكلف بالدفاع عن قضية ما، مضطر للبحث عن القرائن والحجج القوية والمقنعة للتأثير على قرار القاضي قبل الشروع في المداولة التي تشكل إطاراً للتحاور ولفحص الحجج والاستنباطات وتبرير الحكم الصادر تبريراً قانونيا ومنطقيا(1).

ومعلوم أن المداولة لا تتم إلاّ بعد استماع القاضي أو لجنة القضاة إلى تصريحات أطراف النزاع، وإلى رأي المدّعي العام، وكذا إلى آراء الشهود والمحامي، ولكن على الرغم من أن تلك الأحكام والقرارات الصادرة عن القضاة بعد المداولة، تكون نتيجة لقياس واستدلال حجاجي تظلّ احتمالية وترجيحية قابلة للطعن والاستئناف.

وجدير بالذكر، أنّ الحجاج القضائي يستعمل عدّة عمليات عقلية ومنطقية (قياس، استنباط، استنتاج،...) ممّا يوحي بوجود «منطق حجاجي»، ولكن لا يمكن في أيّ حال من الأحوال الإدّعاء بوجود «منطق قضائي خالص» وذلك أنّ أصالة تدخلات القاضي والمحامي لا تكمن في القياس والاستنباط بل في إقامة المقدمات وتأولها، ويتم هذا على صعيد القضية الكبرى أولا، ثم على صعيد الوقائع والمعطيات(2).

ثم إنّ أي تفكير قد يكون معقولا ومنطقيا دون أن يخضع بالضرورة لقواعد المنطق أو البرهان وشكلانيته مادام الأمر يتعلق بحجج وأدلة تفسيرية أو تبريرية مصدرها وجهة نظر معينة(3).

---

1)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 113.

2)– Le raisommement, Robert Blanché, p.u.f, Paris, 1973, P : 236.

3)– المرجع نفسه، ص: 239.

وحسب وجهة نظر أرسطو، فالقاضي لا يقيس ويستنبط صوريّا، وإلاّ كان منتجاً للحقيقة واليقين، كما أنّه لا يجادل ويحتج ليقنع ويمتع، وإلاّ كان خطيبا عموميا؛ إن القاضي يختار القوانين التي يراها ملائمة للحالة أو النازلة المفحوصة ثم يقوم بتأويل تلك القوانين في اتجاه تبرير الحكم تبريرا مدعما بالحجج المتماسكة(1).

صحيح أن القاضي لا يستنبط نتائجه من مقدمات يقينية، ولكنه يقوم بتمحيص ما يقدم من معطيات ووقائع، ثم يربطها ربطا حجاجيا بالقواعد والمتون الحجاجية، أما الحكم أو القرار النهائي فهو نتيجة لتحكيم الضمير وأعمال التبرير المعقول والمقبول معاً(2).

ومن هذا التحليل، نستخلص أن الحجاج القضائي يجمع بين نوعين من الحجاج: هما الحجاج الخطابي والحجاج الفلسفي فمن جهة يجمع بين الإقناع والتأثير، ومن جهة أخرى يجمع بين الحجة العقلية والمنطق مستعينا في ذلك بالصرامة المنطقية اللّفظية والإقناعية البلاغية.

وفي هذا الاتجاه، يقول «ج.إزار» (G. Izard) أحد المحامين الغربيّين المشهورين: «إنّ الهدف من الدفاع هو الإقناع وقاعدته العليا هي الوضوح، ومثل الدفاع هو إنشاء تسلسل في غاية الوضوح، وتناسق منطقي جيّد: إنشاء فحص ودحض متكامل للاعتراضات حتى يستطيع هذا التيار المتسلسل في ذهن القاضي، ولا يترك أي مجال لرأي مضاد، ولا يجب للأسلوب أن يلفّ ويدور كيفما اتفق ذلك، فالصيغ الجيدة هي التي تلخص وتكثّف وتلم

1)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 114.

2)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 114.

بمجموع البراهين في جمل وكلمات مختصرة»[1].

ولعلّ المتتبع لهذا الكلام، يستنبط أنّ المحامي يستعمل في دفاعه عن المتهم حجاجا خطابيا (بيانيا) ومنطقيا في الآن ذاته؛ فهو يجمع بين كل من التعليل والتصديق والإقناع ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن تنزل تلك الحجج والبراهين القضوية إلى مستوى الصور البيانية والبلاغية المقيدة بالمنحى الجمالي والإمتاعي؛ لأن الحجاج القضائي يستدعي الصدق والصلاحية على أشكال الإدّعاء والتبرير والحكم وفق ما تنطوي عليه القوانين والمساطير القضائية.

ب-6- الحجاج والفقه: يستلهم القضاء تشريعاته من المحاجة الفقهية وهذه المحاجة استنباطية وتقديرية فقط، وليست برهانية يقينية[2]، وعلى حدّ تعبير «الفارابي» فإنّ صياغة الفقه هي التي يقتدر بها الإنسان على أن يستنبط تقرير شيء ممّا لم يصرّح واضع الشريعة بتحديده على الأشياء التي صرّح فيها بالتحديد والتقدير، وأن يتحرّى تصحيح ذلك حسب عرض واضع الشريعة بالملة التي شرعها في الأمّة التي لها شرع»[3].

وإذا كان الفارابي يشير إلى نوع من استنباط المجهول من المعلوم، فإن محاولة تأسيس الشريعة والفقه الإسلاميين عند ابن رشد تقوم على الاستدلال والبرهان، بدل الجدل والحجاج الكلاميين، وهذا ما عبّر عنه بقوله: «إنّ هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدْعة، إذ لم يكن في الصدر الأوّل، فإنّ

---

1)- Le Raisonnement, R-B, P: 136.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 114.

3)- إحصاء العلوم، أبو نصر الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق: عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص: 107.

النّظر أيضا في القياس الفقهي وأنواعه هو شيء استنبط بعد الصدر الأوّل، ولا يرى أنّه بدعة، فكذلك يجب أن تعتقد في النظر في القياس العقلي»[1].

نفهم من وجهة نظر ابن رشيد أنّه يرى في «البرهان العقلي» والتأويل اليقيني» أصدق السبل لاستنباط الأحكام والحقائق الشرعية[2].

مقنعا في اعتقاده هذا أن البرهان كأداة للعلم واليقين بدل الحجاج المفضي إلى الشك[3].

ولكن القياس الفقهي مهما أريد له أن يكون قائما على الاستنباط والاستقراء المنطقيين فإنه بحكم ثوابت الفقه وحقل بنائه، وتداوله لن يكون إلاّ نشاطا جدليا حجاجيا وبلاغيا معياريا.

ب–7– الحجاج والفلسفة: إذا كان الحجاج قد لقي مكانته في الحقول السابقة فإنه لم يعدمها كذلك في الحقل الفلسفي، على الرغم من أنّ تلك الممارسات والاستدلالات في الفلسفة ليست مقصودة لذاتها وإنّما هي مبرّرة بغايات بعضها تعليمية وعقلية (إقناعية، حوارية،...) وبعضها منهجية وفكرية (مجالية، جدلية تحليلية، نقدية،...) وكل ذلك في ارتباط عضوي مع ما تتطلبه روح التفلسف[4].

---

1)– فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص:25.

2)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 115.

3)– المرجع نفسه، ص: 115.

4)– المرجع نفسه، ص: 116.

وروح الفلسفة كما هو معلوم، تتطلب وضع الإشكالات فلسفيا ومعالجتها معالجة «تمفهم» اللّغة وتشييد الأطروحات والمواقف والمنظورات تشييعاً، عمادُهُ الحجج والاستدلالات اللّفظية[1].

وبناءً على ما تقدم ذكره، فإن الفلسفة هي خطاب العقل والمعقولية؛ لذلك يعدّ الحجاج بعدا جوهريا في الفلسفة، ثم أننا نجد وثوقيي العقلانية الفلسفية يرون أنّ خطاب الفلسفة هو خطاب الدليل والبرهان، لا خطاب الحجة والبيّنة[2].

نفهم من هذا أنّ الأمر يتعلق هنا بقضية الإيمان والاعتقاد، إذ يتوجّب على المعتقد إقناع الآخر بالحجّة والحجج لكي يتقوى إيمانه، وبهذا الصدد يقول «هبير قرينيي» (H. Grainier): «عندما أعمل على الإقناع فإنّي أرغب في اقتسام اعتقادي مع الآخرين علماً بأنّ التفكير عندي، يعني التفكير مثلي»[3].

وبالتالي فإن غاية الفلسفة عند هؤلاء هي البحث عن الحقيقة، ولكن تفكير الحقيقة هو تفكير الدليل والبرهان، لا تفكير الحجاج والتعليل[4]، لأن الحقيقة التي تتغياها الفلسفة بحاجة إلى حجّة قاطعة لا إلى مجرّد الحجة العادية.

ولكن وعلى الرغم من معقولية الفلسفة وعقلانيتها البادية؛ فهي مدينة بالكثير للّغة الطبيعية، وما تمجّ به هذه الأخيرة من استعارات والتباسات.

---

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 116.

3)- La Connaissance philosophique, Grenier Hubert, Ed Masson et Cie Parie, 1973, P: 148.

4)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 116.

وصفوة القول: إنّ الخطاب الفلسفي هو خطاب برهاني، ولكنه برهاني بالمعنى «المجازي» أو الشبيهي للبرهان لا بالمعنى الحرفي الدقيق له.

– **علاقة البرهان بالحجاج الفلسفي:** إن الحجاج الفلسفي يستلزم التصديق أكثر ممّا يستلزم التقرير أو الإقناع والإمتاع المباشر، غير أنّ المولعين بالوجه البرهاني لم يفصلوا بين الافتتان بهذا البرهان وبين الاهتداء بمبادئه وملامحه.

فالفلسفة باعتبارها أقوالا وخطابات تستدلّ بالحجّة لا بالبرهان أو الدليل؛ لأنّ البرهان محكوم بمعيار الصحّة والخطأ وذلك بناء على صحّة نتائجه وكفايتها الذاتية ومعنى هذا أنّ نتائجه لا تحتاج إلى دعم أو تقوية خارجية.

أمّا صدق البرهان فهو صدق قضاياه؛ لذا فإنّ قيمة البرهان لا تقاس برأي أو موقف لأن هذه القيمة مباطنة له والصدق الداخلي في البرهان وقابليته الرمزية (تحرّره من لبس الدلالة والتأويل) تجعله أنسب لقضايا المنطق والرياضيات دون غيرهما[1].

أمّا الاستدلال الحجاجي فهو لا يملك إلزامية وصرامة البرهان ولا موضوعية وقوة الدليل؛ لأن صلاحية الحجاج الفلسفي تقاس بمعايير خارجية، أي بمعايير قوته أو ضعفه، كفايته أو عدم كفايته، نجاحه أو فشله في الإقناع[2].

إذا، فغاية الحجاج ليست هي الصواب أو الخطأ بل التأثير والتقبل؛ لذا نجد من يذهب بالقول إلى أنّ: «مضامين الخطابات الفلسفية لا يمكن اختزالها في خطابات وأنسقة منطقية وكل محاولة في هذا الاتجاه هي مجرّد وهم[3].

1)– Le raisonnement, Robert Blanche, P: 223.

2)– المرجع نفسه، ص: 223.

3)– Pour la connaissance philosophique, Gillée Gaston Granger, Edition Odile Jacob, Paris, 1988, P: 211.

وذلك أن الباحث يتعامل مع تماسك مسارات المفاهيم، لا أمام تماسك القضايا المنطقية.

ومن منظور «ج.غ.غرانجر» (G.G.Granger) فإن البرهان مفهوم «**رخو**» والذي يجعل منه برهانا «**مرنا رخوا**» هو كونه عبارة عن نشاط خطابي لا يخلو من بلاغة وبراعة أسلوبية[1].

وانطلاقا من هذا المنظور، فإننا أمام نوعين من البرهان: البرهان الحقيقي، والبرهان الفلسفي أو كما يسمّى بالحجاج الفلسفي فإذا كان البرهان الأوّل مجاله المنطق والرياضيان، فالثاني مجاله الأطروحات والمفاهيم والإشكالات التي لا يمكن أن تختزل في قواعد بنائية أو علاقات رمزية وحيدة الدلالة[2].

ونستنبط من هذا نتائج البرهان الأوّل لا يمكن أن تكون هي نفسها التي ننتظرها من الحجاج الفلسفي، فالبرهان معناه اليقين والصدق، والدليل معناه التحقق والموضوعية.

واعتمادا على هذا التباين بين البرهانين يذهب «ج.غ.غرانجر» إلى الاعتقاد بأن خصوصية الاستدلال الحجاجي العقلي الفلسفي لا تكمن في «**البرهنة**» بل في «**الإظهار**» أو ربما «**الوصف**»[3].

ولكن هذا الاعتقاد قد تعرّض للنقد؛ لأن «**المعرفة**» الفلسفية لا يمكنها أن تتخلّص من «**البرهان**» الجاف، كما لا تكتفي بمجرّد «**الإظهار**» و«**الوصف**».

1)− Pour la connaissance philosophique, Gillée Gaston Granger, Edition Odile Jacob, Paris, 1988, P: 211

2)− مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 117.

3)− Pour la connaissance philosophique- G.G.Granger- P: 214.

وانطلاقا من هذا النقد، نستنتج أنه لا يمكن المفاضلة كذلك بين الفلسفة والمنطق أو العلم؛ ذلك، أنه مهما حاولت الأنساق البرهانية أو الاستدلالات العقلية أن تبتعد عن نموذج النسق اللّغوي أو المعقولية اللفظية، فإنّ هذه الأخيرة تبقى هي المرجعية الأولى لاشتغال العقل وعملياته، وهي الأكثر شيوعاً رمزيّاً وتواصليّاً[1].

وبهذا نستخلص أنّ الفلسفة تستدلّ عقليا بالحجج اللّفظية والخطابية، وتحلل الأفكار بالأفكار، لكنها لا تستدل بالبرهان القطعي القضوي المنمط الدلالة كما لا تستدل بالدليل الواقعي الموضوعي الذي يؤسس القوانين[2].

وهكذا فإن الحجاج الفلسفي هو تفكير أو «**معرفة**» على الطريقة الفلسفية، ولكن ماذا عن الجدل والحوار داخل هذا الحجاج؟

- **الحجاج الفلسفي وقضية الجدل والحوار**: لا يمكن بأي حال من الأحوال نسيان أن الفلسفة كانت في أصلها جدلا ومناقشة، قبل أن تصبح أنساقاً ومتوناً وقبل أن تتعدّد مذاهبها ومسالكها واتجاهاتها.

فالفلسفة الأولى (الابتدائية) كانت خطابا عقليا لفظيا؛ أدواته الحجج العقلية والاستدلالات العقلية الكلامية، في مواجهة خطاب الاعتقاد الأسطوري الذي لا يفسّر ولا يقنع، بل يتخيّل ويسود وينغرس في الوجدان والمشاعر الفردية والجماعية[3].

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 118.

2)- المرجع نفسه، ص: 118.

3)- التفكير الفلسفي، إعداد وترجمة: عبد السلام بنعبد العالي ومحمد سبيلا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987، ج1/17.

ولعلّ الدارس لتاريخ الفلسفة يكتشف أن تلك الفلسفة كانت قائمة على الجدل والحجة، وخير دليل على ذلك تلك «**الحقيقة**» التي لطالما مجّدها «**أفلاطون**»، وذلك «**العلم**» الذي شيّده وبناه «**أرسطو**».

واعتبارا من هذا، فلا أحد يمكنه أن ينكر ذلك البعد الجدلي والحواري الذي مارسه الفلاسفة الأوائل؛ لذا يمكن القول: إنّ الحجاج الفلسفي لا ينجلي وينقشع إلاّ مع ممارسة الجدل العقلي والفكري بمعناه التداولي، لا بمعناه المذهبي أو الديماغوجي(1).

وإذا كان الاستدلال الحجاجي الفلسفي لم يرتبط بالبراهين أو الحسابات الصورية، فلأنّ طبيعة هذا الاستدلال ترتبط بالجدل والمناقشة والمواجهة بالكلام بين المواقف أو الأطروحات.

ومادام منطلق هذا الاستدلال هو الأطروحة (الموقف) فإنّ على هذه الأخيرة أن تأخذ بعين الاعتبار كل الاستجابات العقلية ممّا يدعو إلى بسط هذا الموقف في مشهد فكري حواري جدلي.

وفي هذا الاتجاه لاحظ «ر.بلانشي» (R.Blanché) أنّه عندما يعرض فيلسوف ما فكرته فهو يفعل ذلك -غالبا- عبر الحجاج، إنّه يتمسّك بأطروحته ويدافع عنها؛ لكن هذه الأطروحة ليست مجانية؛ بل يكون قد توصل إليها بعد تأمّل طويل(2).

وفحوى هذه الملاحظة أنّ الحوار والجدل يمثلان أرضية خصبة لاستنبات الاستدلال الحجاجي الفلسفي، وكذا لمناقشة الأفكار أو الدعاوي. ثمّ إنّ

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 119.

2)- Le Raisonnement, R. Blanché, P: 230.

تفكير الفيلسوف وما ينطوي عليه من حوارية وجدل سيضطرّانه حتْماً إلى صوغ أطروحته في شكل أحكام وجمل تؤكّد أو تنفي(1).

ولكن هذه الجمل قد تسبقها أو ترافقها أو تعقبها جملة من الحجج هي أيضا أفكار وقضايا لفظية، ممّا يشكل نسقا من الأفكار والمعاني التي تأخذ الواحدة منها برقبة الأخرى، لتشكل في النهاية خطابا عقليا متماسكاً.

لذا فما من قارئ لنصوص الفلاسفة إلاّ ويتملكه شعور قويّ إزاء ما تكتنفه هذه النصوص من إرادة عميقة في إشراك الآخر بخصوصيته أو كونيته كمنصت متّفق أو محاور مخالف(2).

ولأنّ الفلسفة تنبذ العنف والإكراه، ولأنّ اللاّعنف هو نقطة بدايتها، ولأنّه هو غايتها القصوى، ولأجل تحقيق تلك الغاية النبيلة فليس هناك أنبل من وسيلة غير وسيلة خطاب المناقشة والحجاج والإقناع(3). ممّا يوحي لنا بأن الفلسفة كانت في الطريقة المثلى لطرح المشاكل، والبحث عن الحلول عقلياً، ولنا قدوة في «أفلاطون» الذي جعل المحاورة وسيطا خطابيا لعرضه أفكاره الفلسفية.

ونخلص في النهاية إلى أنّ ذلك الترابط بين الفعالية الجدلية- الحوارية، والفعالية الاستدلالية الحجاجية يشكل ما يسمّى بالتناص؛ لأن المحاور حسب الباحث طه عبد الرحمن يدمج من نصّه نصوصا مغايرة سابقة، مماثلة أو مباينة (...) ليصطبغ نصه بصبغة المغايرة الصميمية(4). الأمر الذي يوحي بوجود

---

1)- الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 120.

2)- المرجع نفسه، ص: 120.

3)- المرجع نفسه، ص: 121.

4)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ص: 42.

جدلية الأخذ والرّفض.

- **علاقة الحجاج الفلسفي بالبلاغة:** كنا قد ألمحنا إلى أنّ الخطابة تلجأ إلى الحجاج لغرض الإقناع العقلي والعاطفي معاً وذلك أنّ الحجاج البلاغي الذي يسم الخطابة منذ أن وجدت إلى الآن يعتبر إجراءا خطابيا استراتيجيا، إذا ما رام المتكلم التأثير في المخاطب واستمالته لأخذ قرار ما، أو اتخاذ موقف معيّن أو القيام بعمل ما، ولذلك فالصيغ الأسلوبية والصور الإستعارية والبيانية تعتبر من العناصر ذات الأهمية القصوى في عملية المحاجة الخطابية[1].

أمّا في الفلسفة كتفكير فإنّ بعديها العقلي والخطابي يتقاطعان ويتكاملان، وهذا أمر لاشكّ فيه، ومن هنا تستحيل هذه الفلسفة إلى «**خطابة**» فلسفية؛ لأن أفكار الفيلسوف ومعانيه لا تعرض عارية من متطلباتها اللّغوية والأسلوبية[2].

ولكن لابدّ من التنبيه إلى أنّ «**الخطابة**» الفلسفية وبلاغتها لا تهدف إلى تحقيق التأثير العاطفي ولا إلى توجيه سلوك المتلقي توجيها مباشرا وعمليا؛ ولكنها تسعى إلى جعل المتلقي يتقبل حقائقها متوسّلة في سعيها هذا إلى اللّغة وطاقاتها التواصلية والاستدلالية.

ومن أجل هذا بين ج.غ.غرانجر أنّ الخطابة الفلسفية تقوم بتوضيح الأوضاع اللسانية، وذلك باستعمال الحوار والاستفهامات العرضية (...) لتنشيط التفكير[3]. ملاحظ في الآن ذاته أنّ الخطابة الفلسفية تقوم ببنينة

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 122.

2)- المرجع نفسه، ص: 122.

3)- Pour la connaissance philosophique, P: 205.

وحدات الدلالة بحيث تعيد استعمال مضامين اللّغة المتداولة استعمالا فلسفيا، يلائم وضعية المفاهيم باعتماد الصور التشبيهيّة والاستعارية(1).

ويفهم بعض الباحثين من البلاغة الفلسفية تلك الصور المُعْتادة في الأداءات الأدبية والخطابية الصرفة، ولتجنب هذه المبالغة في مكانة البلاغة في الفلسفة، لابدّ من التنبيه إلى أنّ بلاغة الفيلسوف لا تشبه بلاغة الخطيب إلاّ في ملامحها العامّة، وليس في كيفية تدبيرها وفي مسوّغاتها وغاياتها(2).

وإذا كان التقاء الفلسفة مع الخطابة والبلاغة قد يحصل، إجمالا في نطاق الحجاج الفلسفي وضفافه فإن ذلك لا يبرّر الاندفاع إلى ربط علاقة التبعية بين الحجاج الفلسفي وبين صور البلاغة ومحسّناتها وإن كانت الباحثة «جاكلين روس» (J.Russ) قد أثنت على هذه المحسنات(3).

وبديهي أن تختلف بلاغة الفيلسوف عن بلاغة الخطيب لأن الفيلسوف يشبه، ويستعير، ويصف، ويمثل،... ليمفهم التصورات الأوّلية وليستشكل القضايا، أو ليجعل استدلالاته الحجاجية تصدر عن العقل دون أن تتجاهل متطلبات التلقي(4).

ولهذا لا نستغرب أن نجد الصور البلاغية وتحققاتها الأسلوبية تحظى بمنزلة كبيرة في النصوص الحجاجية من النوع الإشهاري والصحافي والإيديولوجي؛ ذلك أنها تستلهم بعض ملامح حجاجها من بلاغة الشعر والخطابة، وما تأثر

1)- المرجع نفسه، ص: 205- 206.

2)- Les méthodes en philosophie, P: 50-53.

3)- Ibid, P: 50-53.

4)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 122.

بهما من أجناس قولية أخرى والتي يندرج حجاجها ضمن دلالتها ومحتواها[1].

وإذا كان هناك من فرق بين حجاج بلاغة الفلسفة وحجاج البلاغة كبلاغة؛ فإن الفرق يكمن في كون حجاج بلاغة الفلسفة ليس مقصوداً لذاته ولا يقتضي دلالة حتمية، بينما يندرج حجاج بلاغة الشعر والخطابة ضمن نسيج ودلالة هذه الأقوال والكتابات[2].

وإذا أخذنا على سبيل المثال النص الشعري، فإنّ حاجته إلى التخييل والتصوير تولد بالضرورة حاجته إلى المجاز، وذلك لأغراض دلالية.

وهذا ما ذهب إليه إبراهيم خليل بالقول إنّ «الاستعارة تعمق المعنى عبر محور الاستبدال، وهو اختيار شيء لوضعه في موضع شيء آخر، في حين أن الكناية تعمق المعنى عبر خط آخر هو المجاورة، وكلاهما أي محور الاستبدال والمجاورة يؤثر في البعد الدلالي للنص الشعري»[3].

ومن منظور عبد الحق منصف فإنّه «لا يمكن التفكير في الاستعارة داخل الخطاب الفلسفي، بوصفها محسّنا بلاغيا، بل بوصفها مكوّناً داخليا من مكوناته (...) وربّما كانت إحدى ركائزه»[4].

---

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- المرجع نفسه، ص: 123.

3)- الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص: 98.

4)- مقال مفارقات الخطاب الفلسفي بين الاستعمال المفاهيمي للّغة والاستعمال الاستعاري، عبد الحق منصف، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد مزدوج 101/100، بيروت، 1993، ص: 70.

ولكن الفيلسوف لأجل من يستدل ويحاجج؟ ولمن يضرب الأمثال ويتساءل؟ ولماذا يثبت وينفي؟ ولماذا يستشهد ويلمح، يحلّل ويفسّر؟ إنّه يفعل ذلك ليقتسم ما يدور في فكره مع مخاطب مرئي أو محتمل.

وهكذا لم يكن «فرديرك نيتشه» (F. Nietzsche) بعيدا عن الرؤية الصائبة عندما قال: «كلما كانت الحقيقة التي تريد تعليمها أكثر تجريداً كلما وجب عليك أن تزيّنها لإغواء الحواس»[1].

ويقصد «فرديرك نيتشه» بالحقيقة تلك الحقيقة الفلسفية «**المجرّدة**» والتعليم الذي يمارسه صاحبه هو علاقة الأنا بالآخر. أمّا التزيين المطلوب فهو تزيين عماده البلاغة وأساليب اللّغة.

II-1-2- الاستدلال الحجاجي:

أ- مفهومه:

إنّ مفهوم «الاستدلال الحجاجي» -إن صح اعتباره مفهوما- هو مركب من قطبين: أحدهما هو «الاستدلال» وهو اسم معنى لكنه كلي. أمّا الثاني فهو «الحجاجي» وهو نعت يضمر مفهومي «الحجة» و«الحجاج»، لكن مفهوم «الحجاجي» بياء النسبة المشدّدة فيه هو ملحق على الاستدلال، وصفة تخصيصيّة له أيضا[2].

ولتجنّب أي لبس أو غموض لابدّ من القيام بالتوضيحات التالية:

---

1)- ما وراء الخير والنشر، فريديريك نيتشه، ترجمة: جزيلة فالور حجّار، بيروت، ط1، 1995، ص: 127.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 124.

أ–1– الجذر اللّغوي–البياني الاستدلالي: إن مفهوم الاستدلال من منظور العلماء والبلغاء العرب –عدا أهل المنطق والبرهان– كان يتم استقصاء القول فيه ضمن إطار علم البلاغة بفرعيها: علم المعاني وعلم البيان، ذلك أنّهم ميّزوا بين الاستدلال أو القياس المبني على «الحدّ» (المنطقي) وبين الاستدلال المبني على أسس بيانية (بلاغية، فقهية، نحوية،...)[1].

وهكذا فالاستدلال البياني هو ما يشكل دليلا أو دلالة بمعنى البيّنة أو الحجّة، كمعايير يحصل بها التبيين أو إظهار الحق وصدق الخبر، وفي المنظور العربي اللّغوي البلاغي نجد أن مفهوم الاستدلال يرادف القياس، وهو لذا لا يخرج عن حظيرة التشبيه والوصف والاستعارة[2].

وكنتيجة لما تقدم ذكره فإن الاستدلال ليس عملية عقلية استنباطية محضة، ولكن عملية «خطابية» بموجبها يتم اتخاذ علامة مادية أو معنوية لجعلها شاهدا ومثالا على شيء أو صفة من صفاته، ومن أجل ذلك لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة[3].

تلك الاستعارة التي عرفها عبد القاهر الجرجاني (ت.471هـ) بقوله: «... إنّها دلالة على حكم يثبت للّفظ، وهو نقله على الأصل اللّغوي، وإجراؤه على ما لم يوضع له، ثم إنّ هذا النقل يكون في الغالب من شبه بين ما نقل إليه وما نقل عنه»[4].

1)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص: 124.

4)– أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 220.

وانطلاقا من فهم الجرجاني للاستعارة وللحقيقة الإستعارية فإن الاستدلال تبعا لذلك يعتبر الكلمات والعبارات ذات المعاني الإستعارية أو التشبيهية يعتبرها دالة أو دليلا على معاني أخرى غير ظاهرة.

وفي هذا السياق يضرب لنا الجرجاني مثالاً يكمن في الهيئة التي يستدلّ بها على الأجناس كزيّ الملوك وزيّ السوقة. «فكما لو خلعت عن الرجل أثواب السوقة ونفيت عنه كلّ شيء يختصّ بالسوقة وألبسته زي الملوك فأبديته للناس في صورة الملوك حتى يتوهّموه ملكاً وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلاّ باختبار واستدلال من غير الظاهر كنت قد عرته هيئة الملك وزيّه على الحقيقة...»[1].

ومن هذا المثال نستخلص أن الصفة الظاهرة (الزي) تتطابق مع الاستدلال الاستعاري.

ومن منظور أهل البيان أعتبر القياس الذي هو صورة من الصور الأساسية للاستدلال إلى جانب الخبر من الوسائل التي يتوسلها العقل والبيان معاً ولإدراك الأمور في ظاهرها وباطنها، ولذلك فإنّ الاستدلال البياني هو نوع من «معرفة الغائب بالشاهد»، كما إنه يمثل إحدى طرق التصديق واليقين إلى جانب الخبر[2].

وبعد استقصاءِ محمد عابد الجابري «لعلاقة القياس بالبيان عند ابن وهب تبين له أنّ العقل والبيان متكاملان، وذلك من خلال أوجه أربعة هي: بيان اعتبار، وبيان الاعتقاد، وبيان العبارة، وبيان الكتاب[3].

1)- مرجع نفسه، ص: 300.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 125.

3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وهكذا فعندما نكون بصدد البحث عن معرفة باطن الأشـياء، وتكـون الحواس عاجزة عن إفادتنا بتلك المعرفة، وتكون العقول في ذلك غير متفقة، فإن حاجتنا ستكون كبيرة إلى أن نستدل على باطن تلك الأشياء بـضروب مـن الاستدلال، وبوجوه من المقاييس والأشكال والطريق إلى علم باطن الأشياء في ذاتها والوقوف على أحكامها ومعانيها من جنْسي القياس والخبر[1].

وفي نفس الاتجاه ألحق محمد بن علي السكاكي الاستدلال بالمعاني الـتي تحدّث عنها ابن وهب حيث جعله أي الاستدلال مكملا لعلم المعنى والبيـان وهو لذا يقول: «من تكملة علم المعاني في الاستدلال وهو إكـساب الخـبر للمبتدأ ونقيه عنه بواسطة تركيب جمل تنبيه على ما عليه أصحاب هذا النوع من إباء أن يسموا الجملة الواحدة حجة واستدلالاً...»[2].

ويكون السكاكي بذلك قد اجتثّ الاستدلال مـن صـرح المنطـق الصوري، لأنه جعل الاستدلال ضابطا للجمـل الخبريـة مـع العلـم أن المصطلحات الموظفة من قبل «الـسكاكي» منطقيـة لا نحويـة كالحـد، والاستدلال والدليل والحكم والاستقراء والاستلزام... في حـين أن حديثـه يدور حول الجمل الخبرية أو الشرطية أو المنفية.

وإذا كان السكاكي قد تناول الاستدلال تناولا جافاً، فإنّ «عبد القاهر الجرجاني» سلك في تحليله للقول مسلكا إبداعيا حيث أعطـى للمقـولات النحوية أبعاداً تداولية ومعاني جديدة ووظائف تأثيرية أو مؤثرة غير لك الـتي كرّرها وأطنب فيها كثير من النحاة القدامى والجدد على حدّ سواء[3].

---

1)– نقد العقل العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص: 29.

2)– مفتاح العلوم، ص: 438.

3)– إشكالات التواصل والحجاج، ص: 92.

وعلى ضوء ما سبق نلاحظ أنّ مفهوم الاستدلال وظّف توظيف عقليا ولكنه في أرضية معنوية استعارية أو معنوية تركيبية. وهو لذلك صار حجّة ودلالة عقلية بيانية ممّا جعله لا يخرج عن دائرته اللسانية-النحوية.

أ-2- الجذر العقلي-المنطقي للاستدلال: إنّ أوّل من أرسى قواعد المنطق الصوري في تحليلاته هو «أرسطو» لذا جرت العادة أن يحصر مفهوم الاستدلال في مجال المنطق، ولهذا فالاستدلال عند «أرسطو» هو تفكير عقلي بواسطته يتم إنتاج العلم، ولكن هذا الاستدلال لا ينطلق من الفراغ، بل من معارف سابقة أهمها المبادئ والتعريفات أو حتى مسلمات شائعة[1].

وبهذا الصدد أرجع «أرسطو» العمليتين الأساسيتين في العلوم: الاستقراء والاستنباط إلى الخطوات القياسية التي أنتجت البرهان وأنتجت بطريقة معكوسة الاستقراء[2]؛ ومن هنا كان المشتغلون اليونان في الحقل العلمي يتحدّثون عن البرهان لا عن القياس؛ لأن البرهان هو قياس الضرورة والاستقراء عكس ذلك[3].

ولكن ما لبث أن تمّ الاعتراف بالقياس خارج الميدان العلمي، في الاستدلال الجدلي والاستكشافي حيث استعيرت صورة القياس من البرهان لكي تكون أداة استدلال بواسطة عناصر اللّغة الطبيعية، وذلك لأن القواسم المشتركة بينهما جليّة يمكن أن يفهمها الجميع[4].

---

1)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 126.

2)- Le raisonnement Robert Blanché, P: 137.

3)- إشكالية التواصل والحجاج، ص: 114.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ومن ثم يصح الحديث عن الاستدلال القياسي الذي يعرف عند «أرسطو» بأنه قول مؤلف من أقوال إذا سلّم بها لزم عنها بالضرورة قول آخر[1]. ذلك أنّ طبيعة البرهنة القياسية تقوم على الكلي والكلي هو نقطة البدء الذي نَنْتقل منه إلى الجزئي، وهو ما يعطي لهذه البرهنة القياسية السهولة واليسر والقوّة[2].

وعموماً، يمكن القول إن «العلاقة جدّ وطيدة بين الاستدلال والقياس والاستقراء ولعلّ هذا ما يؤكّده محمد عابد الجابري بقوله: «والفعل العقلي الذي ينتج «العلم» بالاستناد إلى معارف سابقة هو الاستدلال (Raisonnement) وعلى الرغم من أن الاستقراء نوع من أنواع الاستدلال فإنّ الاستدلال الأمثل عند «أرسطو» هو «السلوجسموس» أي القياس الجامع»[3].

وكنموذج عن سلوجسموس أرسطي مايلي:

- كل البشر فانون.
- كل الإغريق بشر.
- إذن كل الإغريق فانون.

والملاحظ لهذا النموذج يستنتج أنّ هذا الاستدلال تشكل من مقدمتين؛ الثانية مستنبطة من الأولى ثم من نتيجة لازمة وضرورية، ولكن هناك من المناطقة من يرى أنّ هذا النمط من الاستدلال ليس أرسطيا حقيقيا وهو «جان لوكاسييفتش» (Jan Lukasiewiez) الذي يقول بهذا الصدد: «إنّ

---

1)– مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 126.

2)– إشكالية التواصل والحجاج، ص: 114.

3)– نقد العقل العربي، محمد عابد الجابري، ص: 402.

«أرسطو» لم يقُمْ أبدا بصياغة استدلالاته العقلية في صورة استنباطات ولكن دائما في شكل تضمنات (اقتضاءات) يسبقها تلازم المقدمات وترابطها وتأتي النتيجة حصيلة لذلك»[1].

ولكن هل العلاقة بين مقدّمات الاستدلال استنباطية أم تضمينية؟

يرى جان لوكاسييفتش أن مقدّمات قياس «أرسطو» تقوم على علاقة تضمينية، لأنه لكي تكون العلاقات استنباطية في هذا القياس، يجب أن تكون مقدّماته صادقة لا محتملة الصدق وقابلة للتمييز الصوري حقًّا[2].

وعلى العكس من ذلك ما يراه أحد الابستيمولوجيّين الغربيّين وهو «ج.غ.غرانجر» (G.G.Granger) الذي يعترض على رأي «جان لوكاسييفتش» بقوله: «بالنسبة لطابع الضرورة في الرابطة القياسية ذاتها (الضرورة الاستدلالية انطلاقا من مقدمات) فإنها تظهر حينما يكون كل نموذج للمقدمات هو أيضا نموذج للنتيجة، وهما لا مجال لافتراض كونية المقدّمات ولا اتّسامها بالضرورة»[3].

وخلاصة هذه الاستقراءات والاستنباطات أن قياس «أرسطو» هو جدل لا يزال مستمرّا، ولهذا يجوز جذبه إلى المنطق والجبر والحساب كما يجوز جذبه أيضا إلى حقول البلاغة والدلالة أي إلى فضاء اللّغة الطبيعية.

---

1)- La sollygistique d'Aristote, Jan Lukasiewicz, tradition de C.Zaslawsky Armand, Collin, Paris, 1972, P: 22.

2)- مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص: 127.

3)- La théorie Aristotélicienne de la science, Gilles Gaston Granger, Aubier Montaigne, Paris, P: 120.

ب- وظيفة الاستدلال في اللّغة الطبيعية:

من الواضح أنّ بنية الاستدلال التي يستعملها متكلم اللّغة ليست تماما هي بنية القياس الصوري، ذلك أن مستعملي اللّغة لا يستدلّون بالمعنى الشكلي، بل يستدلون بمقدّمات يختارون إظهارها حسب ما تقتضيه مقامات القول أو عدم إظهارها اعتماداً على ذكاء المتلقي أو لاعتبارات تداولية أخرى، فقد يسخرون بعض المقدّمات أو النتائج ولا يأبهون بها إنهم يستدلون بصفة سليمة في كثير من الأحيان دون أن يستعملوا لهذا الغرض قواعد المنطق الشكلي، لانطلاقهم مثلا من مقدّمات احتمالية مقبولة، وذلك إمّا لأنها واضحة وهو قليل أو لأنها قبل أن تكون مقبولة كانت موضوع حجاج[1].

على أنّ متكلمي اللّغة لا يتبعون خطوات القياس الصورية في الخطاب اليومي، فقد يتركون ذلك لبعض الحالات الخاصّة التي تدعو إلى استعمال شكل القياس الكامل أو الجزئي، وكيفما كان الخطاب فليس من الضروري معرفة القياس، من أجل التفكير، كما أنّه ليس من الضروري معرفة اللسانيات من أجل الكلام،... فالمتكلم حين يقول: «الإنسان فان» لا يستحضر مقدمتين وقياسا لأن ذلك ممّا هو معلوم كنتيجة للتجربة[2].

وهكذا فالخطاب لا يهدف إلى الوقوف فقط على نتيجة المقدمتين، بل إنّه يعرضها ويقدّمها من أجل هدف تداولي حسب مقام القول الذي قد يكون وعظا أو إرشاداً أو تنبيها وتحذيرا...

---

1)- إشكالية التواصل والحجاج، ص: 119.

2)- المرجع نفسه، ص: 120.

وخلاصة القول: إنّ القياس الطبيعي أغنى وأكثر إجرائية في اللّغة من القياس الصوري البرهاني، وأنه لا وجود في الخطاب الطبيعي للاستنباط المنطقي والاستقراء التجريبي بالمعنى الذي تحدّده المعرفة العلمية، ولذلك فإن القياس الطبيعي يصبح إذاك أكثر ملاءمة للاستدلال اللّغوي إذْ به يتماسك الخطاب وتتركب القضايا فيما بينها لتنشئ قطعا خطابية موحّدة.

إذْ به يتماسك الخطاب وتتركب القضايا بينها لنشئ قطعاً خطابية موحّدة.

II-1-3- نظرية أنواع النصوص:

تهتم نظرية أنواع النصوص بالتمييز بين أنواع النصوص؛ وتهدف هذه النظرية إلى تكثيف خواص البنية اللغوية وأنماط الوظائف الاتصالية؛ غير أنّ النص الواحد قد يشتمل على أكثر من نوع نصّي واحد. يعود السبب في ذلك إلى أنّ النص موكل بصلاحية أدائه لأفعال لغوية معقدة ذات ارتباطات بالعلامات السياقية-الموقفية، والعلامات الوظيفية-الاتصالية، والعلامات البنائية-النحوية والموضوعية جميعاً[1].

وبناء على اهتمامات هذه النظرية يحدّد «برنكر» (BRINKER) معايير ثلاثة للتمييز بين أنواع النصوص في علم اللّغة النصّي هي كالآتي[2]:

أ- الوظيفة النصيّة معياراً أساسها:

يقودنا هذا المعيار إلى تحديد أنواع خمسة من النصوص هي: إخبارية

1)- النص والخطاب والإجراء، روبرت دوبوجراند، ترجمة: د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ-1998هـ، ص: 411.

2)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 42.

(كالخبر والتقرير)، طلبية (كالقانون والطلب)، التزامية (كالعقد والضمان)، اتصالية (كالإعراب عن شكر)، وإقرارية (كالوصفية).

ويمكن لهذه الأنواع أن تتوزع على شكل آخر إلى أنواع أكبر.

* المعايير السياقية:

تجري هذه المعايير على مستوى الوصف الموقفي الذي يضم مقولتي «شكل الاتصال» و«مجال الفعل» حيث يميّز الموقف الاتصالي من خلال الوسيط الذي تنقل عبره النصوص، وعلى هذا الاعتبار تم تحديد خمسة وسائط هي: الاتصال المباشر (وجها لوجه)، الاتصال الهاتفي، الاتصال الإذاعي، الاتصال التّلفزيوني، وأخيرا الاتصال المكتوب[1].

* المعايير البنائية:

تعتمد هذه المعايير على «موضوع النص» وكذا على «الشكل الذي يظهر فيه الموضوع» للتمييز بين أنواع النصوص:

* موضوع النص:

ويشتمل على التركيز الزمني لموضوع أو على ما يعرف باسم «التوجه الزمني» ما قبل الكلام، وزمن الكلام، وما بعد زمن الكلام: مثالنا على ذلك الأنواع النصية الخبرية أو البروتوكول وما شابه ذلك، كما أن موضوع النص يشتمل على التوجه المكاني أي على تلك العلاقة التي تربط المرسل بالمتلقي[2].

1)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 42.

2)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 43.

* الشكل الذي يظهر فيه الموضوع:

يمكن التمييز هنا بين أنواع ثلاثة؛ النص الوصفي، والنّص السردي، والنص الحجاجي (الجدلي)، حيث ترتكز النصوص الوصفية على تصورات الشيء والموقف، وترتكز النصوص السردية على تصورات الحدث والعمل، بينما تمثل النصوص الحجاجية قضايا كاملة تنسب إليها قيم الصدق، كونها حقائق حسب الاعتقاد، على أنه يمكن لهذه القضايا أن تتعارض فيها القيمة لكونها موصوفة بالصدق[1]. ولأنّ المجال لا يتسع لدراسة كل هذه الأنواع من النصوص فسأركز على النصوص الحجاجية موضوع البحث.

ب- الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي:

بعد دراستنا للحجاج وعلاقته بكل من التداولية واللسانيات والبلاغة والفلسفة والقضاء والفقه، فقد تبين لنا أنّ العلاقة التي تربط بين أجزاء النص الحجاجي هي علاقة «منطقية» (Logical) أكثر من كونها علاقة تصوريّة (Perceptual)، كما هو الحال في النص غير الحجاجي.

ويقصد «وليم برانت» (William Brandt) بالعلاقة التصورية تلك العلاقة التي تصدر عن تجربة محدّدة مقيّدة بزمن التصوّر، وبحدث التصوّر والعلاقة المنطقية علاقة استنباطية (Invented) غالبا، في مقابل العلاقة التصورية المباشرة في النص غير الحجاجي[2].

---

1)- النص والخطاب والإجراء، ص: 415-416.

2)- The rhetoric of argumentation, Williams Brandt 1 st, Printing, U.S.A, 1970, P: 07

- نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 44.

وجوهر الحجاج عند «وليم برانت» يعني إنشاء رابطة مقنعة بين عبارتين ومن ثم يعتمد النص الحجاجي اعتماداً كبيراً على بنية أساسية عند عالم المنطق وهي بنية القياس المنطقي وفي الحجاج يرى الحكم على نتيجة القياس حكما على الحجج المقدمة -من حيث هي علاقة بين منطوقات تعبّر عن قضايا- بأنها صالحة أو فاسدة، لا حكما عليها بالصواب والخطأ[1].

ويبني النص الحجاجي -في شكله الرئيس- على مكونات ستة هي: الدعوى أو (النتيجة)، المقدمات أو تقرير المعطيات، التبرير، الدعامة، مؤشر الحال، التحفظات أو الاحتياطات[2].

فالدعوى مقولة تستهدف استمالة الآخرين وهي تذكر صراحة أو تضمن، أمّا المقدمات فهي تقرير يصنعه المجادل عن أشخاص أو أحداث أو أحوال، على أن ترتبط هذه المقدمات بالدعوى ارتباطا منطقيا ويتبع ذلك التبرير الّذي يعدّ بيانا للمبدأ العام الذي يستدل به على صلاحية الدعوى.وفقا لعلاقتها بالمقدمات.

وحتى يجعل المجادل مقدماته وتبريراته أكثر مصداقية عند المتلقي، لابدّ له من التدعيم الذي يكمن فيما يقدمه هذا المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلّة وقيم،...

ويلي الدعامة مؤشر الحال؛ وهو كل ما يقدم من تعبيرات تظهر مدى قابلية بعض الدعاوى للتطبيق، على نحو: من الممكن، من المحتمل، على الأرجح،...

---

1)- المرجع نفسه، ص: 22-26. نقلا عن المرجع نفسه، ص: 44.

2)- Argumentation, Reik Sillars, P: 77-88.

- نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 45.

وأخيراً يأتي الحكم المبني على تلك التحفظات أو تلـــك الاحتياطـــات، ويمكن تمثيل هذه العناصر على الشكل الآتي:

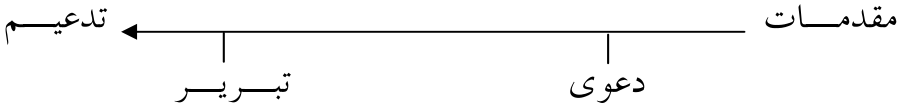

هو الشكل الأشيع للنص الحجاجي العربي، ومن مميّزاتـــه أنّـــه يتّـــسم بالمنطقية التي تعدّ أساس الحركة الحجاجية المتنامية، مترابطة العناصر، تـــرتبط الدعوى منطقيا بالمقدمات، ويحرص الخطيب لجعل خطابه مقنعا ومـــستميلا على التبرير والتعليل، مستخدماً دعامات لا يخفى ثراؤها[1].

وهكذا، فإن الخطيب لكي يثبت صحة رأيه أو معتقده بإزاء رأي الآخر أو معتقده وسيلته إلى ذلك هي التدعيم، والتدعيم كما سبق الذكر –أدلـــة منطقية وشواهد وأمثال تدعم صحة الدعوى– وللتدعيم وجوه ثلاثة: التدعيم بالدليل (Evidence)، والتدعيم بالقيمـــة (Value) والتـــدعيم بالمـــصداقية (Credibility)[2].

* التدعيم بالدليل:

يذكر «سيلارز» و«ريك» أنّ موقف الحجاج الأبسط والأشـــيع هـــو تقديم إفادة (Statement) تحظى بموالاة المخاطب، وباســـتطاعة المخاطـــب تطوير الحجاج بسؤال أو بدعوى مضادة، كما في المثال التالي:

المتكلـــم: لا تخف هنا على سيارتك!

---

1)– مقال النص الحجاجي العربي، ص: 51.

2)– مقال النص الحجاجي العربي، ص: 52.

المخاطب: ولـــمــــاذا؟

المتكلـــم: الجو حار اليوم!

المخاطب: لكنه ليس حارّاً كالأمس(1).

ولكن المتكلم يطوّر حجاجه بإضافة مادّة مدعمة لدعواه؛ على نحو يجعل المستقبل مواليا لتلك الدعوى، وهو ما يسمّى بالدليل.

– **أنماط الدليل**: في النص الحجاجي العربي، نرى للدليل أنماطا شتى من أهمها:

* أدلة تاريخية: يتم اقتباسها من التاريخ الأدبي.

* شواهد خاصّة: تستخدم هذه الشواهد عندما تعجز الأمثلة الحقيقيـــة (Real examples) عن التأثير والإقناع، وهذا النوع من الشواهد يـــسميه كل مـــن «ريـــك وســـيلارز» باســـم المثـــال الافتراضـــي أو النظـــري (Hypothetical examples)(2).

وتجدر الإشارة هنا إلى التفات بعض القدماء إلى علاقة المثال بالحجاج، ومنه ابن وهب الذي يقول عن ضرب الحكماء والعلماء والأدباء للأمثـــال: «وإنّما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمـــات

---

1)– A Mod of Argumentation from Arabic rhetoric, Insights for a theory of text types, hatim Basil, British society for middle Eastern studies, Bultin 17,1: 47,54, P: 49.

– نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 52.

2)– Argumentation and the decision making process, P: 99.

– نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 52–53.

مضمومة إلى نتائجها»[1] ويقول: «المثل مقرون بالحجة»[2].

ويشرح مقولة هكذا: «ألا ترى أنّ الله -عزّ وجلّ- لو قال لعباده: «إني لا أشرك أحداً من خلائقي في ملكي، لكان ذلك قولا محتاجا إلى أن يدلّ على العلّة فيه، ووجه الحكمة في استعماله. فلما قال: ﴿ضُرِبَ لَكُم مَثلاً مِنْ أَنفُسِكُم هَلْ لَكُم من مَا مَلَكت أَيْمَانكُم مِن شُركَاءِ فِيمَا رَزَقْنَاكُم فأَنتُم فِيه سَواءِ تخَافُوهم كَخِيفتِكُم أَنفُسكُم﴾[3]، كانت الحجّة من تعارفهم مقرونة بما أردوا أن يخبرهم به من أنّه لا شريك له في ملكه من خلقه؛ لأنهم عالمون بأنّهم لا يقرون أحداً من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه، فالله -عزّ وجلّ- أولى بأن يتعالى عن ذلك»[4].

* التدعيم بالقيمة:

النص الحجاجي نص تقويمي، والقيمة مفهوم يستنبط ممّا يقوله الناس وممّا يفعلونه، وممّا تشيّده المجادلات والمناقشات، وكذا القيم وذلك مع الدليل ومصادر معقولية الأشياء- وهكذا تتكون المادّة التفاعلية التي يقدر بها الناس الحجاج الذي يستحقّ منهم الموالاة[5].

ومن منظور كلّ من «دوبوجراند» (De Beaugrande) و«درسلر» (Dresler) تعتبر القيم من أهم المفاهيم التي يبنى عليها النص الحجاجي المتمثلة

1)- البرهان في وجوه البيان، ص: 16.

2)- المرجع نفسه، ص: 146.

3)- سورة الروم، الآية: 28.

4)- البرهان في وجوه البيان، ص: 146.

5)- Argumentation, Reik, Sillars, P: 77-78.

- نقلا عن مقال النص العربي الحجاجي، ص: 45.

في العلّة، والمعارضة، وعلى هذا الاعتبار يرى هـــذان البـــاحثين أن الـــنص الحجاجي– نصّ موظّف لتقوية القبول أو تقويم معتقدات وأفكار(1).

من أجل ذلك تحدد النظرية الحجاجية المعاصرة للقيمة نمطـــين اثـــنين: القيمة الوســـيلة (Instrumental Value) والقيمـــة الغايـــة (Terminal Value). إذ الأولى تضع إفادة عمّا هو ذو قيمة، والأخرى توجه النـــاس إلى الوضع الذي يتغيّاه المتكلم(2).

وانطلاقا من هذا، يبدو واضحا لكل من يتأمل خطاب الحجاج العربي، أنّه يميل إلى القيمة الغاية ميلا أقوى، وهذا أمر مهم، وذلك أنّ القيمة الغايـــة أقوى تأثيرا في الحصول على قدر أكبر من المـــوالاة (Adhérence) يجعـــل المستقبلين يغيّرون من سلوكهم واتجاهاتهم.

وإلى جانب هذا، يعتمد خطاب الحجاج العربي في تدعيم التبرير اعتماداً جوهريا على القيم التي يكون فيها تمسك الناس بها قويـــا، أو الـــتي تتّـــسم بالشمولية بسبب موالاة كثيرا من الناس لها. مثال ذلك «قيمة التغير» بـــين «القديم والجديد» أو قيمة الجمع في الإسلام بين الدين والدولة» أو «قيمـــة الحب» التي تكشف عن المفهوم الحقيقي للدين من وجهة نظر بعض الكتاب وكلّها قيم تكتسب موالاة نسبة كبرى من المستقبلين(3).

---

1)– An introduction to text linguistics. De Beaugrande R, diessler, w.1981, P: 148.

– نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 45.

2)– Argumentation and the decision, Making process, P: 121.

– نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 54.

3)– النص الحجاجي العربي، ص: 54.

وبالإضافة إلى القوة والشمولية التي تساعد على تعيين القيم السائدة في مجتمع أو حضارة في خطاب الحجاج العربي، هناك عامل آخر أكثر أهمية في الموالاة والإقناع، هو منزلة الأشخاص الذين يدعمون هذه القيمة أو تلـــك، فالإقناع والموالاة يعتمدان على منزلة الشخصية التي تدعم قيمة ما تطالب به الناس، خاصّة أنّها صادقة في مطالبتها، وأنّها بريئة فيما تطالب به من أي نفع أو مصلحة خاصّة(1).

* التدعيم بالمصداقية:

المصداقية عامل مهم في الحجاج في ضوء تحديد «ريك» و«ســيلارز» لأنواع المصداقية وعليه يمكن استنباط مايلي:

أ- قلما يلجأ المؤلّف إلى المصداقية؛ فهو لا يقدم عن نفـــسه إفـــادات مباشرة قصد زيادة قابليته للتصديق، وإنّما يصرف همّـــه في المقـــام الأوّل- لالتماس العلل المقنعة(2).

ب- يعتمد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية الثانوية (وهي التي تأتي من ربط مصداقية شخص آخر بالحجاج) اعتماداً أقـــوى كـــثيراً مـــن اعتماده على المصداقية المباشرة، وربما يفعل كاتب الحجاج ذلك تاركا الأمر لنص الخطاب ولفهم المخاطب(3).

---

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- Argumentation, Reik Sillars, P: 154-156.

- نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 54.

3)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 55.

ج- من الطبيعي أن يكون اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية المباشرة أقوى من الاعتماد على النوعين السابقين جميعاً، وذلك أن المصداقية المباشرة تصدر عن تطوير المتكلم حجاجه بطريقة تجعله قابلاً للتصديق[1].

د- وممّا يؤثر في مصداقية الخطاب ما يعرفه المستقبل عن مصدره، فالناس يميلون -عادة- إلى تصديق من يرونهم أهلا للثقة والأمانة والكفاءة.

II-2- الوسائل اللغوية:

الوسائل المنطقية واللّغوية في كل نص إقناعي هي سداه ولحمته ولقد كانت اللغة هي الأداة اللّفظية لنقل المعنى أو النتيجة في كل قياس منطقي، ولما كانت اللغة في الإقناع هي الوسيلة لفرض السلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعبّر عنها وإقناعهم بمصداقيتها، استدعى الأمر البحث عن بدائل لغوية ذات صلة وثقى بالإقناع وتحليل أنماطها المختلفة.

ومن أجل ذلك يمكن أن نميّز بين عدد من البنى اللّغوية التي يقلب وقوعها في النص الإقناعي العربي والتي تزوده بأدوات مهمة في الإقناع والاستمالة، ممّا يجعله متمايزاً إلى حدّ ما عن غيره من أنواع النصوص الأخرى وهذه البنى هي:

II-2-1- بنية التكرير:

بعد استقراءنا لبعض المصادر البيانية يمكننا أن نتزوّد بطائفة من المعطيات المهمّة عن التكرير، نجملها فيما يلي:

---

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

1- للتكرير (ويسمّى أيضا بالترديد أو الترداد) وظائف خطابية، عبّر عنها بالإفهام والإفصاح، والكشف[1]، وتوكيد الكلام والتشييد من أمره وتقرير المعنى وإثباته[2].

2- ليس التكرير محض وقوع اللّفظ في الكلام أكثر من مرّة، أو صياغة المعنى أكثر من مرّة لكن قد يعاد لفظ الفصل الأوّل من الكلام مرّة ثانية لأنّ أوّله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلاّ به[3] مثال هذا قوله تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحبُّونَ أَنْ يُحْمدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَاب﴾[4].

3- ترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوك المخاطب يقول أن الأثير (ت.637هـ): «إذا صدر الأمر من الآمر على المأمور بلفظ التكرير مجرّدا من قرينة تخرجه عن وضعه، ولم يكن موقنا بوقت معيّن كان ذلك حثّاً له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور، فإنّك إذا قلت لمن تأمره بالقيام: «قم قم قم» فإنّما تريد بهذا اللّفظ المكرّر أن يبادر إلى القيام في تلك الحال الحاضرة»[5].

4- يعدّ التكرير ظاهرة مقامية؛ من أهمّ ما يقول على هذا المفهوم إشارة ابن الأثير إلى تكرير المعنى في مقام الاعتذار والتنصّل قصداً إلى التأكيد

1)- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 1405هـ-1985م، ج1/104-105.

2)- المثل السائر، ج3/20-29.

3)- المثل السائر، ج3/17.

4)- آل عمران، الآية: 188

5)- المثل السائر، ج3/03.

والتقرير لما يُنْفِي عن المتكلم ما قصد إليه[1].

5- ونظرا للأهمية الكبرى للتكرير قدّمت محاولات لتصنيف أنواعه من أبرزها ما قدّمه ابن الأثير:

- التكرير في اللّفظ والمعنى.
- التكرير في المعنى دون اللّفظ.

فمن الصنف الأول بمن تستدعيه: «أسرع أسرع»، ومن الصنف الثاني قولك: «أطعني ولا تعصني»؛ فإنّ الأمر بالطاعة نهي عن المعصية[2].

6- يرى ابن الأثير أن التكرير في المعنى يدل على مفهومين: أحدهما خاص، والآخر عام، كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ، ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾[3]؛ فالأمر بالمعروف خير، وليس كل ما هو خير أمر بالمعروف؛ وذلك أنّ الخير أنواع كثيرة، من جملتها الأمر بالمعروف[4].

وإلى جانب ما سبق ذكره، فقد قيّد الجاحظ التكرير -ويسمّيه التّرداد- قيّده بقدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص[5].

أمّا في اللّسانيات النصية فقد عولج التكرير من منظور دوره في السبك المعجمي، وذلك أن يحيل اللّفظ المكرر إلى لفظ آخر سابق مرادف، أو

1)- المرجع نفسه، ج27/3.

2)- المرجع نفسه، ج03/3.

3)- آل عمران، الآية: 104.

4)- المثل السائر، ج27/3.

5)- البيان والتبيين، ج104/1.

مرادف قريب، يرتبط به بالإحالة المشتركة(1).

ومهما يكن من أمر، فإننا نعنى هنا بتحليل بنية التكرير من منظور الوظيفة الاتصالية الإقناعية التي ألقي عليها الضوء من قبل بعض القدماء كأبي الهلال العسكري (ت.395هـ) الذي يقرن التكرير بتأكّد الحجّة(2) جاعلا التكرير مدّاً للقول، ومن ثم يربط بين مدّ القول وبلوغه الشفاء والإقناع(3).

ولقد شغلت البنية التكريرية للخطاب الإقناعي بال عدد من المستشرقين:

ترى «شيرلي أوستلر» (SCHIRLY OSTLER) في دراسة تقابلية بين النثر الانجليزي والنثر العربي، أنّه على عكس التطوّر في الانجليزية من لغة شفهية إلى لغة كتابية، تظل العربية الكلاسيكية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتقاليد شفاهية «Oral Traditions»(4).

أمّا «باربرا جونستون كوتش» (B.J.Koch) فإنها ترى أن خطاب الحجاج العربي يعتمد في الإقناع على العرض اللّغوي للدعاوي الحجاجية

1)- Cohe sion in English, M.A.K, Halliday, Ruqaiya, Hasan, Longman, Th. Impression, 1983, P: 278-282.
- نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 62

2)- كتاب الصناعتين، ص: 156.

3)- المرجع نفسه، ص: 157.

4)- English in parallels : A comparison of English and Arabic prose, E shirly Ostler, south California uni, P: 169, 172, 185.
- نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 63.

وصياغتها صياغة موازية، وإلباسها إيقاعات تغمية إيقاعية بنائيـــة متكـــرّرة، وترى أنّ هذا النوع من الحجاج هو نتيجة المركزية الثقافية للّغة العربيـــة في المجتمع العربي الإسلامي(1).

وتسمّي «باربرا» هذه الإستراتيجية البلاغيـــة: اســـتراتيجية الإقنـــاع بالتكرير (Repeating) وبالصياغة الموازية (Rephrasing) وبإلباس الدعوى وإعادة إلباسها إيقاعات نغمية متغيرة مـــن الكلمـــات، تـــسميها باســـم «استراتيجية العرض» (Présentation) أي لاستحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره(2).

وعلى العموم، فإن التكرير والتوكيد عاملان قويّـــان في تكـــوين الآراء وانتشارها، وإليهما تستند التربيّة في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجـــال السياسة والزعماء كلّ يوم في خطبهم، ولا يحتاج التوكيد إلى دليـــل عقلـــي يدعّمه وإنّما يقتضي أن يكون وجيزاً حماسيا ذا وقع في النفس(3).

وبالإضافة إلى ذلك، فإن للتكرير تأثيرا كبيرا في عقـــول المـــستنيرين، وتأثيرا أكبر في عقول الجماعات، من باب أولى، والسبب في ذلـــك، كـــون المكرّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاّشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعـــال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن، نسي الواحد منا التكـــرار، وانتـــهى

1)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 63.

2)- Presentation as proof: The language of Arabic rhetoric anthropological linguistic, Barbara johnstone Koch vol 25, No 1, 1983, P:47.

-نقلا عن النص الحجاجي، ص: 63.

3)- الخطابة العربية أصولها، تاريخها في أزهر عصورها، ص: 66.

بتصديق المكرّر وهذا هو السرّ في تأثير الإعلانات العجيب، يقرأ الواحد منّا مائة مرّة أن أحسن الحلوى من صنع فلان، فيخيّل إليه من التكرار أنّه سمع ذلك من مصادر شتّى، وينتهي باعتقاد صحّة الخبر[1].

واستفادة من وظيفة التكرير في الإقناع، يعمد الخطيب إلى التكرار كلما وجد أنّ المقام لا يحتاج إلى إيجاز، والسبب في ذلك؛ أنّ التكرار أولي في مقام الإطناب، وهو أولي كذلك في مقام الإيجاز، ومن أجل ذلك ينبغي أن يكون التكرير بعبارات وأساليب مختلفة، وأن يكون النظر إلى المعنى من جوانب متعددة؛ وعلى هذا الأساس فإن التكرير يؤثّر ويقنع لأنه من بواعث انتباه السامعين.

وبناء على ما تقدم ذكره يمكن تصنيف أنماط التكرير إلى صنفين رئيسين: تكرير الشكل، وتكرير المضمون؛ يشتمل تكرير الشكل على اللفظ المفرد والعبارة أو الجملة، وهو تكرير شكلي في مقابل تكرير المضمون، الذي أسماه ابن الأثير تكرير المعنى.

أ- تكرير الشكل:

يرى محمد العبد أن تكرير الشكل لا صلة له بالإقناع إلاّ إذا لوحظ فيه قصد إلى ذلك، مدعّما رأيه هذا، بقول العقاد: «ثم إننا لا نعرف شعرا يرويه الناس، ويقال إنّه يعني قائله وحده؛ لأنّ شعر النفس يعني كلّ نفس»[2]، فالباحث يرى أن كلمة «شعر» وكلمة «نفس» تكرّرتا مرتين، ولبيس في هذا التكرير قصد إلى

1)- المرجع نفسه، ص: 66.

2)- مقال الأدب العصري، من كتاب الفصول، عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، 1986م، ص: 105.

الإقناع لأنّه لا بديل لسبك ذلك المنطق عن مثل هذا التكرير[1].

وبعد استقراء الباحث نفسه، لعيّنات من النصوص الحجاجية العربية القديمة والحديثة استطاع أن يميّز بين أنواع ثلاثة للتكرير على مستوى الشكل يوردها لنا كالآتي[2]:

- ✓ تكرير المكرّر بذاته؛ سواء أكان لفظاً مفرداً أم غير ذلك، في منطوق واحد، أم غير ذلك.
- ✓ التكرير في هيئة عنصرين من مادّة واحدة.
- ✓ التكرير بإعادة الصياغة.

ففي (النوع الأول)، وهو تكرير المكرّر بذاته لفظاً مفردا أو غير ذلك، يريد صاحبه بالتكرير تثبيت تبريره ودعواه، حيث يكون استبقاء المكرر في الزمان والمكان وسيلة لدحض دعوى خصمه.

وفي حالات أخرى، يكون المكرر بذاته، وسيلة لغوية للوصول إلى الهزء بالخصم وفضح جهله، كقول الشاعر:

قُلْ لِمَن يَدَّعِي فِي العِلمِ فَلْسَفَة عَلِمْتَ شَيْئًا وَغَابَت عَنْكَ أَشْيَاء

ففي هذا البيت سخرية وفضح لجهل المدّعي.

وبناء على هذه الحالات، يمكن اتخاذ التكرير وسيلة لإقناع الخصم عن طريق دحض زعمه، وكشف حقيقته، خاصة إذا قصد الكاتب بتكرير اللفظ تهييج خصمه.

1)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 63.

2)- المرجع نفسه، ص: 64.

أمّا من ناحية تكرير المكرر بذاته عبارة أو جملة، فقد يقع ذلك في المقدمات لتقرير المعطيات، كما يقع في التبريرات والدعاوي جميعاً، فتكرير الجملة من شأنه أن يلفت الانتباه إلى الدعوى؛ كما من شأنه تثبيت المضمون، أو تثبيت الرغبة الملحة في البرهنة على صلاحية المعتقد؛ أو رجوع الخصم عما ادّعى.

وعلى الجملة، فإن تكرير المكرّر بذاته، يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهوماً أكثر، بل إنه يزيد الفهم، بجذب انتباه المستقبل وامتلاكه[1].

أما (النوع الثاني)، وهو التكرير في هيئة عنصرين اثنين من مادة واحدة؛ فإنه يعكس حالة من الحالات في تأثير سلوك الخصم في منازعة محتدمة، باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس، حتى أن هذا النوع من التكرير، قد يصير آلية لغوية مهمّة من آليات دفع دعوى الخصم وإقناعه بالإقلاع عنها[2]، مثالنا على ذلك مكاتبة الأخشيد مخاطباً أرمانوس: «وإن كنت تجري في المكاتبة على رسم من تقدّمك، فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك، وجدت من كان تقدّمك قد كاتب من قبلنا من لم **يحل محلّنا**، و**لا أغنى غناءنا**، و**لا ساس** في الأمور **سياستنا**»[3].

أما النوع (الثالث)، وهو التكرير بتغيير التركيب، فهو جمع بين الشكلين السابقين (الأول والثاني)، وذلك أن الكاتب يبرهن على دعواه حتى يخلص إلى قوله مكرّراً العبارة السابقة بتغيير التركيب، كقول المازني في سياق البرهنة

1)– مقال النص الحجاجي العربي، ص: 65.

2)– مقال النص الحجاجي العربي، ص: 65.

3)– كتاب الأخشيد إلى أرمانوس، جمهرة رسائل العرب، جمع أحمد زكي صفوت شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي، 1356هـ–1937م، ج4/421.

على فوز المذهب الجديد في الأدب: «ولو شئنا، وكان ذلك يلائم مزاجنا ويليق بمهمّة النهضة بالأدب وتحريره لباهينا بالمذهب الجديد وبفوزه على صندوف الاستبداد»[1] إلى أن يقول: «فاز المذهب الجديد على هذه وغيرها من صنوف العنت وضروب الاستبداد»[2] والترجيع في هذه الحال تشييد للمعنى ووجهة النظر[3].

ب- تكرير المضمون:

يبنى تكرير المضمون أو المحتوى على مكونات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى، ولذلك يمكن تصنيف تكرير المضمون إلى أربعة أنواع هي[4]:

1- تكرير مفردتين متواليتين أو أكثر، في جملة واحدة أو منطوق واحد.

2- تكرير مفردتين في جملتين أو منطوقين متواليين.

3- تكرير مفردتين في ثنائية.

4- تكرير المضمون بين جملتين متواليتين.

ب-1- مميزات النوع الأوّل:

1- إن الجمع بين مفردتين أو أكثر لمعنى واحد يعدّ آلية لشغل فضاء ذلك المعنى كاملا، فحيثما تقصر المفردة الواحدة عن أداء وظيفتها الإقناعية، تنوب عنها مرادفتها.

---

1)- مقال: الأدب ينهض في عصور المشادة، من كتاب: حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، الهيأة المصرية للكتاب، 1999م، ص: 47.

2)- مقال: الأدب ينهض في عصور المشادة، ص: 48.

3)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 66.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2- ارتباط الثاني بالأوّل ارتباط السّبب بالمسبّب.

3- ارتباط اللاّحق بالسابق، ارتباط التدرّج من هيئة الحدث إلى هيئة أخرى.

4- أن تتضمّن الكلمة الثانية الكلمة الأولى؛ بمعنى أن علاقة الثانية بالأولى علاقة العام بالخاص، كقول العقاد: «ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام، وينعقد الصوت ألفاظ وحروف. فيتدفّق الغزل من النفس المحتدمة تدفقا **قويا عارماً**»(1)، فالعارم هنا يتضمن القوي بالضرورة، وهو تضمن محدود بحدود الانتقال من درجة إلى أخرى أقوى، وهذا الشكل كثير الوقوع في النص الإقناعي العربي(2).

5- هذا الشكل هو عكس الشكل السابق، حيث إنّ الكلمة الأولى هي التي تتضمن معنى الثانية؛ ومن ذلك قول الإخشيد في سياق احتجاجه لحسن سياسة ممالكه ورعيته: «وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها، على **عظمها وسعتها**، بفضل الله علينا، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية»(3). فالسعة مضمنة في العظم، والتضمن هنا محدود بحدود الانتقال من العام إلى الخاص(4).

ب-2- مميزات النوع الثاني: يرى محمد العبد بعد استقراءه لبعض النصوص الحجاجية العربية أنّ هذا النوع قليل الوقوع؛ مدعّما رأيه هذا بقول الكندي في سياق احتجاجه لحرصه على دراهمه تجنّباً للفقر والحاجة: «فكيف

1)- مقال: الغزل الطبيعي من كتاب الفصول للعقاد، ص: 96.

2)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

3)- كتاب الإخشيد، من كتاب: جمهرة رسائل العرب، ج4/419.

4)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

تأمروني أن **أوثر** أنفسكم على نفسي، **وأقدم** عيالكم على عيالي»[1]. ففي هذا المثال نلاحظ أن الكندي قد رادف بين (أوثر) و(أقدم) في جملتين بالقطعة الأولى، أي أنّ المترادفين وقعا بصدر الجملتين[2] وقد يقع الترادف بعجز الجملة كذلك.

ب-3- مميزات النوع الثالث: بعد إطلاعنا على نتائج عينات الدراسة التي قام بها محمّد العبد تبين لنا أن هذا النوع كثير الوقوع نسبيّا في النصوص الحجاجية العربية القديمة، من أمثلة هذا النوع؛ قول الكندي في دفع دعوى خصومه: «وزعمتم أنّما سمينا **البخل** إصلاحاً، **والشح** اقتصاداً، كما سمّى قوم **الهزيمة** انحيازاً، و**البذاء** عارضة»[3].

فالملاحظ هنا أن الشح أقوى من البخل، وأن البذاء أعم وأقوى من الهزيمة أيضاً.

وممّا تجدر الإشارة إليه هنا أنّ تكرير المضمون من هذا النوع، يبدو آلية من آليات تشديد المعنى وإقناع المتقبل على وجه خاص حيث ترتبط الثنائيات اللفظية بإستراتيجية **التوازن**[4].

ب-4- مميزات النوع الرابع: من أمثلة هذا النوع قول الكندي: «فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وإنفاقه هو إتلافه، وإذا **حسنتموه بهذا**

---

1)- البخلاء، عثمان أبو عمرو بن بحر الجاحظ، حقق نصه وعلق عليه: طه الحاجري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948، ص: 80.

2)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

3)- البخلاء، ص: 79.

4)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 67.

الاسم، **وزينتموه بهذا اللّقب**»[1]، فالملاحظ أن الجملتين الأخيرتين استخدمتا لمضمون واحد، والأمثلة على هذا النوع كثيرة لا يتسع البحث لتدوينها كلّها، ولعلّ من الملائم هنا، الإشارة إلى ما لاحظه «والترأونج» (Walter Ong). في قوله: «ويميل التفكير المطوّل ذو الأساس الشفاهي -حتى عندما لا يكون في شكل شعري- إلى أن يكون إيقاعياً بشكل ملحوظ؛ لأن **الإيقاع** -حتى من الناحية الفيزيولوجية- يساعد على التذكّر»[2].

ومهما يكن، فإن المتأمل لحالات هذا النوع، يكتشف أن الجملة الثانية تميل غالبا إلى أنْ تكون أعم وأقوى هي الأخرى في دلالتها من الجملة الأولى التي تشترك معها في الدلالة العامّة، ممّا يجعل لهذا النوع أهمية خاصّة في دفع المعنى إلى درجة أقوى، وهو ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللّغوية في إقناع المخاطب واستمالته[3].

وبعد تفصيل الأنواع الأربعة لتكرير المضمون، والتمثيل لكل نوع، حسبما جادت له دراسة محمّد العبد من نتائج، نخلص في النهاية، إلى أنّ تكرير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر أوسع من غيره مدى في نصوص الخطاب الإقناعي العربي، وهو لذلك أبلغ أثرا في إقناع المخاطب بوجهة نظر المتكلم أو دعواه أو مصداقية أو دحض دعوى الخصم.

---

1)- البخلاء، ص: 78.

2)- الشفاهية والكتابية، والترأونج، ترجمة: د.حسن البنا عزالدين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1414-1994، ص: 94.

3)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 68.

II-2-2- بنية التوازي:

أ- التوازي عند هاليداي:

قدم «هاليداي» (M.A.Halliday) في كتابــه «مــدخل إلى النحــو الوظيفي» (An introduction to functional grammaire) منهجا لدراسة التوازي، وهذا المنهج من منظور الباحث «محمد العيد» منهج يصلح تطبيقــه على العربية[1] على نحو ما سنرى في المتن الخطابي الخاص بخطاب الحجّاج بن يوسف الثقفي.

وتتبعا لما جاء في كتاب هاليداي، نجد أن التوازي (Parataxis) عنــده هو ربط بين عناصر متساوية في الحال (Equal statues)، فهناك عنصر سابق (Initiating) وعنصر آخر متّصل به أو لاحق (Continuing) على أنّ كلّ من هذين العنصرين حر؛ بمعنى أن لكل عنصر كيانه الوظيفي الكامــل وإلى جانب هذا، فهو يميّز بين التوازي على النحو السابق وبــين التركيــب، إذ التركيب ربط بين عناصر غير متساوية الحالة؛ فهناك العنصر المتحكم وهــو العنصر الحرّ، وهناك العنصر المتحكم فيه، وهو غير حرّ، وكل منطوق خليط من السلاسل المتوازية والمتراكبة مثال ذلك[2]:

سأفعل إذا استطعت ولكنني لن أستطع.

1 أ　　　　1 ب　　　　2

ففي هذا المثال نرى علاقة توازي بين: «سأفعل إن استطعت» و«لكنني لن أستطيع» وتبيّن هذه العلاقة هكذا: 1　　2، وفي الآن ذاته نرى علاقــة

---

1)- مقال: النص الحجاجي العربي، ص: 71.

2)- المرجع نفسه، ص71.

تراكب بين: «سأفعل» و«إن استطعت» وتبين هذه العلاقة هكذا: أ ب.

وبالإضافة إلى ذلك، يحدّدها ليداي العلاقات الدلالية -المنطقية بين العنصرين السابق، واللاحق في بنية التوازي- في علاقتين رئيستين هما[1]:

1- **علاقة التمديد** (Expansion):وتعني تمديد الجملة الثانية للجملة الأولى بإحدى الطرق الثلاث التالية[2]:

* طريقة الإحكام (مساوٍ): فالجملة الثانية تحكم الأولى كلية أو تحكم جزءاً منها، وذلك بأن تقررها بعبارة أخرى أو بأن تحدّدها على نحو أكثر تفصيلاً، أو بأن تعقب عليها، أو بأن توضحها نحو المثال الآتي:

فلان لم ينتظر، جرى بعيداً

1 = 2

فالجملة الثانية تشخص بالفعل عنصراً مذكوراً تشخيصاً أكثر توضيحاً.

* طريقة الإطالة + (يضاف إلى): وذلك بأن تمدّ الجملة الثانية الجملة الأولى بإطالتها عن طريق إضافة عنصر جديد، أو بأن تستثني منها شيئاً، أو بأن تعرض بديلاً (الواو، أو) على نحو:

فلان جرى بعيداً، واختبأ فلان وراءه.

1 + 2

* طريقة التعظيم× (تكاثر بواسطة): وذلك بأن تمدّ الجملة الثانية الجملة الأولى بتنميتها بواسطة تكييفها مع ظرف زماني أو مكاني أو علة لا شرط

1)- مقال: النص الحجاجي العربي- ص: 71.

2)- المرجع نفسه، ص: 71.

(هكذا، كذلك، لهذا السبب، مع ذلك، مـــع أنّ، علـــى أنّ، إذن، مـــن ثم، حينئذ، إذ ذاك،...) بمثل[1]:

كان فلان مذعوراً، ولهذا جرى بعيداً.

1 ×2

2– **علاقة التصميم** (Projection): وتعني الجملة الثانية تـــصمّم مـــن خلال الجملة الأولى، وللجملة المصمّمة حالتان[2]:

* الحالة الأولى: أن تكون ملفوظاً (يقول)؛ أي تنصيص مزدوج، وذلك بأن تصمّم الثانية على أنها ملفوظاً (as locution) أو **بناء لفظي**:

قال فلان: «سأجري بعيدا».

1 2ً

الحالة الثانية: أن تكون فكرة (يفكر)؛ أي تنصيص مفرد؛ وذلك بـــأن تصمم الثانية على أنها فكرة أو بناء معنوي:

فكر فلام في نفسه، سأجري بعيداً[3].

1 2َ

1)– راجع في تفصيل ذلك:

– An introduction to functional grammar M.A.K Halliday Edward Arnold, London, Routledge, Chapman and Hall, Inc USA 2nd Edition (1994) : 216-225. P :23-235

– نقلا عن المقال النص الحجاجي العربي، ص: 72.

2)– المرجع نفسه، ص: 216–225.

3)– المرجع نفسه، ص: 215–225.

وعلى العموم، فإن التوازي بالمفهوم الاصطلاحي عند هاليداي بنية تركيبية كثيرة في خطاب الحجاج العربي، لأنها تعدّ استراتيجية مهمة من استراتيجيات الإقناع بوجهة النظر، فضلا عن تقاطع بنية التوازي هذه أحياناً مع بنية التكرير المضموني؛ ومن أجل ذلك يمكن تطبيق ما جاء به هاليداي على الخطاب الكتابي لا الخطاب الشفاهي الذي نحن بصدد تحليله، ولهذا فإنّ نظرية التوازي في الإلقاء تنحو نحواً آخر مستعينة بالطبع بعض ما جاء به هاليداي.

ب– نظرية التوازي في فن الإلقاء الإقناعي:

ب–1– الطرح الابستمولوجي للتوازي:

* المشابهة والاختلاف: تنتصر الثقافة القديمة كثيراً للتشابه؛ وذلك أنها ترى أن الصفة الواحدة الناقلة للمعنى هي صفة المشابهة يقول «مشال فوكو»: «فحيثما كانت الأشياء تتشابه، وحيثما كان هناك تشابه، كان هناك معنى، وكان بالإمكان الحفر وراءه»[1].

أما «هوكس» فإنه يقول: «باستخدام التشابه وبتوالي تكرارية «التساويات» في الأصوات وفي النّبر وفي الصّور والإيقاعات، كل ذلك يجعل اللّغة مكثفة»[2].

ويعود الإيمان العميق بالتشابه إلى طبيعة العلاقات الدّاخلية في مجتمعات القرن السادس عشر القائمة على الانسجام والتوافق ممَّا عكس طبيعة رؤيتها للأشياء وهو الأمر نفسه الذي دفع الثقافة القديمة إلى البحث عن سبل التوافق

1)– جينالوجيا المعرفة، مشال فوكو، ترجمة: أحمد السلطاني وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988، ص:34.

2)– القول الشعري، د.رجاء عيد، ص: 200.

لكل المتغيّرات والمتضادات[1].

وقد حصر «ميشال فوكو» مفاهيم اندرجت ضمن التشابه[2]، وهي:

1- مفهوم التلاؤم: ويقصد به توافق الأدلّة؛ مثل: توافق النفس مع الجسد، أي الدال مع المدلول.

2- مفهوم التعاطف (Sympathies): وهو توحّد الأعراض في جواهر مختلفة.

3- مفهوم (Emulation) أي توازي الأشياء المتباينة.

4- مفهوم الأثر: وهو صورة لخاصية لا تطهر من بين الخصائص الجليّة للفرد.

5- مفهوم التجانس الذي يقصد به تناسب وحدتين متمايزتين جوهريا.

ويبدو أن معظم هذه المفاهيم لا تقوم على ذاتها بالضرورة، وإنّما تنبني على ما يخالفها ضمن علاقة التفاعل بين الموجودات المتغايرة وكما هو واضح، فإن التعاطف هو توحّد منبني على الاختلاف، والتوازي مبني على التباين والتجانس مبني على التمايز، الأمر الذي يحيل إلى إمكانية التشابه التي تقوم أساسا على حصول اختلاف واقع سلفاً[3].

* التوافق والانسجام: تميّز التراث العربي بكونه يسعى دوما إلى اعتبار الكلام الفصيح، ما توافق فيه الدال والمدلول، وانسجم اللفظ مع المعنى في السياق كما أكّد ذلك عبد القاهر الجرجاني بنظريته الشهيرة «النغم» لهذا تكثر مصطلحات من مثل؛ المناسبة، المشابهة، المشاكلة، المحاكاة، وكلها

1)- الشعرية، مقولة التوازي، ص: 105.

2)- جينالوجيا المعرفة، ميشال فوكو، ص: 34-35.

3)- الشعرية ومقولة التوازي، ص: 105.

مصطلحات لمفاهيم شكّلت محور النقد العربي القديم عن طريق ترتيب الكلام من خلال تثبيت علاقة الدال بالمدلول، والبحث في إمكانية مطابقة اللّفظ للمعنى، وليس ذلك فحسب؛ بل إن المشابهة تسعى حتى إلى البحث أيضا عن «المناسبة بين المتباعدين» كما يرى القرطاجني[1].

ومن منظور جابر عصفور، فقد اقترن التناسب مع الوحدة[2]، وذلك لاعتبار أساسي، وهو أنّ العمل اللّغوي يعدّ بمثابة وحدة تتفاعل فيها جميع المكونات اللّسانية وما فوق اللسانية أيضا، هذه الوحدة التي تشكل مكاناً لاستدراج التناسب والتناسق، ليليه استدراج النفس والاستماع، وبالتالي اهتمام المستقبل، وعلى حدّ تعبير القرطاجني: «كلّما وردت أنواع الشيء وضروبه مترتبة على نظام متشاكل وتأليف متناسب، كان ذلك أدعى لتعجيب النفس، وإبلاعها بالاستمتاع بالشيء، ووقع منها الموقع الذي ترتاح إليه»[3].

* الاختلاف والتضاد: إن علاقة المتشابهة لا تعني بالضّبط التشابه والانسجام والتوافق؛ بل يفهم منها أيضا الاختلاف والتضاد؛ ذلك أن هذه العلاقات نفسها لا تتشابه إلاّ إذا كانت مختلفة في الأصل، فلا يحدث تطابق إلاّ إذا كان المتطابقان مختلفين في الواقع (هايدغر)، فالمتشابهات دائما تتشكل من نمط خاص من الاختلافات والعكس صحيح[4].

وتجسيدا لفكرة «رجاء عيد» يقول كمال أبو ديب ولقد «...أصرّ الجرجاني كما أصرّ أرسطو قبله، ثم كما أصرّ كولوريدج بعدهما على أنّ

1)- منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص: 31.
2)- مفهوم الشعر، جابر عصفور، ص: 273.
3)- منهاج البلغاء، ص: 245.
4)- القول الشعري، رجاء عيد، ص: 194.

(المشابهة) هي تلك التي تكشف بين مختلفات، وأنّ التشابه المطلق بعدم التشبيه أو الاستعارة أو الرّمز، ويمنع تدفق الشعرية، وقد طرح ريتشاردز فيما بعد فرضيته المعروفة في أنّ الاستعارة لا تقوم في الواقع على المشابهة بقدر ما تقوم على المغايرة والاختلاف»[1].

ولكن يجب الانتباه إلى هذا التضاد الذي أشار إليه بعض النقاد، لأنه لا يمكنه أن يحدث إلاّ داخل نقد من التمايزات، حيث يتم توزيع هذا المكونات المتمايزة نسبيا وفق ما يحيل إلى فكرة الانتظام المطّرد الذي هو قدر كل العلاقات النسقية؛ ومن أجل ذلك ترى «يمن العيد» أن التضاد يبني داخل نسق منتظم ويتحقق باطنيا ضمن عوامل المشابهة والتناسب بالأساس[2].

يفهم ممّا سبق؛ أنّ علاقة المشابهة باللّغة علاقة فنية جمالية إمتاعية بالدرجة الأولى؛ لأنها تمنح اللّغة كثافة شعرية عالية، ومن ناحية أخرى، يمكننا القول إن علاقة المشابهة باللّغة في علاقة إقناعية كذلك، ما دامت المشابهة تنشأ كوحدة من الأنساق المكونة للنص الأدبي في عمومه، بداية بالنسق الصوتي ثم الصرفي ثم التركيبي ثم الدلالي، وهي على صعيد كل هذه الأنساق تشكل الجوهر الحقيقي للإبداع.

ج- التوازي في اللّغة العربية:

يعدّ التوازي في البلاغة العربية القديمة قسما من بين ثلاثة أقسام رئيسة للسجع؛ وهي: المطرّف، المتوازن، والمتوازي؛

1)- في الشعرية، كمال أبو ديب، ص: 46.

2)- في معرفة النص، د. يمنى العيد، ص: 32.

- فأمّا المطرّف فهو أن تختلف كلماته في عدد الحــروف، وتتفــق في الحرف الأخير؛ كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ، ولِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1].

- وأمّا المتوازن فهو أن تتفق كلماته في عدد الحروف، وتختلف في نوع الحرف الأخير كقول علي -رضي الله عنه-: «كثرة الحمد لله غير مفقــود **الأنعام** ولا مكافأ **الأَفْضَال**».

- وأمّا المتوازي[2] فهو ما اتفقت كلماته في عدد حروفهــا، ونــوع الحرف الأخير كقول عليّ -رضي الله عنه: «كثرة الوفاق **نفــاق**، وكثــرة الخلاف **شقاق**».

ويمكن قياس الفرق بين المتوازي والمتوازن بحجــم الاتفــاق بينــهما؛ فالمتوازي ينطوي على اتفاق في جميع أوصاف الوحدات، إيقاعا وفي عــدد الحروف، وفي الحرف الأخير[3]. أمّا المتوازن، فإنه يحمل اتفاقا فقط في عــدد حروف الوحدات اللّغوية، ويترع عن الاتّفاق في الحرف الأخير[4]. وكــأنّ التوازن مختصّ بوزن المركبات اللّغوية وثقلها، وحجمها، بينما التوازي مختصّ بتحديد زمن انتهاء الجملة أو بتدعيم ذلك باتفاق الحروف الأخيرة فيما بينها.

يستنتج ممّا سبق تحديده، أنّ سجع التوازي يحمــل اتفاقــا شــاملاً في أوصاف المركبين المتتاليين على خلاف سجع المطرّف وسجع المتوازن، ولعلّ

1)- سورة المدثر، الآيتان: 6-7.

2)- يبدو أن التوازن أقرب إلى التوازي مفهوماً واصطلاحاً أيضاً، وهذا ما سنراه مــع بنية المزدوج باعتبارها وسيلة لغوية من وسائل الإقناع.

3)- أصول البلاغة، كمال الدين هيثم البحراني، تحقيق: د.عبد القــادر حــسين، دار الشرق، د.ط، 1981، ص: 54-55.

4)- المرجع نفسه، ص: 55.

هذا ما يضفي خصوصية الجمالية على الجمل بسعةٍ أكبر، وقَدْرٍ أوفر من النوعين الثانيين وخصوصاً، وأنّ الثقافة البلاغية القديمة تقوم على التشابه وتسعى إلى تحقيقه في جميع أنواعها وأقسامها تحقيقا كاملاً[1].

وبطبيعة الحال، فإن النفس تهتزّ وتطيب لكل جميل، ومن هذا المنطق، فإنّ التوازي هو أقدر أنواع السجع على تحقيق الاتفاق والوصول إلى التشابه التام، الذي بفضله يمكن جماليا ترجيح مركبات لغوية انتهت إلى هذا النوع دون غيره.

وعلى هذا الأساس، يمكن تجاوز الطرح الابستمولوجي واللّغوي للتوازي، ليمكننا الجزم بأن التوازي، ينطوي على كل مركبات أنواع البديع؛ فالتوازي في هذه الحالة مرهون باتفاق تام لجميع أنواع البديع وألوان الكلام، وقد استطاع «محمّد مفتاح» أن يجمع لنا بعض التعاريف المشتركة بين التراث والتعريفات الأجنبية؛ فالتوازي هو[2]:

1- إعادة اللّفظ أو تكريره.

2- التوازن بين الأقوال.

3- التوازي شامل لكل مستويات التعبير.

4- التوازن أنواع.

وإذا كان «محمد مفتاح» قد بحث عن خصوصيات التوازي في كتاب «المترع البديع» للسجلماسي[3]؛ فإنّ التوازي في تعريفات القدامى خاصية غير

---

1)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 115.

2)- التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، ص: 91.

3)- المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد القاسم السجلماسي، مكتبة المعارف، الرباط، 1980، نقلا عن كتاب التشابه والاختلاف، ص: 98.

مقصورة على الشعر؛ وإنّما تتعدّاه لتشمل النثر، ذلك أنّ التوازي في مفهومه العام؛ اتفاق وحدات لغوية فيما بينها من حيث عدد الألفاظ، وعدد الحروف وفي الحروف الأخيرة للتراكيب اللّغوية، وهذا الاتفاق ليس من حقّ الشّعر فحسب، وإنّما من حقّ النثر أن يتوخّاه كذلك تمثّلاً للإمتاع والإقناع(1).

ويفترض مبدئيا أنّ توالي المسافة الزمنية للإلقاء لا يتوقف على تحديد مسافة زمنية وفق السجع أو الجناس، بحيث تتوالى هذه المسافة برتابة واحدة وآلية واحدة، وإنّما يفترض أن تحدّد المسافات الزمنية خارج مفاهيم القصر والطول، الرتابة والفوضى.

حيث إنّ التوازي لا تحدّده التكرارات السريعة والرتيبة الجلية وإنّما يمكنه أن يشكل محوراً لا يظهر في الخطاب، ولكن يمنحه جماليته المطلوبة(2).

وهكذا، يتجلّى التوازي بشكل أعمق في التعبير الشفاهي (الإلقاء) أكثر منه في التعبير الكتابي، نظرا لكونه يساعد على الاحتفاظ بوجوده من خلال تجنيب النص الشفاهي خطر الضياع والنسيان، ولا شك أن عامل التكرار هو أكثر العوامل الشفاهية تجسيدا للتوازي(3).

د– التوازي من المنظور الغربي:

لم يتم البحث في خصوصيات التوازي من جانب البلاغة العربية فقط، وإنّما تناوله الغرب هم كذلك كما سبق الذكر مع «هاليداي» ثم مع «جيرار مانيلي هوبكنس» وذلك منذ 1865 ويعد «هوبكنس» من أشهر شعراء

---

1)– مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 117.

2)– مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 118.

3)– مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 118.

القرن الماضي، وحسب منظور هذا الشاعر فإن التوازي وليد الثقافة القديمة التي يمثلها الشعر العبري، والترنيمات التجاوبية لموسيقى الكنيسة، ثم تلك الأشعار المعقدة للشعر اليوناني والإيطالي والانجليزي(1).

وجدير بالإشارة أنّ الذي شدّ هوبكنس إلى التوازي ليس هو تساوي الصيغ وإنّما السّمة الزخرفية التي تُحلّق في جوّ القصيدة، وهو لذلك يقول: «إنّ الجانب الزخرفي في الشعر، بل وقد لا نخطئ حين نقول بأنّ كل زخرف يتلخّص في مبدأ التوازي»(2)، ومن أجل ذلك فهو يعتقد أنّ التوازي ليس مقصوراً فقط على ما يشبه القافية (ويتعلق الأمر هنا بأشكال الصوت)، وإنما أيضا يتّسع ليلامس أنماط الدلالة، وهو لهذا قسّم التوازي إلى قسمين: توازي المشابهة، وتوازي المخالفة.

ومن منظور هذا الشاعر، فإن توازي المشابهة ينتج عن توافق البنى شكلاً ومضموناً، فهو إمّا أن يكون توازيا غرضه التحسين (الإمتاع)، أو توازيا غايته التأكيد (الإقناع). أمّا توازي المخالفة، فإنه ينتمي إلى التعارض الانتقالي أو التلويني كما سمّاه هوبكنس وعلى حدّ تعبيره فإنّ «التوازي نوعان بالضرورة؛ فإما أن يكون التعارض موسوماً بشكل واضح، وإمّا أنّه بالأحرى انتقالي أو تلويني، والنوع الأوّل فحسب، أي نوع التوازي الموسوم، هو الذي يتعلّق ببنية البيت بالإيقاع (تكرار متوالية معينة من المقاطع) وبالوزن (تكرار متوالية إيقاعية معينة بالجناس وبالسجع وبالقافية»(3).

---

1)– قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 85.

2)– قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 105–106.

3)– المرجع نفسه، ص: 106.

ولا يكتفي هوبكنس بتحديد توازي المشابهة والمخالفة، وإنما يضيف قائلا: «وتكمن قوّة هذا التكرار في كونها تولّد تكراراً أو توازياً مناسبا في الكلمات أو في الفكرة؛ ويمكننا القول إجمالا ونحن نسجّل أنّ الأمر يتعلّق بتروع أكثر ممّا يتعلّق بنتيجة ثابتة، بأن التوازي الشديد الوسم في البنية، إمّا التوازي الناتج عن تحسين، وإمّا التوازي الناتج عن تأكيد) هو الّذي يولّد التوازي الشديد الوسم في الكلمات والمعنى... وتنتمي الاستعارة التشبيه والتمثيل الخ، إلى نوع التوازي المنقطع أو الموسوم، حيث يلتمس الأثر في تشابه الأشياء، وينتمي الطّباق والتباين الخ، إلى ذلك النوع الذي يلتمس فيه المغايرة»[1].

وعلى حدّ تعبير جاكوبسون «يكتشف الباحثون باستمرار في العالم كلّه أنساقاً أخرى من الإبداع الشفوي القائمة على التوازي المقعّد... الأكثر من هذا أنّنا نكتشف بفضل أبحاث الأنثروبولوجيّين الّذين استوعبوا مبادئ المنهاجية اللسانية مثل جيمس فوكس(...) أن الدور الّذي يلعبه التوازي في التراث وفي إبداع الأسطورة يكشف عن إمكانات متجدّدة باستمرار وغير متوقعة في الخصائص البنيوية للتوازي»[2].

وكما أدرك جاكوبسون وجيمس فوكس خاصّية التوازي أدركها أيضا الباحث «بودلير» وسماها بالتناظر واعتبرها حاجة من الحاجات الأولية للذهن الإنساني[3]، أما «دي سوسير وضمن مفهوم النسق الذي يفترض علاقة حركية، فقد كشف في مقال له بعنوان: «الشعرية المصوّتة» أنّه يمكن لنسق التناسبات

1)- قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 47-48.

2)- المرجع نفسه، ص: 107.

3)- المرجع نفسه، ص: 83.

الصوتية والنحوية وبالخصوص التناسبات الثنائية أن توزّع بحريّة تامّة[1].

ولقد استطاع جاكوبسون بدهائه أن يتخلّص من ورطة فقدان التوازي لأداته الإجرائية في تمييز الشعر عن النثر، وذلك بقوله: «ليس التوازي شيئاً خاصّاً باللغة الشعرية، إنّ هناك أنماطاً من النثر الأدبي تتشكل وفق المبدأ المنسجم للتوازي...»[2]، وهو لذلك رصد الاختلافات الموجودة بين الشعر والنثر، بناء على أنّ التوازي في الشعر قائم على البنية الصوتية؛ فوحدات الوزن، والنغم، والتكرار، والعروض، والتطريز، كلها تفرض بنية التوازي، بينما توازي النثر لا يقوم إلاّ على الوحدات الدلالية ذات الطاقة المختلفة التي تُنظِّم بالأساس البنيات المتوازية[3].

ويعتقد معظم النقاد والدارسين أنّ عملية التوازي تنشأ غالبا من تكرار الحالة نفسها، فهي التي تثير في الذهن ميلاً إلى نسق ينطوي على إمكانية تخصيص بنى لغوية معينة بالتكرار، وهي بنى لا يمكن الالتفات إليها دون عامل التكرار الذي حقّقها وعامل التوازي الذي عقبها كحالة شعرية خاصة[4].

هـ- التوازي وشعرية الإلقاء الخطابي وأثرهما في الإقناع:

إنّ كل ما يطبق على إلقاء القصائد الشعرية، ينسحب على الإلقاء الخطابي، ومن أجل ذلك تتّبع شعرية الإلقاء مستويين من التحليل، التحليل النصّي والبحث في بنية **الملفوظ**، والتحليل الخطابي أو البحث في بنية **التلفّظ**.

---

1)- المرجع نفسه، ص: 107.

2)- قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 168.

3)- المرجع نفسه، ص: 108.

4)- شعرية الإلقاء ومقولة التوازي، ص: 137.

فأمّا التحليل النصّي، فهو البحث عن تفاعل العناصر المتكرّرة عبر علاقات التوازي داخل النصّ والمتن اللّغوي، حيث سيتمّ إلغاء جميع البنى النصية الأخرى جزئيا كالبنى الصرفية والتركيبية، والاكتفاء **بالبنية الصوتية**؛ لأنها تشكّل فيما بعد محور تحليل الخطاب(1).

أما التحليل الخطابي؛ فهو البحث في شعرية الإلقاء أو كيف يتناول الخطيب أو الشاعر خطابه بطريقة شعرية، وهو بحث يتناول بالدراسة عوامل الشعرية المساعدة على الإلقاء المؤثّر، إن على مستوى الإمتاع أو على مستوى الإقناع، على أنّ هذه العوامل تقوم أساساً على خاصيّة **التلفّظ** التي لا يمكن بدونها أن تتجلّى الشعرية جوهريا وتتغاير حسب من يؤديها(2).

وإذا كانت الشعرية النصية تتمثل في لحظة توازي البنى اللّغوية والعروضية، فإنّ الشعرية الخطابية تتمثل في توازي الإلقاء (الأداء).

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك نظريات غربية قد حاولت أن تدرس خصائص القراءة الشعرية، وذلك من خلال تسجيل الصوت وفق أدوات علمية حديثة، حيث أسّس بعضها لنظرية الوزن الصوتي بناءً على الاعتقاد الجاد بوجود خصائص للوزن، وللأصوات في عمليات الإلقاء الشعري.

يقول «رنييه ويليك»، و«أوستين وارين» عن نظرية الوزن الصوتي: «تحظى اليوم باحترام كبير، فهي تقوم على استقصاء موضوعي يستخدم غالبا أدوات عملية مثل راسم الذبذبات (Oscillographe) الذي يسمح بتسجيل وحتى بتصوير الأحداث الفعلية خلال قراءة الشعر، وقد طبق تقنيات السبر

1)- شعرية الإلقاء ومقولة التوازي، ص: 134.

2)- المرجع نفسه، الصفحة ننفسها.

الصوتي العلمي على الأوزان «سفرز» و«ساران» في ألمانيا، و«فارير» الذي استخدم في فرنسا موادا نكيزية في معظمها»[1].

وهناك أيضاً دعوة بدأت تتطور في الوطن العربي تدعو إلى دراسة المنطوق والمدلول دراسة تجريبيّة[2]. يقول «صلاح فضل في هذا الشأن: «...إنّ هناك نوعاً من إيحاء التشابه أو التناظر يعتمد على لون من القياس القائم بين المدلول والمنطوق، كما يحدث في حالات النّبر والتشديد والتكرار ممّا يؤكّد وجود طاقة إيحائية كامنة فقي طبيعة البنية الصوتية المناسبة أو المتعثرة الحادة أو الرصينة؛ ومن الحكمة ترك هذه الخصائص لمزيد من الدراسات التجريبيّة...»[3].

إنّ الإيمان العميق بشعرية الإلقاء هو الّذي سيمنح الخطيب القدرة أو التفوّق، وهو الذي سيعيد للشعرية البنيوية اللّفظية خاصياتها المفقودة، وإذا كان الدور الخاص بالشعرية الأدبية هو مسائلة العبارة لا المحتوى كما يقول «جون كوهين»[4] فإنّ الدور الخاص بالشعرية الإلقائية هو مساءلة تلفظ العبارة.

وإذا كانت الدراسات في الشعرية التلفظية الأكوستيكية لم تشرع بعد، واكتفت بالشعرية الخاضعة للسانيات الجملة؛ فإنّ معظم النقاد يتفق على أنّ

---

1)– نظرية الأدب رينيه ويليك وأوستين وارين، ترجمة: محي الدين صبحي، مراجعة د.حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1981، ص:174.

2)– لقد قام الباحث الجزائري زروق داوود بريكسي بتحليل مهارات القراءة على ضوء «نظرية التبليغ» وذلك في رسالة جامعية بعنوان (مساهمة التحليل الكتابي والصوتي لفهم النص: الطريقة التبليغية) بإشراف الأستاذ: س.قوفان– بجامعة الجزائر.

3)– النظرية البنائية في النقد الأدبي، د.صلاح فضل، ص: 471.

4)– بنية اللّغة الشعرية، جون كوهين، ص: 38.

للإلقاء دوراً بارزاً في إضفاء جمالية معينة. يقول رجاء عيد: «... لا يمكن أن ننكر أنّ فاعلية «النصّ» تكتسب حرارة عن طريق أدائه، ولا جدال في أنّه يمكن أن تؤدّى قصيدة ما بطرائق مختلفة على لسان عدة مؤدّين، حيث نجد أنّ كلاً منهم يضغط على وجه من أوجه القصيدة، فذلك يهتم بالإيقاع النغمي، وذلك يهتمّ بالأجزاء السيمانطيقية، وثالث يهتم أو يركز على التركيبات الشعرية، ومهما يكن للنصّ من جدل حول هذه النقطة، وبغضّ النّظر عن قارئ النصّ، فسوف تظلّ بنيته غير المتغيّرة وله –كذلك– خواصه السمعية التي يكمل بها ككل»[1].

وبناءاً على هذا التصوّر، فإنّ فنّ الإلقاء يعتمد على عنصر هام ألا وهو حسن مخارج الأصوات، فلا يكون ثمّة مرض من أمراض الكلام، مثل ثقل اللسان، أو فتحات الأسنان، ممّا يتولّد عنه نوع من التأتأة أو الثأثأة، وإلى جانب ذلك لابدّ –كما سبق الذكر– من المعرفة التامة ببلاغة اللّغة والإحساس الشديد بتمثلها؛ لأنّ هناك لوناً من الإلقاء يحتاج إلى التتابع والتلاحق، وهناك نمط يحتاج إلى التأني والضغط على بعض المقاطع، وهناك نوعاً يحتاج إلى التقرير أو الإنشاء أو الحضّ أو التمنّي أو الاستفهام أو التعجّب،... أو القطع أو الوصل وكلّ هذا لابدّ له من التمرّس[2].

ولا يخفى على أحد أنّ الإلقاء موهبة من الله يمنحها الله لكثير من الأشخاص، ثمّ تأتي مرحلة الصقل بالتدريب، فكم من شاعر لا يستطيع إلقاء شعره، وكم من كاتب لا يستطيع التعبير عن حاجة نفسه في صورة كلامية،

1)– القول الشعري، د.رجاء عيد، ص: 204.

2)– الخطابة العربية وفنّ الإلقاء، ص: 98.

وطريقة الإلقاء تجود وتعظم كلما كان الخطيب أو الممثل قد انفعل بموقفــــه، وفهم حقيقة دوره وجوانب الموضوع الذي سيعالجه، وإحـــساسه الـــشديد بالنسبة الكلامية، والقدرة على التجسيد والتشخيص والتصوير كلما كـــان أقدر على التأثير والسيطرة على متاعب المستقبلين[1].

هــ-1- الإيقاع الخطابي:

هــ-1-1- البنية الصوتية: يضع أرسطو الصناعة الصوتية في الخطابة في مترلة وسط بين النظم المطّرد الوزن والنثر المرسل؛ وهو لذلك يرى أنّ «شكل المقالة ينبغي أن يكون غير ذي وزن ولا عددٍ فإنّ ذلك النّحو غير مقنع لأنــه يظنّ أنّه مختلق أو يراد به التعجب... فأمّا الاسم اللاموزون (الّــذي بــدون إيقاع) أي السّخيف فإنّه لا متناهٍ (غير محدّد). وينبغي أن يكون متناهياً بشيء وليس بوزن، فإن الّذي لا يتناهى شيء وهو خفيّ مشكل، فقد ينبغي لذلك أن يكون للكلام نبرات[2] وأما وزن فلا»[3].

يفهم من كلام أرسطو هذا أنّ النثر الخطابي ينبغـــي إذن، أن يكـــون إيقاعيا غير مطّرد الوزن ولذلك يفضل أرسطو العبارة المقسمة المتقابلة علـــى العبارة المسترسلة، أي يفضل العبارة التي يدرك الطّرف نهايتها، «وذلـــك أنّ الكل يسرّون إذا رأوا النهاية. وقد ينبغي أن يكون للعطف وللمعنى معاً منتهى وألا يتقاطعان كمثل الشعر»[4].

---

1)- الخطابة العربية وفنّ الإلقاء، ص: 98.

2)- النبرات: أي الإيقاع.

3)- تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 283-284.

4)- الخطابة، أرسطو، ص: 8، نقلا عن: بلاغة الخطاب الإقناعي، د.محمد العمري، ص:113.

ومن منظور «أدونيس» فإنّ النشيد (رفع الصوت) جسد مفاصله الوزن والإيقاع والنغم، وعلى أحكامه الغنى تتوقف استجابة **السمع**، فالنشيد فنّ في الصوت يفترض فنّا يقابله هو فنّ **الإصغاء**، وقد تمّ هذا الإحكام بالتوصّل شيئاً فشيئاً إلى ابتكار بنى إيقاعية خاصّة(1).

وبديهي أنّ الثقافة الشفاهية تتأسّس محوريّاً على مبدأ **السماع**، وإذا كانت كلمة بلاغة (Rhétorike) تعني «الكلام أمام الناس» أو «الخطابة»(2) فإنّ لـ«والترج أونج» رأيا آخر يتمثل في كون أنّ كلمة بلاغة «ظلت دون تأمّل أو إعمال فكر في الغالب لمدّة قرون – حتى في الثقافات الكتابية والطباعية– نموذجا لكل خطاب؛ شفاهيا أو مكتوباً(3).

وإذا كان أرسطو يعتقد أن للإيقاع دوراً أساسيا في التعبير الخطابي يهزّ الأذن، ويحرّك النفس، فإنّه قد حظّر سلفا –كما سبق الذكر– على الخطيب استعمال الكلمات الموزونة تجنّباً للتكفّل والتصنّع؛ ولهذا فهو ينصح الخطيب بأن تكون الجمل «ذات أجزاء لا طويلة ولا قصيرة، يسهل النطق بها في نفس واحد، لأنها لو كانت جدّ طويلة ملّها **السامع**، وتخلّف عن متابعتها، وإذا جاءت جدّ قصيرة فاجأته فجعلته يضيق بها كأنّما تعثّر فكره»(4).

وبعد كلّ هذا، فإنّ أيّ عملية إلقائية أدائية لا تتحقّق إلا على مستويين: المستوى الصوتي للغة، والمستوى الدلالي؛ فالأوّل يشكل البنية الأساسية التي

1)– الشعرية العربية، أدونيس، ص: 09–10.

2)– الشفاهية والكتابية، والترج أونج، ص: 57.

3)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4)– النقد الأدبي الحديث، د.غنيمي هلال، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1973، ص: 99.

تحدّد للمستوى الدلالي طريقه إلى الأذن، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقع المستويان على نفس القدر من التعادل والمساواة، لأنّ ذلك سيحقق للغة توازنها الذي تتصف به اللغة النثرية (الخطابة)، بينما تصبح اللّغة الشعرية أميل إلى الصوت بكل مكوّناته اللسانية وغير اللسانية(1).

وعلى هذا الأساس، فإن المستوى الدلالي المبني أساسا على صعيد سيكولوجي وعلى صعيد نحوي لا يمكنه أن يميّز الشعر عن النثر؛ لأنّه كثيراً ما تتميّز به اللغة التواصلية الهادفة إلى إيصال الفكرة، بينما يشكل الصوت محور الواقعة الشعرية.

هـ-1-1-1- توازي البنية الصوتية:

* توازي المواقع: ينشأ توازي البنية الصوتية انطلاقاً من تكرار الوحدات المعجمية المتماثلة بينها، ولا ينبغي أن يشرع في تحليل البنية الصوتية بهدف التأكّد من توازياتها إلاّ بعد تحديد مواقع معينة داخل هذه البنية نفسها.

وعلى الجملة، ينطلق توازي البنية الصوتية ابتداءً من المكان الذي يمكن أن تتولّد فيه البدائل؛ لأنّ هذه البدائل لا تنطوي إلاّ على دلالة بنوية جمالية أو معنوية في داخلها أو كما يقول «صمويل-ر- ليفني»: «لا يتولد البدل صدفة في أيّ مكان»(2)، وهذا هو ما يسمى بالموقع؛ ولا يسمّى موقعا إلاّ إذا ضمن الاستبدال في السلسلة اللّغوية، ممّا يحقّق ذلك التجانس والانسجام والجرس الموسيقي أو ما يسمّى بالتماثل(3).

1)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 137.

2)- البنيات اللسانية في الشعر، صمويل-ر-ليفين، ص: 27.

3)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 142.

* توازي الصوت: من الناس من يسمع الإنسان صوته محدّثا أو قارئاً أو خطيباً، فيشعر بنغماته تثير ارتياحه، وبرنينه يهزّ إحساسه، وبعمقه يصل إلى أبعد غور في نفسه، وبتشكيله بأشكال مختلفة؛ يتّضح المعنى، وينكشف المبهم. ومن الناس من تسمع منه أجمل العبارات، وأجود الألفاظ الدالة على المعاني، فترى العبارات، قد فقدت جزءاً كبيراً من بهجتها، وذهب من المعاني أكثر روعتها؛ مما يدلّ على أنّ للأصوات أثرا كبيراً في وقع الكلام أو قبحه[1].

ويبدو واضحاً أنّ المرجع في تأثير هذه العبارات لا يعدد إلى جمالها أو قبحها، ولكن إلى ركوزها وعمقها، ورياضتها على تصوير المعاني، وجودة نقل الخواطر؛ لأن الأصوات والألفاظ تتآزر في الدلالة على المعاني النفسيّة، ولا شيء كالصوت يعطي للألفاظ قوّة وحياة، وحسن استخدامه يخلق جوّا عاطفيا يضل السامعين، ويستولي على قلوبهم وعقولهم[2].

لذلك يجب على الخطيب أن يروّض نفسه على تصوير المعاني، وأن يجعل من نغمات صوته، وارتفاعه وانخفاضه دلالات أخرى فوق دلالة الألفاظ، فلا يخفض صوته حتى يصير همسا في آذان المستقبلين ولا يرفع صوته حتى يصبح صياحاً، بل يكون بين هذا وذاك وبين المرتبتين متسع لفنون القول، ودرجات الكلام، وأنواعه وغاياته[3].

هذا عن الصوت المؤدّى، أمّا توازيه، فإنه ينشأ بناءاً على تكراره المتدفق في سياق النص، وهو التكرار الذي يضفي على الصوت رمزية معينة تشير إلى

1)- الخطابة العربية في أزهر عصورها، ص: 120.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- الخطابة العربية في أزهر عصورها، ص: 120.

دلالة خاصة، فالنص مهما كان ليس –في الواقع– إلاّ ركاماً وتكراراً لنواة معنويّة موجودة قبل[1]، وهذا الركام يمنح انتباها مهمّا ودقيقا ومركّزا على الصوت المقصود بالتكرار.

ومهما يكن، فإن للأصوات قيمتها التعبيرية التي ترجع إلى طبيعة تلك الأصوات؛ فالصوت المهموس يتصف بالرفاهة والهمس، وهما صفتان تبعثان على التأمّل والتقصّي العميق لجوانية اللّغة، وفي حالة طغيان أصوات الهمس يزداد تأثير الصوت على حاسة البصر، بمعنى أن الأصوات المجهورة تصلح لرفع الصوت، أمّا الأصوات المهموسة فالتعامل الأمثل معها يتم عن طريق القراءة.

وعلى هذا الاعتبار، يبدو أنّ توازي النّص قائم على الأصوات المهموسة، أمّا توازي الخطاب فهو قائم على الأصوات المجهورة نسبيّا، ولهذا وسّع «غرامون» من مفهوم القيمة التعبيرية للأصوات بقوله: «نُحدّد القيمة التعبيرية للأصوات باعتبارات خارجة عن الأشعار التي تستعمل فيها تلك الأصوات، فقيمتها التعبيرية ترجع إلى طبيعة تلك الأصوات نفسها، وإنّ الأشعار تأتي فيما بعد إلاّ شبيهة بأمثلة مخصّصة للبرهنة على النظرية»[2].

وهكذا يمكن للأصوات أن تعمل على تكثيف المعنى من خلال معانيها الذاتية[3] وبفضل التراكم يصبح لرمزية الصوت مكان تتجسّد فيه الدلالات

1)– تحليل الخطاب، د.محمد مفتاح، ص: 65.

2)– Introduction à l'analyse linguistique de la poésie, J. Molino et J. Tamine, P.U.F, Paris, 1982- P58-59.

– نقلا عن تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 34.

3)– الشعرية والتجربة، أرشيبالدمكليش، ص: 67–68.

والمعاني على أن هذا التراكم –على حدّ تعبير محمد مفتاح– هو أحد مؤشرات التأويل للرمزية الصوتية إلى جانب السياق الملائم[1]. ومن هذا المنطلق يشكل التراكم الصوتي للنواة ظاهرة التوازي المستمر.

* توازي المعجم الصوتي: لم يعد تكرار الصوت مقتصرا على ذاته بفرادها، وإنّما على ذاته ضمن الكلمة نفسها، فالتكرار المعجمي ليس في الواقع إلاّ تكراراً للصوت، وتكرار الوحدة الصوتية الدالة يخلق نوعاً من توازي الأصوات من خلال تراتبية نغمها، ومعنى الخطاب يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر ممّا يثيره بناء الكلمات كمعان، وما ذلك التكشف الذي نشعر به في أيّ خطاب إلاّ نتيجة لبناء الأصوات[2].

* توازي القلب: أصبح الجناس عملا مقصوداً في بعض الأعمال النثرية، لا لخلق توازٍ فقط، وإنّما بناءاً لرمزية معينة، رمزية تتجاوز حدوداً الفونيمات إلى المستوى التركيبي لها؛ كما ينبثق التوازي أيضاً من الاستبدالات الواقعة على المحور النسقي لا على المحور التراصفي[3].

وعلى العموم ينعم رفع الصوت بكثافة المعنى وشحنة الدلالة، إذ يرتبط بالبنية الصوتية بمختلف مستوياها؛ الموقعية والرّمزية والصفاتية ممّا يزيد شعرية الخطاب. يقول أرشيبالد مكليش: «...إن الكلمات كأصوات هي مطاوعة مرنة، وأنّ معانيها قد تتضاعف بتكييف أشكالها وحركاها في الأذن...»[4].

1)– تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 36.

2)– الشعر والتجربة، أرشيبالدمكليش، ص: 23.

3)– مقولة التوازي، وشعرية الإلقاء، ص: 148.

4)– الشعر والتجربة، ص: 27.

فالباحث «مكليش» بحث هنا عن أهمية الإصغاء الجيّد إبّان الاستماع إلى نص أو خطاب، مستنتجا أنّ هناك ماهو مفهوم للأذن أكثر ممّا هو مفهوم للعين، وذلك أن طريقة ترتيب الأصوات هي التي تعمل على تحريف المعاني أو مضاعفتها فيها(1).

* <u>المقطع</u>: يعتبر المقطع بمثابة الوحدة الأساسية التي يؤدّي الفونيم ضمنها وظيفة(2) وهو أيضا الوحدة التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر أو نغمة واحدة(3)، كما يعرفها «روبنس» بقوله: «وقد تأسس مفهوم المقطع بناءً على الإسماع»(4) الذي ينطوي ضمنيا على خاصية الزمان.

ومن موقع الإلقاء يمكن تفصيل المقطع بحسب القصر، والتوسّط، والطول، وهي مقاييس ترتبط غالبا بالمستوى التلفظي أكثر بكثير من المستوى الملفوظي(5).

ويعدّ المقطع في الرتبة الثانية بعد الفونيم، إذا ما تمّ ترتيبه وفق السلم الهرمي المتوسط الذي جاء به محمد مفتاح حسب ماهو شائع في العربية(6)، بينما يأتي النبر والتنغيم في المرتبتين الأخيرتين.

---

1)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)– Barres of phinology, steton R.H.Ohio, 1945, P17.

– نقلا عن كتاب دراسة علم الأصوات، للدكتور أحمد مختار عمر، ص: 243.

3)– General linguistices, Robins R.H.GB, 1966, P138.

– نقلا عن د.أحمد مختار عمر، ص: 242–243.

4)– دروس في الألسنة العامة، فيرديناند دي سوسير، ص: 28.

5)– شعرية الإلقاء ومقولة التوازي، ص: 151.

6)– تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 46.

* توازي المقاطع: إذا كان المقطع يتحدّد من الصوت القائم على الإسماع كما عرّفه «جسبرسن» فإنّ **الإلقاء** لا ينبني على الاحتفاظ بأنواع المقاطع وبتحديدها، بقدر ما يسمح للصوت بالبحث عن التنويع في التموجات التعبيرية[1].

هـ–2– شعرية الخطاب:

هـ–2–1– النّبر: يرتبط النبر بشكل دقيق **بالتلفّظ**، فهو يتحدّد وفق المقطع الذي يشمل على جهد عضلي زائد، بالمقارنة مع المقاطع الأخرى في الكلمة أو الجملة ويحتوي النبر على تعريفات عدّة منها:

* النبر: «إضافة كمية من الطاقة الفيزيولوجية لنظام إنتاج الكلام... موزّعة على القنوات الرئوية والتصويتية والنطقية»[2].

* النبر هو: «انطباع من طاقة زائدة في النطق للمقطع المنبور ينتج عنها نطق المقطع أعلى وأطول من المقاطع الأخرى في نفس الكلمة»[3].

* النبر هو: «اسم يعطي الجهد العضلي الأقوى الذي يمكن أن نشعر به متصلا ببعض المقاطع في مقابل مقاطع أخرى»[4].

---

1)– شعرية الإلقاء ومقولة التوازي، ص: 152.

2)– Premilinaries of linguistics phonitics, Peter la Defozed, U.S.A, 1971, P:82.

– نقلا عن.دراسة الصوت اللّغوي، د.أحمد مختار عمر، ص: 187.

3)– An introduction to general linguistics, F.P.Dinneen, U.S.A, 1967, P41.

– نقلا عن دراسة الصوت اللغوي، د.أحمد مختار عمر، ص187.

4)– Phonetics Gummer O.J.D, penguin books, 1973, P : 94.

– نقلا عن نفس المرجع، نفس الصفحة.

* النبر: «هو البروز المعطى لمقطع واحد، داخل ما يشكل الوحدة الـــتي تطابق في معظم اللّغات ما يسمّى بالكلمة»[1].

ولهذا تمّ تقسيم النبر إلى أقسام ثلاثة هي[2]:

- النبر القوي.
- النبر المتوسط.
- النبر الضعيف.

ويرتبط النبر بالدلالة الإضافية التي يتم اكتسابها من خلال **التشديد** الذي يعني **التأكيد** أو **الانفعال**، وكذا من خلال **التخفيف** الذي يعـــني **الرغبـــة** في **الهدوء**[3] يقول الدكتور «زوبير دراقي»: «...إنّ النّبرة المقطعية ماهي إلاّ ارتفاع في الصوت، ومثل هذا الأمر لا يحدث بالمصادفة في اللّغة؛ لأنّ المتكلم مجبور على استعمال النظام اللّغوي بكل ما فيه، أي دونما زيادة ولا نقصان»[4].

يستنتج من هذا الرأي أنّ الوظيفة الإدغامية في إحدى وظائف النـــبر، «ومفادها أنّ النّبرة تساهم في إظهار القيمة التعبيرية لبعض أجزاء الجمل التي تلحق بها»[5].

---

1)- Elément of general linguistics, André Martinet, London, 1964, P: 100.

- نقلا عن نفس المرجع، ونفس الصفحة.

2)- دراسة الصوت اللّغوي، أحمد مختار عمر، ص: 150.

3)- Introduction, to phonetics, Bromahah, L.F and dalriduction, cambidge, 1970, P: 157.

- نقلا عن: دراسة الصوت اللّغوي، أحمد مختار عمر، ص: 190.

4)- محاضرات في اللسانيات العامة، د.زوبير دراقي، ص: 93.

5)- المرجع نفسه، ص: 94.

ويرتبط النبر بالمدّة ومن خلالها يتمتّع الكلام بإيقاع حافل بالامتدادات الصوتية[1] يقول «دانيال ديلا»: «إنّ إيقاع الكلام يستحق إدراك المقاطع المسجّلة موضوعيا من خلال الشدّة، المدّة، والارتفاع؛ إنّ إدراك المدّ ينتظم حول عامل مسيطر، ولكن هذا العامل صعب عزله...»[2].

ومزن منظور «دانيال ديلا» يفهم أنّ النبر يتحدّد من خلال عامل المدّة أو عامل الشدّة أو عامل الارتفاع، ومعنى هذا أنّ النبر ماهو إلاّ استخدام إشارة لتمثيل قوّة أكبر[3].

وبفضل التقسيمات الثلاثة للنّبر، يمكن أن تتشكل سياقات تنغيمية معيّنة، تأتي وفق ترتيب وسيطرة أحد الأنواع الثلاثة (الضعيف، المتوسط، القوي).

هـ–2–2– التنغيم: بعد رأي أرسطو في: «أنّ الدافع الأساس للشعر يرجع إلى علتين: أولهما غريزة المحاكاة أو التقليد، والثانية غريزة الموسيقى أو الإحساس بالنغم»[4] تطرّق التراث العربي إلى دراسة هذه الخاصية وأدرك قيمتها ابن جني في خصائصه بقوله: »...وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأمّلته وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلا فتزيد في قوّة اللّفظ بـ«الله» هذه الكلمة، وتتمكن من تمطيط اللاّم، وإطالة

1)– مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 160.

2)– Linguistique et poétique, Daniel delas, jacques filliolet, librairie larousse, 1973, P140.

– نقلا عن شعرية الإلقاء ومقولة التوازي، ص: 160.

3)– شعرية الإلقاء ومقولة التوازي، ص: 160.

4)– موسيقى الشعر، د.إبراهيم أنيس، ص: 14.

الصوت بها وعليها، أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريمــاً أو نحــو ذلــك، وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً، وتمكن الصوت بإنــسان وتفخمــه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك»[1].

ويبدو واضحاً من خلال كلام ابن جنّي أنّ ما نادى به هو نفسه الــشيء الذي نادى به «هاليداي» في علاقة التمديد بالإطالة (يضاف إلى) أو بالتعظيم.

أما الدكتور تمام حسان فقد عرّف التنغيم بقوله: «...التنغيم هو الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة في السياق، فالجمل العربية تقع في صيغ وموازين تنغيمية هي هياكل من الأنساق النغمية ذات أشكال محدّدة، فالهيكل التنغيمي الذي تأتي به الجملة الاستفهامية وجملة العرض، غير الهيكل التنغيمي لجملــة الإثبات وهنّ يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكّدة،فلكلّ جملة من هذه صيغة تنغيمية خاصة، فاؤها وعينها ولامها وزوائدها وملحقاتها نغمات معينة بعضها مرتفع وبعضها منخفض، وبعضها صاعد من مستوى أسفل وبعضها هابط من مستوى أعلى»[2].

وللتنغيم دور دلالي؛ فهو كخاصية أدائية يمنح الكلام معنــاه الحقيقــي والذي تجرّدت منه أثناء الكتابة، وهو بذلك يكتنز طاقة دلالية تحفظ للكــلام المؤدّى شحنته وكثافته، غير أنه لا يخضع للتقطيع، لذا رأى بعض اللــسانيّين أنه طبيعة فيزيائية خارجة عن الدراسة اللسانية[3].

---

1)– الخصائص، ابن جنّي، ج2/371.

2)– اللّغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان، الهيئة المصرية، 1989،ص: 227.

3)– محاضرات في اللسانيات العامة، ص: 95.

وههنا يصعب تحديد توازي المنطوق، خصوصا إذا تعلق الأمر بالتنغيم، لكن شعريته تنحو منحى آخر في تعاملها مع التوازي؛ إذ يصبح التنغيم تكراراً لما في الذات من إيقاع ونغم، وما فيها من شعور متزايد بالاهتمام الموسيقي، ثم يوازيه لذلك فإنّ »...الكلام الموزون (ذا) النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً عجيباً، وذلك لما فيه من توقّع لمقاطع خاصّة تنسجم مع ما نسمع...»(1).

وهكذا، فإنّ تحقيق التنغيم للتوقع الإيقاعي، هو الذي يزيد فيه كثافة، ويمنحه توازيا لا يرتبط بالمكتوب بقدر ما يرتبط بالمنطوق، خصوصا وأنّ **الأذن** أصبحت المتلقي الخالص بعد أن كانت العين تستحوذ على شعرية النص بمفردها(2).

ولهذا فإن الأعمال الأخيرة لـ«ب.ديلاتر» حول قانون المصوّتات (Vocalisme)، قانون الإيقاع والتّناغم (Consontisme) وحول الجوهر الأكوستيكي للسمات المميّزة تضمن أكبر حفاظا داخل المقاربة المعنية ببناء المواد التنغيميّة(3) وعلى حدّ تعبير «هوبكنس» فإنّ التوازي النغمي ماهو إلاّ عبارة عن تطابق موسيقي(4) ولعلّ هذا الّذي يجعلنا نعتقد بأنّ توازي التنغيم ينشأ من تكرارات الأسماء والأفعال والبنى اللّغوية عموما، وأن الصيغة التنغيمية تنحى منحى نغميا خاصا بالجملة، ممّا يعين على الكشف عن معناها النحوي(5).

---

1)- موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص: 13.

2)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص162.

3)- Linguistique française, D. Manguenau, Tome2, P120-121.

4)- قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون، ص: 88.

5)- اللّغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان، ص، 226.

وخلاصة القول، إنّ البحث عن توازيات النغم أثناء الإلقاء يعتمد على الحدس والحسّ الفنيّين، ولكنه يبقى أنّ تكرار النغم هو الّذي يمنح للخطاب صفاءه وجماله.

هـ-2-3- الوقف: نشأ مفهوم الوقف عند العرب من خلال علم القراءات للقرآن الكريم، ودرسوا هذه الخاصية من كل الجوانب اللّغوية[1]، وكان الوقف حينذاك ميزة الرّجل الفصيح المبين، الّذي إذا تكلم التفت إلى مقاطع كلامه بالوقف[2]. فالنحاة القدامى حينما طرقوا علم قراءات القرآن استخدموا الوقفة وسموها بالوقف، وطلبوا من هذه المعرفة أهدافا لغوية ونحوية ودينية؛ لأنّ الوقفة تروم تصويب اللحن، وتحدّد مقاطع الكلام، وتحقق الإصابة في المعنى، ولهذا يقول أبو بكر محمد الأنباري: «ومن تمام إعراب القرآن ومعانيه وغريبه معرفة الوقف والابتداء فيه، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف الأتمّ والوقت الكافيّ الذي ليس بتمام، والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كافٍ»[3].

وبعيدا عن المعرفة الدينية بالوقف، أَوْرَدَ أبو هلال العسكري أن الأحنف ابن قيس قال: «ما رأيت رجلاً تكلّم فأفصح، ولا عرف حدوده إلاّ عمرو بن العاص -رضي الله عنه- كان إذا تكلم تفقّد مقاطع الكلام وأعطا حقّ المقام، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج حتى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبعيته من الألفاظ»[4]. ويصطلح بعض الدارسين على الوقف بمصطلح

1)- المدخل إلى علم الأصوات، د.صلاح الدين حسين، ص: 46-47.

2)- نفس المرجع، ص: 47.

3)- المدخل إلى علم الأصوات، د.صلاح الدين حسين، ص: 47.

4)- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 315.

«المفصل» ويقصدون به سكتة خفيفة بين كلمات أو مقاطع في حدث كلامي، بقصد الدلالة على مكان انتهاء لفظ ما أو مقطع ما وبداية آخر(1).

هذا عن بعض الدارسين العرب، أمّا الدارسين الغرب فإننا نجد أن جون كوهين يحدّد الوقف بقوله: «إنّ الوقف في الأصل هـي حـبس ضـروري للصوت حتى يسترجع المتكلم نفسه، فهي في حدّ ذاته لا تعـدو أن تكـون ظاهرة فيزيولوجية (...) محملة بدلالة لغوية»(2) ولكن «لوري تينيـانوف» يرى بأنّ الوقفة تصبح عنصراً متجانساً للخطاب، يتم التعبير عنها سماعيـا، كما يتم التعبير عنها بصريّاً(3).

ونظرا لتعلّق الوقفة بما تفرضه ضرورة الخطاب التي يتجانس فيها الوقف مع المعنى العام، ربط جون كوهين الوقف بالتنغيم، فإمّا أن يكـون التنغـيم صاعداً بالصوت كنهاية جملة الاستفهام، وإمّا أن يكون منحدراً كنهاية جملة النفي، ولكنه ينتهي دائما إلى الوقف، كما أنّ علامات التنغيم هي في الوقت نفسه علامات تدلّ دائما على الوقف(4).

وعلى هذا الأساس، عمل جون كوهين على إطباق الوقفة الصوتية مع الوقفة الدلالية؛ لأنّ فهم الخطاب يعني تقسيمه على حسب معناه إلى فصول وفقرات وجمل وكلمات، كما أنّ وقفة المعنى لا شكّ في أنّه تصحبها وقفـة

1)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)– بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ص55.

3)– Le vers lui-même, Louni Tynianov, P : 58.

– نقلا عن الشعر العربي الحديث، محمد بنّيس، ج139/1.

4)– بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ص: 70.

صوتية تمنحها طابع الاستقلال الدلالي أو الانفصال المعنوي للكلام[1].

وبعد دراسته لخاصية الوقفة، يخلص جون كوهين إلى أنّ الوقفات الإيقاعية مع الوقفات الدلالية؛ هي من سمات النثر لا الشعر؛ والمرجع في ذلك هو أنّ الشعر غالبا ما يتميّز بالوقفات التي لا علاقة لها بنهاية الدلالة[2].

وهكذا، تتفاعل الوقفة مع باقي العناصر المكونة للخطاب؛ كالوزن، والتنغيم، ممّا يضفي على الخطاب شعرية معينة على المستوى التلفظي؛ ولأنّ الوقفة سمعية في جوهرها فإنها ترتبط بوجه الخطاب أكثر من ارتباطها ببنية النص؛ وهي لذلك تتبع مجالاً للإدراك السمعي بدلا من الإدراك البصري.

II–2–3– بنية الازدواج:

من المعروف أنّ «المزدوج» من أقسام الشعر وهو ما أتى على قافيتين قافيتين إلى آخر القصيدة، ولكن يمكن النظر إلى «المزدوج» في النثر على أنّه من باب حكايته بنية إيقاعية جوهرية في الشعر ذات تأثير سمعي وعاطفي في **المستمع** وهذا للوهلة الأولى فقط، ولكننا نحسبه أصيلا في نثر لغة ذات أصول شفاهية[3].

ومن منظور البيانيّين، عولج المزدوج مظهرا من مظاهر الجودة في صناعة الكلام، ومن جملة ما ذكره القدماء عن الازدواج وما اختاروا له من نماذج من كلام العرب[4]:

1)– المرجع نفسه، ص: 55–56.

2)– المرجع نفسه، ص: 56.

3)– النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص: 78.

4)– البيان والتبيين، ج116/2، كتاب الصناعتين، ص: 260–265. المثل السائر، ج291/1.

1- أن الازدواج تكوينات كلامية متوازنة الأجزاء في عدد وحداتها اللّغوية وهيئات ترتيبها وفواصلها.

2- أنّ الازدواج يقع أيضا، على رغم الاختلاف بين الأجزاء في أحد الاعتبارات الثلاثة السابقة بل في اعتبارين اثنين منها أحيانا.

3- إذا لم يقع التوازن بين الأجزاء في الطول، فالأفضل أن يكون الجزء الأخير الأطول، وإن كان ورد في كلام العرب الفصحاء ما كان فيه الجزء الأخير أقصر.

4- توازن الأجزاء توازنا كليا أجمل وجوه التوازن.

5- فضلا عمّا للتوازن من أثر سمعي إيجابي في رونق الكلام فإنّ له علاقته بتمكين معناه.

فمن الناحية الدلالية، تتقاطع حالات التوازن مع حالات ينتظمها تكرير المضمون -كما سبق الذكر- كما ينتظمها التقابل والتخالف؛ فقد تجمع الجملتان معاً بين التوازن والتكرير المضمون، أو يجمع جزآن في جملتين، وقد يجمع بين التوازن والمقابلة، أو بين التوازن والمخالفة في المعنى[1].

ومن منظور محمد العبد، تمثل حالات تقاطع التوازن بالتكرير المضموني ما يقارب ثلاثة أرباع حالات تقاطعه مع الحالات الدلالية الأخرى بين الأجزاء المتوازنة، وهذه مسألة مهمة للغاية لكل من التوازن والتكرير المضموني، وذلك أن قدراً من العبارات والجمل المتوازنة على مستوى الشكل والمترادفة أو شبه المترادفة على مستوى المضمون تعدّ المنطقة المركزية الأهم

1)- النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص: 80.

التي تتفاعل فيها البنية والدلالة وتشتغلان معاً في النص الإقناعي العربي وقد تهيأت له مكوناته الحجاجيّة المختلفة قصدا إلى تثبيت التبرير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصدق دعوى الحجاج[1].

وإذا كان التوازي بمفهومه الاصطلاحي –كما رأينا آنفاً مع «هاليداي»– بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات **دلالية منطقية**، فإنّ التوازن على نحو ما يرى محمد العيد بنية تركيبية تربط بين عنصريها علاقات **سمعية** من طول وزينه وفاصلة تعكس فكرا مرتبا متزنا مقنعا[2].

والحقّ، إنّ بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين قد خلط خلطا ذريعا بين التوازي والتوازن، وبين التوازن والإيقاع؛ فمن الخلط بين التوازي والتوازن ما ذكره «عدنان جبّوري» و«باربرا جونسون كوتش» من حالات للتوازي تعدّ من حالات التوازن[3]. فقد حلّل «عدنان جبوري» نصّاً حجاجيا لمصطفى أمين في عموده الذي لقب بعنوان –«فكرة»– ومن أمثلة هذا الباحث على التوازي في هذا النص قول مصطفى أمين: «وكم من أحزاب حكمت ثمّ حوكمت، وتولت ثمّ اندثرت، وارتفعت ثم سقطت»[4].

---

1)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)– النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص: 80.

4)– The role of repetition in Arabic argumentative discourse : Al-Jubouri, A.J.R: in swoales.j and H.Mustafa (eds): English for specific purposes in the Arabic would Birmingham, Languages cervices unit Aston uni, 1984, P:99-117, P102.

– نقلا عن النص الحجاجي العربي، ص: 80.

أمّا باريرا جونسون»، فقد حلّلت نصوصا حجاجية يعـــود زمنـــها إلى النصف الثاني من القرن العشرين ومن أمثلتها على التوازي النصّان التاليان:

1)- «ظلّ الألمان منقسمين بين عشرات الدول والدويلات المـــستقلة، وظلّ الطليان موزّعين على ثماني وحدات سياسية، والبولونيون مقسومين بين ثلاث دول قوية، واليوغلسلافيون خاضعين إلى حكم دولتين عظيمتين»[1].

2)- «**فكان من الطبيعي** أن تنشأ الفكرة القومية، وتترعرع وتقـــوى بسرعة كبيرة في البلاد الألمانية بعد النكبات التي توالت عليها خـــلال تلـــك الحروب، **وكان من الطبيعي** أن ينتشر فيها الإيمان بوحدة الأمة الألمانية **وكان من الطبيعي** أن يدفع هذا الإيمان مفكري ألمانيـــا وساســـتها إلى مكافحـــة النَزعات الإقليمية بكل قوّة وحماسة»[2].

وبعد تحليلها للنصين؛ ترى الباحثة «باربرا جونسون» أن النـــوع الأوّل من التوازي يسمّى «**بالتوازي الكاشف**» (Listing parallelism)؛ وعلـــى حدّ تعبيرها؛ هو نوع من التوازي الضيّق المحكم بين عبارات كاملة، تتميـــز بأنها أجزاء من النص، تكشف عن أمثلة وتفاصيل[3].

1)- Presentation as proof 7 the language of Arabic Rhetoric: Barbara koch, P:50.

- نقلا عن مثال النص الحجاجي العربي، ص: 80.

2)- Presentation as proof 7 the language of Arabic Rhetoric: Barbara koch, P:50.

- نقلا عن مثال النص الحجاجي العربي، ص: 80.

3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلا عن نفس المرجع، ص: 81.

وفي حين آخر؛ تسمّي توازي عبارات النصّ الثاني «**بالتوازن التراكمي**» (Cumulative parallelism)، وتعرّفه بأنه نوع من التوازي غير التام؛ وهو تراكمي لأنّ العناصر الثلاثة «**كان من الطبيعي**» من نوع التأثير التراكمي، وذلك أن كل عنصر يبنى على العنصر الذي يسبقه[1].

وبعد إطلاع «محمد العبد» على ما قدمه كلّ من «عدنان جبوري» و«باربرا جونسون» فيما يخص مسألة **التوازي**، يكشف لنا أنّ حالات **التوازي** عند هذين الباحثين، ينبغي لها أن تندرج في حالات **التوازن**؛ فهي ليست من التوازي بمفهومه الاصطلاحي في شيء، وعلى عكس هذين الباحثين ما وصلت إليه «شيرلي أوستلر» التي فهمت **التوازن** على حقيقته[2].

فمن الناحية النحوية، تبدو العربية حسب «شيرلي أوستلر» مجاهدة من أجل تحقيق **التوازن** (Balance) على معنى التوافق الإيقاعي بين عناصر مترابطة على أن يكون هذا التوافق أو (السيميترية) على مستوى نظم الجملة، وفي تساوي عدد الوحدات المعجميّة بين الجمل والعبارات[3].

أما فيما يخصّ الخلط بين الإيقاع والوزن، فقد وقع خلط بين المفهومين كاد يدمج أحدهما في الآخر، ليصيرا كتلة بمفهوم واحد، ولكن القدامى والمحدثين تفطنوا إلى هذه الصّلة وإلى إمكانات الخلط واحتمالات الوقوع في الخطأ من خلال التفريق بين الإيقاع والوزن[4].

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلا عن نفس المرجع، الصفحة نفسها.

2)- مقال النص الحجاجي العربي، ص: 81.

3)- English in parallels, Schriley ostler, P: 173-175.

- نقلا عن مقال النص الحجاجي العربي، ص: 81.

4)- مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، ص: 171.

فمن وجهة نظر ابن فارس فإنه «...لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع، إلاّ أنّ صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم، وصناعة العروض تقسّم الزمان بالحروف المسموعة»(1).

وبالمقابل يرى الشكلانيون الروس أن الإيقاع مفهوم اتّسع ليشمل سلسلة من العناصر اللسانية تساهم في البناء الشعري(2).

يفهم من هذا، أن الإيقاع مرتبط بالجوهر اللساني للشّعر أي الجملة، في حين أنّ الوزن لا يمكنه الامتثال للخصائص اللسانية لبينة اللّغة الشعرية، وفي مقابل ذلك يرى أحد الدارسين أنّ »...الوزن هو الفعل الإيقاعي المجسّد في صورة متكاملة باعتباره حصيلة تناغم بين الوحدات الصوتية، بينما الإيقاع هو ذلك الكل المجرّد التي يتساوى فيه جميع العوامل التنغيمية والتنفسيّة والدلالية وسواها»(3).

ومهما يكن من أمر، فإنّ الازدواج والتوازن والترصيع وغيرهما من المصطلحات الصوتية مراتب حسب توافق طرفي الفاصلتين (القرينتين) في عدد الحروف والحركات والسكنات مع توافق الأعجاز أو تقاربها(4).

وعلى الرغم من أنّ البلاغيين العرب قد رفضوا اطّراد السّجع والجناس وغيرهما من المحسنات اللّفظية، لما ينمُ عنه ذلك من تكلف يعيق الوظيفة

---

1)- الصاحبي ابن فارسي، ص: 230.

2)- مشكلة الإيقاع الشعري، توماشفسكي، الفكر الأدبي كراسة، 2-1922. نقلا عن نظرية المنهج الشكلي، مجموعة من الكتاب الشكلانيّين، ص: 55.

3)- النبر والتنغيم، حكيم والي دادة، مخطوطة رسالة جامعية لنيل شهادة الماجستير في اللسانيات، 1998-1999، جامعة تلمسان، ص:57.

4)- بلاغة الخطاب الإقناعي، د.محمد العمري، ط2، ص: 113-114.

الإبلاغية للخطاب، لأن ظهور التكلف منافٍ لغرض الإقناع الذي تستهدفه الخطابة فإنّه «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج»(1).

ومن الوظائف الأساسية للإيقاع التي لا يجب نسيانها الوظيفة التذكرية التي كان خطباء العصر على وعي بها، فقد سُئل الفضل بن عيسى الرّقاشي -وهو من أسرة فارسية من القصاص- عن إيثاره للسجع الموزون، فأجاب: «إنّ كلامي لو كنت لا آمل فيه إلاّ سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكنّي أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والأذان إليه أنشط، وهو أحقّ بالتقليد وقلة التفلّت»(2).

ومن خلال هذا الكلام البليغ، يبدو واضحاً أنّ الفضل كان واعيا بالوظيفة الإقناعية للصنعة الصوتية.

ومن أجل إبراز الوظيفة الإقناعية في الخطاب التواصلي؛ وبخاصّة ما تعلّق بالإلقاء الخطابي سعينا إلى توضيح كل ما ارتبط بالصنعة الصوتية عند كلّ من القدامى والمحدثين، وذلك أنّ توقيع الكلام وتوازنه يكاد يكون حجّة على صدقة، وهذا ملحوظ في الأمثال والحكم التي ينظر أن تكون غير مسجوعة موزونة.

وبعد هذا القدر القليل؛ ممّا عرضنا له عن وظيفة الوسائل المنطقية الدلالية، والوسائل اللّغوية في الإقناع، نعرّج إلى الوسائل غير اللّغوية، لنرى مدى تأثيرها في إقناع المخاطب.

1)- المرجع نفسه، ط2، ص: 113.

2)- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1/287.

II-3- وظيفة الآليات السيميائية في الإقناع:

II-3-1- تعريف السيمياء:

هي العلم الذي يدرس حياة العلامات أيّا كان مصدرها في إطار الحياة الإنسانية، ولقد جعل «دي سوسير» هذا العلم مقتصراً على دراسة العلامات في دلالاتها الاجتماعية ممّا يفهم به البشر بعضهم بعضاً، باعتبار اللّغة نظاما من العلامات[1].

وجدير بالذكر أن مصطلح (La sémiologie) تداخل مع مصطلح (La sémiotique)، فلابسه في معناه فالأوروبيون يستعملون مصطلح «السيميولوجيا» بينما يستعمل الأمريكيون مصطلح «السيميوتيكا» أمّا العرب فيصلحون على هذا العلم «بالسيمياء» و«السيميائية» و«علم العلامات» ويقصدون بذلك علامة، أو ملمحاً؛ ولهذا وجدت علاميّة الأدب، وهي تسعى إلى تأسيس نظرية في كيفيات الخطاب باعتباره حدثا علاميّا أي سيميائيا، يتألف من نظام من العلامات الجمالية وكذا الإقناعية[2].

يستخلص من هذا أنّ «علم العلامات» علم عام وليس خاصّاً، فهو عام لأنه يشمل جميع أنظمة التواصل على اختلاف حقولها المعرفيّة من طب ورياضيات، وفيزياء، وأدب وما إلى ذلك، وهذا ما ذهب إليه العالم الأمريكي «بيرس» (C.Peirce) (1839-1914) بالقول: «ليس باستطاعتي أن أدرس أي شيء في الكون- كالرياضيات والأخلاق، والميتافيزياء والجاذبية الأرضية

---

1)- مقال: السيمائية وتبليغ النص الأدبي، أ.بشير إبرير، أعمال ملتقى معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، 17/12ماي1995، ص:09.

2)- المرجع نفسه، ص: 10.

والديناميكية الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن، وعلم الفلك وعلم النفس وعلم الصوتيات وعلم الاقتصاد وتاريخ العلم،... وعلم القياس والموازين إلاّ على أنّه نظام سيميولوجي»(1).

واستفادة من هذا القول، أريد أن أوضح ما لبعض الآليات السيميائية من دور في إقناع المخاطب؛ لأن أهم ما يهدف إليه «علم العلامات» هو دراسة وسائل التبليغ وإثرائها وتحقيقها، ومنح إمكانية فهم البيئة والمحيط بصورة دقيقة وجيّدة من خلال نشاط وسلوك الإنسان.

ولا أحد يختلف مع الآخر في أنّ لكل مجتمع خصوصيات في وسائل تعبيره، وأدوات يتواصل بها، وتوحي له بما لا يختلف فيه، فالتراث له منطوق وصامت، ولكل منهما دوره ووظيفته ودلالته؛ لهذا لا يمكن الاهتمام بالمنطوق والعزوف عن غيره لأنّ كل خطاب أو نص أدبي تصاحبه –لا محالة– وسائل تبليغية بالإضافة إلى اللّغة المستعملة لإلقائه أو كتابته.

II–3–2– الأدوات والوسائل الخطابية الإشارية:

أ– العلامة:

تتكوّن العلامة من صورة حسيّة يتم إدراكها بواسطة حاسة من الحواس الخمسة: السمع أو البصر أو اللّمس أو الشم أو الذوق؛ على أنّ هذه الصورة الحسيّة تتأسّس على ما تواضع عليه متخاطبان اثنان أو جماعة من المتخاطبين(2). وبارتباط الشكل الحسي مع ما يتواضع عليه المتخاطبون تفصح

1)– Dictionnaire en cyclopédique des sciences du langage, P : 113.

2)– اللسانيات وأسسها المعرفية، د.عبد السلام المسدّي، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 32–33.

العلامة[1] عن مكنونها، تبوح بمعانيها ودلالاتها، ويتحقق الاتفاق على الوضع مع كل قناة يمكن استعمالها في إيجاد لغة ما[2].

وتأسيساً على ما سبق ذكره؛ تعدّ العلامة معطى نفسيّاً واجتماعيّاً وثقافيا وحضاريا، أصله الوضع والعرف والاصطلاح، ومن خلالها يمكننا معرفة العلاقة بين سعة أي نظام تبليغي وطبيعة مكوناته الدلالية، فهناك تناسب طردي بين اعتباطية أي نظام علامي وسعة إبلاغه، الأمر الذي يفضي بنا إلى القول بأنّ مقبوليّة العلاقة بين الدال والمدلول كل نظام تواصلي على أساس الاقتران الطبيعي أو الاقتران المنطقي تتناسب عكسيا مع طاقة ذلك النظام المعتمد في الإبلاغ[3].

يستنتج من هذا أن المكون الاعتباطي الذي تشمله العلامة في كل عملية تبليغية هو الذي يكشف لنا عن سعة القدرة على التبليغ، وعلى هذا الاعتبار فإن المتلقي للخطاب لابدّ أن يكون على معرفة بنظام رسالة الخطاب لكي يتمكن من فهمها وتحليلها وبالتالي معرفة مختلف وظائفها وأغراضها.

ب- الإشارة:

هي نتاج عمل إنساني يهدف إلى غاية معينة وموجّهة، الغرض منها إقرار واقع خارجي وإبلاغه للآخرين[4]، وهي وسيلة لنقل المعنى من ميدان التخاطب

1)- مقال: العلامة في التراث، أحمد حساني، مجلة تجليات الحداثة، العدد 02، 1993، معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة وهران، ص:27.

2)- مقال: السيميائية وتبليغ النص الأدبي، ص: 12.

3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4)- تأملات في اللغو واللّغة، د.عبد العزيز الحبابي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1980، ص: 65.

باللّغة إلى ميدان التخاطب **بالإشارة** أو **بالإيماء**، أي التخاطب **بالصمت**، ويمكن أن تترجم الإيماءات وحركة اليد فكرة أو كلمة أو مفهوما أو حالة نفسية أو روحية مرّة أو تترجم مجموعة معقدة من الأفكار مرّة أخرى(1).

وكثيرا ما يعبّر الإنسان بعينيه عن كثير من المعاني؛ ومن أجل ذلك، شكلت لغة العيون معيناً ثريا للأدباء والفنّانين عبر العصور كمثل قول عمر ابن أبي ربيعة:

أَشَارَت بِطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا إِشَارَةَ مَذْعُورٍ وَلَم تَتَكَلَّم
فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبا وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّم

ويمكن تمثيل هذه الحالة على الشكل التالي:

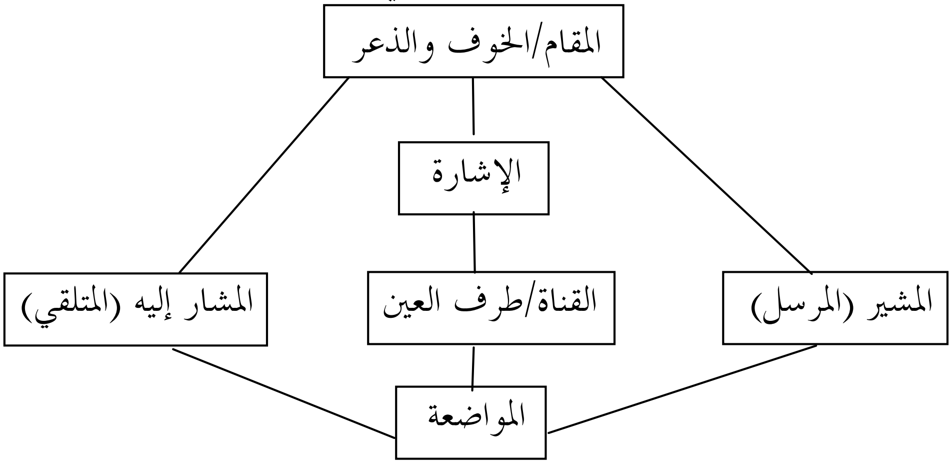

ج- حركة الجسد:

إنّ إشكالية التواصل واردة مع تراثنا ومع ثقافتنا ومع مجتمعنا على جميع المستويات، من هنا فإنّ حركة الجسد ونبرة الصوت، وتقاسيم الوجه تعدّ من أهمّ الوسائل في التبليغ والإقناع إلى جانب اللغة. وقديما قيل: «ربّ إشارة

1)- مقال: السيميائية والنص الأدبي، ص: 19.

أبلغ من عبارة».

ولقد عبّر الجاحظ عن حركة الجسد بـ» الإشارة» فقال: «أصناف الدلالات على المعاني خمسة»[1] وأورد منها «الإشارة» إذ قال: «فأمّا الإشارة فباليد وبالرأس، وبالعين وبالحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب والسيف، وقد يتهدّد رافع السيف فيكون ذلك زاجرا ويكون وعيدا»[2].

ومهما يكن من أمر، فإن الحركة أو الإشارة مصدرها الجسد، بعيدا عن استعمال الكلام، وهي لغة الإنسان عندما تعوزه الكلمات، كما يقول السيوطي[3].

وعلى هذا يوجد أثر الحركة الجسدية بعمق في فهم دلالاتها ووظائفها؛ لأنها حاضرة في التراث وفي تجاوب هذا التراث مع المتطوّرات والمتغيّرات الحضارية في مختلف المستويات والبيئات وخاصة البيئات الشعبية؛ ولكن لابدّ لهذه الحركة من سياق لتكون دلالاتها أعمق، وأثرها أبلغ وخطابها أوضح، وهذا السياق تحدّده الملبوسات بألوانها وأشكالها وطريقة لبسها، إضافة إلى طريقة الوقوف والجلوس والصفوف والأدوات المحمولة، والعلامات والشارات مما يوحي بالشاعرية أي لحظة تخاطبية[4].

---

1)- الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1969، ج49/1.

2)- البيان والتبيين، ج77/1.

3)- مقال: من سيميولوجيا الاتصال حركة الجسد، د.محمد عيلان، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها جامعة عنابة، الجزائر، 17/12 ماي 1995، ص: 252.

4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ومجمل القول، إن الحركة الجسدية أداة تعبير تنقل الوعي من فضاء إلى فضاء في لحظة تختصر فيها كثيرا من الكم الصوتي واللّغوي، ولا تتجاوز حدود استخراج الصّور من ذهن «المتلقي» وإعادة النظر في هذه الصّور، لأنّ الإشارة أو الحركة الجسدية وسيلة من الوسائل السريعة التي تسمح للمتلقي من أن يتجوّل في مخزونه الثقافي وفق شحنات الخطاب لتفجّر مكامن ذاكرته[1].

وهكذا، تستطيع الحركة الجسدية أن تمنح المتلقي إمكانات هائلة في الاستجابة السريعة للفهم، وذلك أنها تدفعه لتشغيل ذاكرته بقوّة لاستحضار الصور، وتجاوز حدود اللّغة المنطوقة التي تستهلك الزمن الحاضر، ولا تمنح القدرة على الالتقاط السريع للأحداث وفضاءاتها[2].

إن الحركة الجسدية خطاب جماهيري وأداة اتّصال، ويلحق بها الصوت الذي لا يكتب ولكنه يسمع، وهو في أغلب الأحيان يصاحب الحركة لأنه يشير إلى معنى، وبدون أحدهما لا يبدو الغرض المقصود واضحاً.

وتلعب الحركة الجسدية دوراً مهما في تبليغ الخطاب وخلفياته المرتبطة به مع ما يصاحبها من ملامح وانفعالات، ولأنها تتموضع في مقدّمة الأدوات والوسائل البيانية يستغلها الخطيب ليزيح الفارق ويسوّي في درجة الفهم فالحركة التي تصدر من الخطيب ماهي إلاّ مجموعة من الأوضاع المتفق عليها تلقائيا، لأنها حركة تدخل في ثقافة المحيط ولغته، وهي معروفة لدى الجميع، وإلاّ تعذر الاتصال بين المتلقي والفاعل[3].

ونخلص في النهاية إلى أنّ حركة الجسد لا تعدو أن تكون واحدة من اثنين:

1)– مقال: من سيميولوجيا الاتصال (حركة الجسد)، ص: 253.

2)– المرجع نفسه، ص: 252.

3)– مقال: من سيميولوجيا الاتصال (حركة الجسد)، ص: 253.

أ- حركة تصدر عن اللاّوعي الذي ينشط، فيفتح نوافذ ليطل في ثنايا العرض، فيمنح إشارات لها مكان في لا وعي الجماعة كلها، ولذلك فهي تصادف هوى في نفوسهم، وتؤدّي دلالات يكشفون عنها، ومن ثمّ تتداعى عن ذكريات المتلقي، فتضيف إلى مضامين الحركة مضامين أخرى،... فالحركة لا تحتاج إلى الصوت أو اللّغة لفهمها، بل هي نصٌّ لغوي إلى جانب كونها مضمونا اجتماعيا أو تاريخيا...[1].

ب- حركة مقصودة: وتستعمل لتوضيح موقف أو عبارة، أو إثارة عاطفة ما، أو إلى جلب الانتباه لئلا تتشتّت أفكار المستمعين في فهم مضمون الرسالة الذي هو بصدد إلقائه[2].

وسواء أكانت هذه الحركة إرادية (مقصودة) أو لا شعورية؛ فهي ذات أثر في تأكيد الكلام في نفس السامع، وتقويته؛ غير أنه يجب أن نلاحظ أن للإشارات قيوداً لا تحسن إلاّ بها، وتتمثل هذه القيود في إلزامية ملاءمة هذه الحركة للمعنى المتواضع عليه، كما يحسن أن تسبق الإشارة القول حتى يتنبه لها السامعون وبالإضافة إلى هذا لا يصح أن تكرّر الحركة أو الإشارة؛ وذلك تجنبا للسأم والملل الذي يوهن موقف الخطيب، ويضعف تأثير قوله.

وكخلاصة لكل ما سبق ذكره، «فإنّ الإشارة واللّفظ شركان، ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ، وما تغني عن الخطّ...[3]

وبعد هل تغدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف في طبقاتها ودلالتها؟

---

1)- المرجع نفسه، ص: 255.
2)- البيان والتبيين، ج78/1.
3)- البيان والتبيين، ج78/1.

مما لا شك فيه أن الخطاب الإقناعي هو فعالية خطابية تمتلك من الآليات والشروط التي توفر له النصية ما يجعله يكتسب الأبعاد المختلفة التي تضمن له الانسجام وشروط التواصل من خلال دورانه ضمن معايير الاتصال اللغوي العام. ولئن كان هناك نزوع نحو التفرد، فلا يظهر إلا من خلال الترتيب البنيوي للوسائل الإقناعية المختلفة في علاقتها بفن الخطابة.

ولقد عبر الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ) باللغة التي يستطيع كل خطيب بليغ أن ينتج أو يمثل أو يجسد بها الواقع والحدث أيا كان مصدره. وهو لذا توسع في إشكال التعبير التي سمحت بها اللغة، مشكلا نسقا خطابيا مختلف المكونات والظواهر النصية من شعر وآيات، وتهديدات ومناجات وحكم وأخبار تنتظمها مجموعة من القوانين التي تحكم العلاقات والتفاعلات فيما بينها قصد بلوغ هدف معين هو إقناع أهل العراق وشحذ هممه لخوض المعارك، ومن ذلك خطبة الولاية (75هـ) التي تختلف روايتها من مصدر إلى آخر ومن مرجع إلى غيره.

جاء في كتاب الجمهرة ما يلي: حدث عبد الملك بن عمر الليثي قال[1]: بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليد، إذ أتى آت. فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق، فإذا به دخل المسجد معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدا سيفا، متنكبا قوسا، يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض، قبح الله

1)- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 288-291.

بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق. حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه، حسر اللثام عن فيه، ونهض، فقال:

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطــلاَّعُ الثَّنَايَــا　　　مَتَى أَضَعُ العَمَامَةَ تَعْرِفُــونِــي

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله. وإني لأرى أبصارا طامحة، وأعناقا متطاولة، ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي تترقرق.

ثم قال:

هَذَا أَوَانُ الشَدِّ فَاشْتَدّي زِيَّــم　　　قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِــسَوَاقٍ حُطَــم

لَيْسَ بِرَاعِي إِبــلٍ وَلاَ غَنَــم　　　وَلاَ بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهَــرٍ وَضَــم

ثم قال:

قَــدْ لَفَّهَا اللَّيْــلُ بِعَصْلَبِــيٍّ　　　أَرْوَعٍ خَــرَّاجٍ مِــنَ الــدَوِيّ

مُهَاجِــــرٍ لَيْــسَ بِأَعْــرَابِــــيٍّ

ثم قال:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَــشُدُّوا　　　وَجَدَّتِ الحَرْبُ بِكُــمْ فَجِــدُّوا

وَالقَوْسُ فِيهَا وَتَــرٌ عُـــــرُدُّ　　　مِثْلُ ذِرَاعِ البِكْــرِ أَو أَشَـــــدُّ

لاَبُــدَّ مِــمَـــّا لَيْــسَ مِنْهُ بُــدُّ

إني والله يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة وجريت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين –أطال الله بقاءه– نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عودا، وأصلبها

مكسرا، فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي، أما والله لألحونّكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصينكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. فإنكم لـ﴿كَأَهْلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمنَةً مُطْمَئنَّةً يَأْتيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1].

وإني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت، فإياي وهذه الزرافات والجماعات وقالا وقيل، وما تقول، وفيم أنتم وذاك؟

أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت مترله».

وبعد فلعل قارئ هذه الخطبة لا يشك لحظة أن هدف الحجاج من وراء إلقاء هذا الخطاب كان إقناع أهل العراق بخوض الحرب ضد ابن الأشعث[2]؛ وذلك لما عرف به أهل العراق من عصيان ضد الحكام والخلفاء، ولهذا لجأ إلى التهديد والوعيد، إلى لغة السيف، تلك اللغة الزاجرة التي لا يصلح غيرها لقوم ألفوا التمرد والعصيان.

جاء في كتاب البيان والتبيين: «العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء، وطاعة أهل الشام، أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع

1)- سورة النحل، الآية: 112.

2)- 10 ثورات في الإسلام، الدكتور: علي حسني الخربوطلي، دار الآداب، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 154.

الفطنة والنظر، يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح، والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء. وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد، لا يرددون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال ومازال العراق موصوفا أهله بقلة الطاعة وبالشقاق على أهل الرياسة»[1].

I- وسائل جلب الانتباه:

I-1- الصّمت:

إن القصد يحدد فعل الوعي وبنيته في الوقت ذاته، ولهذا كان لابد للحجّاج من اكتساب الكفاءة في ذلك الصمت الذي تعمده، لأنه يمثل لحظة اشتياق، أو شوق يتولد عنها جلب الانتباه، وذلك أن الصمت يستدعي شوقا لما يود الإنسان أن يتفوه به حتى تزول الحيرة وطول الانتظار.

وهكذا فإن الصمت يعد وسيلة عظيمة من وسائل جلب الانتباه، وبالتالي حسن الإصغاء لكل لفظة سيتلفظ بها الحجاج، وذلك أن السماع هو أول القنوات التي يصل من خلالها الصوت (الخطاب) إلى وجدان السامع وعقله. يقول الجرجاني: «...والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن...»[2]. ومن هنا تتجلى الجدلية بين الصمت والكلام في العملية التواصلية، ليصبح بالإمكان تحقيق الوجود البلاغي بين المتكلم والسامع.

1)- البيان والتبيين، عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د.ط، 2001، ج229/1.

2)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، موفم للنشر، الجزائر، ص: 149.

وفي الصمت عبر كثيرة ذكرها الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» كما ذكرها غيره من الشعراء.

- فمن قول الجاحظ: «وقالوا الصمت حكم وقليل فاعله»[1].
- كما قالوا: «استكثر من الهيبة صامت»[2].

ومن قول أبي العتاهية[3]:

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالفَتَى ... مِنْ مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِهِ
كُلُّ امْرِئٍ فِي نَفْسِهِ ... أَعْلَى وَأَشْرَفُ مِنْ قَرِينِهِ

وبعد هذا، يبدو وكأن الحجاج كان على اطلاع لما للصمت من قيمة ودور عظيم في جلب الانتباه وحسن الإصغاء، خاصة وأن هذا الخطاب كان وجها لوجه، أي أنه كان موجها إلى متلق حاضر (أهل العراق)، وعلى حد تعبير تامر سلوم أن «ما تقع عليه الحاسّة، أوضح مما لا تقع عليه، والمشاهد أوضح من الغائب، وما يدركه الإنسان عن نفسه أوضح مما يعرفه عن غيره، والقريب أوضح من البعيد، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف»[4].

I-2- الأبيات الشعرية:

وبالإضافة إلى الصمت فإننا نجد الحجاج يستسيغ الأبيات الشعرية التي ألفها أهل العراق، لأن الشعر صناعة تنجز وفقا لمعايير مسبقة تهدف بالدرجة

1)- البيان والتبيين، ج1/164.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- المرجع نفسه، ص: 124.

4)- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، تامر سلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاّذقية، ط1، 1983، ص: 256.

الأولى إلى تقريب الأشياء إلى المتلقي ومن ذلك ما استهل به الحجاج خطبته حينما ولي العراق.

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطـــلاّعُ الثَنَايَـــا مَتَى أَضَعُ العَمَامَةَ تَعْرِفُـــونِـــي

ولقد كان التلقي يعيش وضعا صارما صرامة المعايير التي ينظر بها إلى الإبداع وإن تحولت الأشكال التعبيرية عنها، فإن المنحنى يشير إلى هيمنة تصور له سند قوي عند ملاك الثقافة المركزية هدفه «المعنى الحقيقي وإن تعدّدت الأساليب لتقصّيه، فلقد تحدّث النقاد مثلا عن الرونق الذي يضفيه المجاز على الكلام، وقيل إن الكلام متى خلا من الاستعارة، وجرى كله على الحقيقة، كان بعيدا عن الفصاحة، بريا من البلاغة»[1].

ومن هنا كان للغة التي سلكها الحجاج بكثافتها ورمزيتها أن تتيح إمكانات ثرية للمتلقي في إنشاء المعنى وفهمه، وإن كان قد استغرق كثيرا في تهديداته إلى حد التصوير المرعب الذي ترتعش له القلوب وتشمئز له النفوس.

ولم يخرج الحجاج عن العادة، فقد ولج خطابه بما يعهده أهل ذاك الزمان (أهل العراق) وبما ألفوه، وهو لذلك تفنن في اختيار الألفاظ الملائمة، ولا نحسبه لم يوفق في اختيارها، ما دامت الألفاظ خدما للمعاني.

ولعل المطلع على معظم خطب الحجاج، يلاحظ كيف أنه برع في اختيار الألفاظ الجديرة بنقل المعنى المراد، وإحداث التأثير المرغوب، وبالتالي إقناع المتلقي بكل ما يريده الحجاج منه، وهكذا فإنه سيذعن ويستسلم دونما تردد، مقتنعا من أن إذعانه واستسلامه هذا لا يخدم الحجاج فقط، وإنما هو ذود عن الدين والدولة معا، وبالتالي إرضاء الخالق والمخلوق، وضمان الأمن والسلامة.

1)- المرجع نفسه، ص: 288.

جاء في كلام الجرجاني: «من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أظن وأشغف»[1].

ومن هذا المنظور، يمكننا القول إن نفس الحجاج كانت تتوق إلى الإعلاء من مكانته السياسية، لذا نراه قد تدرج في -خطبة الولاية- في أساليب الإقناع لإيمانه القوي، من أن انتصاره على أعداء الخليفة عبد الملك ابن مروان، سيجلب له ما يرجوه ومن ذلك قوله «إن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه-. «فهذه العبارة توحي بالدعاء للأمير بطول العمر ولكنها تخفي وراءها طمعا في التقريب من الأمير، وإعلاء المكانة السياسية حتى إن بعض الكتب تشير إلى أن الحجاج كان يطمح في أن يصير أميرا[2].

وإلى جانب فصاحة الحجاج وحسن تخلصه بالبيان والحجج، يبدو أنه كان على جانب كبير من الدراية بعلم النفس، والإلمام بوسائل الإقناع، فقد كان يخاطب عواطف الناس، كما كان يخاطب عقولهم، وكان لا يكتفي بوسائل الإقناع المعروفة آنذاك، كالشعر والآي القرآني، وإنما كان يلجأ كذلك إلى الحيل كحرب العصابات حتى يشغل أهل العراق بالفتوحات في الأطراف الشرقية البعيدة عن مفاسد السياسة الداخلية[3].

ومما يلاحظ في خطبة الولاية وغيرها من المنتخبات أن الحجاج يكثر من الأساليب البيانية والبلاغية التي يبدو أنه لا مفر منها، بعدها عمود الإقناع وأساسه، وكذا لأنها تجمع بين الحجة وطريقة الكلام.

1)- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، بيروت، ط2، ص: 118.

2)- 10 ثورات في الإسلام، ص: 149.

3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبالإضافة إلى أن البلاغة تعد عمود الإقناع وأساسه، فقد قيل عنها: «جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحرف بما التبس من المعاني، أو غمض وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر، ثم قال: وزين ذلك كله وبهاؤه، وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال»[1].

فالحجاج يبدأ خطابه ببيت شعري يحاول من خلاله أن يعرف بنفسه رغم أنه معروف عند الجميع، ولكن ذلك الأفق الإيديولوجي «للأنا» الواقعية يسمح بقبول مواطن التوتر في الخطاب لأنه يتماشى مع ظاهر ذلك الأفق خاصة وأن الحجاج بصدد تجسيد صور مرعبة تنتظر كل من تخلف أو عصى أو تمرد.

ولقد سعى الحجاج إلى تدعيم أقواله مرة بالشعر والأخرى بالآي القرآني، ومرة بالوسائل البلاغية المعروفة من سجع، و تشبيه، وكناية، واستعارة، وترادف وتكرار، وغيرها، وما كل ذلك إلا من أجل أن يسقط المتلقي المعنى الجاهز على تلك الأشعار، وتلك الشواهد ليوصل كل ما يود إيصاله. وهكذا فان اللغة الإقناعية التي انتهجها الحجاج بإمكانها أن سمح للمتلقي بإنشاء المعنى.

وحتى يتجنب الحجاج أي التباس قد يثير قريحة المتلقي، أو يذهب بفهمه بعيدا، استعان بالشعر الحماسي الذي يساهم في شحذ الهمم، والاستعداد للحرب.

1)- البيان والتبيين، ج63/1.

ومن منظور بعض المؤرخين أن سبب قسوة الحجاج على أهل العــراق عامة والموالي خاصة، راجع إلى أن أهل العراق كانوا على اســتعداد دائــم للحرب، وحتى تظل دمشق عاصمة البلاد الإسلامية، سعى الحجــاج إلى أن يثبت حكم الشام، وذلك من أجل إقرار النظام في البصرة والكوفة وفارس(1).

ولقد ساهمت الأبيات الحماسية التي استعان بها الحجاج وكذا استشهاده بالآيات القرآنية في إنجاح دور عملية التلقي المتمثل في الفهم والتمييز، ومــن خلال خطبة الولاية وغيرها من المنتخبات يبدو أن جمهور الحجاج كان على قدر المساواة مع صاحب الرسالة من حيث درجة الفهم لما اســتعمله مــن ألفاظ، هذه الألفاظ التي توحي في معظمها ببيئة صحراوية بدوية هــي بيئــة الحجاج وذهنية أهل العراق، وإلا لما كان خاطبهم بهذه الفصاحة، ولا جادلهم بهاته الحجج، ولما استعان بتلك الآية وتلك الأشعار الحماسية.

ويبدو واضحا، من خلال خطبة الولاية أن الحجــاج يــود إصــلاح جمهوره، حيث إن كل ما ورد بمتن تلك الخطبة، يجعلها تستجيب للمنــاخ العام للتلقي، وذلك أنها تلتقي مع خطب السابقين التي عهدوا سماعها من قيل الخلفاء والأمراء والولاة وكذا الحكام.

I-3- الجمل الإيقاعية:

وتماشيا مع الذوق العربي يندفع الحجاج إلى استعمال الجمل الإيقاعيــة التي تحمل في طياتها دلالة رمزية ليختزل المسافة بينه وبين فهم الــسامع، لأن اللغة الرمزية تكشف عن رؤية جمالية مغايرة لما كان سائدا أو معهودا لــدى

1)- 10 ثورات في الإسلام، ص: 145.

فئة معينة من المتلقين، على ألا تتعارض هذه اللغة الرمزية مع ما تواضعت عليه الجماعة المتحدة اللغة.

وبالإضافة إلى الجمل الإيقاعية، فقد استعمل الحجاج أساليب إقناعية، جعلت المفاهيم تنفذ إلى وعي أهل العراق، وتحدث الأثر المرغوب والذي يتمثل فيما بعد في استجابة أهل العراق لنداء الحرب من رجل يمقتونه لكنهم مقتنعون بمطالبه التي تخدم الدين والدولة، وتحقق لهم الأمن والسلام، ويكاد الحجاج يتفرد في خطبه بالتهديد والوعيد، الذي يراه اللغة الأكثر إقناعا لقوم ألفوا عصيان الولاة والتمرد على المطالب والخروج عن الدين.

وإذا ما قورنت خطب الحجاج بخطب الحكام والولاة السابقين، فإنها لا تكاد تختلف معها إلا من حيث استغراق الحجاج في لغة التهديد والوعيد وكونه لم يستهل بعض خطبه بالحمد والثناء، مقلدا غيره من الحكام والخلفاء، راجع إلى نقمته وحقده على أهل العراق وأهل الكوفة الذين لو سنحت لهم الفرصة لقتلوه كما فعلوا مع الأشتر النخفي الذي خلصهم من سعيد بن العاص، الذي لم تتم له السنة حتى ساروا إليه فقتلوه[1].

وهكذا فإننا لا نستغرب ذلك التعريض في الصفات لأهل العراق (يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق). وهو تعريض غرضه التحقير والاستهزاء والتصغير لأهل العراق، لما عرفوا به من شقاق ونفاق.

ولقد وفق الحجاج في اختياره لتلك الأبيات الشعرية الحماسية دون غيرها لأنها تناسب المقام انطلاقا من أن لكل مقام مقالا، وكذا لأن لهذه

1)- 10 ثورات في الإسلام، ص: 154.

الأبيات الشعرية إمكانات إخبارية تتجاوز الإمكانات البنيوية البسيطة، بالإضافة إلى أن الكلمات هي وصف يحوم حول موضوع الخطاب. ولذلك فإن الحجاج يتنقل في نصوصه بين الرمز الذي هو معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظهر به أهله»[1].

I-4- الإشارة:

الإشارة هي «ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه»[2]، كقول الحجاج مخاطبا أهل العراق: «من أعياه داؤه، فعندي دواؤه...»، فالداء هنا ليس المرض، وإنما هو رمز للعصيان والخروج عن تعاليم الدين، والدواء ليس هو العلاج، وإنما هو رمز للسيف، وكل هذا إشارة إلى التخويف.

وكما هو معلوم، فإن الإشارة تجمع بين اللفظي والمرئي، وتختزل حالات الفكر والقلب معا، مما يجعل المتلقين يتفاعلون مع موضوع الخطاب/الرسالة، وبالتالي ينسجمون مع مقصد الخطيب. والنص كما يقول «إيزر» لا يمكنه أن يوجد إلا من خلال الوعي الذي يتلقاه سواء في لحظة البث أو في لحظة القراءة ومسارها التاريخي؛ فالباث وهو يتحول إلى متلق يحاول أن يطابق بين الفعل الذل ينص عليه وبين طبيعة رد الفعل الذي يصدر عن المتلقي، ويرغب فيه وهو بمثابة حصر لحدث الفهم[3].

1)- اللّمع، الطوسي أبو نصر السرّاج، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الله سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، د.ط، 1960، ص: 414.

2)- مواقف في الأدب الأموي (تحليل، دراسة، منتخبات)، د.عمر فاروق الطباع، دار العلم، بيروت لبنان، د.ط، د.ت، ص: 283.

3)- L’acte de lecture, théorie de l’effet esthétique, ISER Wolfgang, presse mergaba, Editeur, P : 49.

- نقلا عن تحليل الخطاب الصوفي، ص: 46.

وهكذا فإن «الإشارة» تعبير عن احتواء المعنى، وسعي لتنميته، كما أنها دعوة إلى الاختلاف وتغيير الآفاق بواسطة التأويل الذي يسهم في تلقي الخطاب وإلقائه ضمن شروطه البنيوية والدلالية، أو خارج هذه الشروط(1).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن نصوص الحجاج طفرة ضمن التقاليد السابقة والسائدة، وإن كان النقل المعرفي الذي تأسست عليه قد اعتبرها نصوصا سياسية دينية، فإن الانزياح الدلالي يثبت أنها نصوص سياسية محضة، ومرد ذلك أنها تميل إلى الحث والتحريض، كما تميل إلى التهديد والوعيد، وهذه ضغوط يمارسها الحجاج على أهل العراق لما يحمله لهم من حقد ونقمة، لعصيانهم وقتلهم للحكام كما سبق الذكر.

ولقد ثبت أن الأوزان الشعرية وإن كانت مرتبطة بالسماع والإنشاد، إلا أنها تسهم في ثبات الفضاء النصي أو على الأقل في هيمنة الوجود السابق الذي منحوه شرعية التمتع بخصائص منفصلة عن القائل، والنص الذي يكتبه أو يشكله(2)، وإن رأى البلاغيون والنقاد لاحقا أن في دلالات الأوزان علاقة بالأغراض(3)، ولذلك نرى الحجاج يدعم ما يدعو إليه بتلك الأشعار الحماسية لأنها تلائم الغرض المقصود، وهو إقناع أهل العراق بخوض المعركة.

وكما هو معروف، فإن توليف الشعر يقوم على تخير لفظي وزني محكوم بتلك القواعد والمقتضيات التي تقوم على تخير قالبي، وإذا صح التعبير فإن

---

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 50.

2)- شكل القصيدة العربية حتى القرن الثامن الهجري، جودة فخر الدّين، دار الآداب بيروت، ط1، 1984، ص144.

3)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 52.

هذا التخير اللفظي يسعى إلى التلاؤم مع معنى سابق، له بغية تزيينه؛ أي إظهاره في حلة جديدة[1]، وهذه الحلة الجديدة هي ذلك الفضاء الصوري من استعارات وتنبيهات.

ولقد وجد العرب في المنطوق مقياسا للانتظام والتناسب الوزني للشعر، حتى أنهم كانوا إذا أرادوا أن يخطبوا صاغوا جملهم على شكل من التناسب والانتظام الذي يشبه الشعر ومن ذلك خطبة الحجاج بعد معركة دير الجماجم، وكذلك خطبته في البصرة التي جاء فيها مايلي:

«يا أيها الناس، من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال **أجله** فعلي أن **أعجله**، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال **ماضي** عمره، فصرت عليه **باقيه**، إن للشيطان **طيفا**، وللسلطان **سيفا**، فمن سقمت **سريرته**، صحت **عقوبته**، ومن وضعه **ذنبه**، رفعه **صلبه**، ومن لم تتبعه **العافية**، لم تضق عليه **الهلكة**...»[2].

ويبدو جليا أن شكل التناسب والانتظام هو الذي أدى إلى استصاغة نمط معين من الشكل التناظري المبني على الإيقاع الرتيب المتساوي تفعيليا[3]. كما في خطبة الولاية «نشر، عجم، وجد» وعلى هذا الأساس سمي المنطوق بالشفاهية الأولى والمكتوب بالشفاهية الثانوية.

ومهما يكن من أمر، فلقد نجح الحجاج في تبليغ رسالته إلى أهل العراق، وما قيام الحرب وخروج أهل العراق إلا دليل على أنهم اقتنعوا طوعا أو كرها

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 283

2)- العقد لفريد، ج4/ص: 16.

3)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 44-55.

بما جاء في خطبة الولاية، وإن كان بعض النقاد يرى بأن هدف الحجاج من وراء خطبته هذه لم يكن إقناع الجمهور، وإنما هدف إلى فكرة أساسية هي إخضاع أهل الكوفة وإذلالهم وحملهم على الالتحاق بالجيش[1].

وبعد عرضه لموقف الحجاج من خطبة الولاية يرى «عمر فاروق الطباع» أن العناصر الثانوية التي لجأ إليها الحجاج لتحقيق هدفه، تجتمع تحت شعار «الإرهاب» الذي اتخذه وسيلة للوصول إلى الغاية التي توخاها، وهي تشتمل على وصف نفسه ببعد النظر ومضاء العزيمة «أنا ابن جلى وطلاع الثنايا» و«إني والله يا أهل العراق، ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين». فالحجاج لجأ إلى هذه الوسيلة لئلا يتوهمه السامعون رجلا ضعيفا، وخائفا مترددا، وغبيا لا ينفذ نظره إلى دخائلهم وإلى أساليبهم الملتوية[2].

ولكي لا يتوهم أهل الكوفة أن الحجاج رجل عادي، فيستخفّوا به وبوعيده، كشف القناع عن مكانه وكفايته ومقامه من سائر قواد بني أمية قائلا: «وإن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بي».

وفي سبيل التعريض بالصفات فلقد وجه الحجاج إلى أهل العراق سيلا من التهم التي تدينهم، وتوجب عقابهم «يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق» وقوله: «لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال» وقوله كذلك «وكأنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله

---

1)- مواقف في الأدب اللغوي، ص: 277.

2)- المرجع نفسه، الصحة نفسها.

لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون».

أما باقي الخطبة فانفجارات غضبية، وتهديد لا اعتدال فيه وتحقير لا حدود له، «إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها»، وقوله: «والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل» وقوله: «وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحي».

وعندما تيقن الحجاج من انهيار أعصاب سامعيه بذلك الوابل من التهديدات التي أمطرهم بها، ولما تيقن أيضا من عجزهم عن المقاومة، كشف عن مطالبه التي لابد في حالة الرعب والذعر التي خلقها في نفوسهم من أن يستجاب لها، لأنها وليدة الخوف لا وليدة الاقتناع، «وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله».

ولكن على الرغم من ذلك، فإن معظم منتخبات الحجاج تمثل نموذجا للخطبة العربية الإقناعية.

II- الأدوات الإجرائية التداولية في منتخبات الحجاج:

II-1- التحاور:

هو فعالية خطابية تقوم على المشاركة والتعارض كآلية أساسية، وقد عرفه «طه عبد الرحمن» بقوله: «هو أن يتقلب المتحاور بين العرض والاعتراض منشأ لمعرفة تناظرية وفق مسالك معينة»[1]، ولهذا فإن التحاور هو

---

1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الرباط، د.ط، 1987، ص: 43.

أعلى مراتب الحوارية بعد المحاورة والحوار الذي يعتبر أدنى مراتبها، لأنه يقوم على عرض الخبر، ومحاولة إلزام المعروض عليه بتصديقه وإقامة الأدلة عليه، والتيقن بصدق قضايا دليله، شأن الحوار السياسي والإيديولوجي والفلسفي[1].

II-2- الفاعل:

أسلم طريقة لرصد وعي هذا العالم، هي الوقوف عند الممارسة الخطابية التي يخترقها الفاعل، وعناصر هذه الممارسة في تفاعلها من أجل إحداث الأثر. وهذا يعني أن القائم بفعل التحاور ينشق إلى ذات عارضة (قائلة) وأخرى معترضة (مقول لها)، فالأولى تعرض، والثانية تعترض، وما إن يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه الخطاب مخاطب، كما لو كان المتكلم يسمع كلامه بأذن غيره، وأن غيره ينطق بلسانه. ويتجلى التعارض من خلال العلاقة التخاطبية التي تقام في نص الخطاب بين متكلم ومخاطب حقيقي أو مفترض[2].

ومن هنا، لابد في التشكيل التحاوري من أن يبلغ المتحاور درجة من التفاعل يكون فيها قادرا على منازعة نفسه، والنهوض بمواقف خطابية متفاوتة مع مواقف الذات، والاعتراض عليها ومعارضتها[3].

ويتم التشكيل التحاوري بأساليب مختلفة هي بمثابة الإستراتيجية التي يتم بها التحاور، وتتكون حسب الخطابات من آليات للتوجيه والتأثير، كتعدد أفعال الكلام، واختلاف ذوات المتكلمين والمخاطبين باختلافها، وغيرها من أساليب التفاعل والتبادل كالمحاجة وغيرها مما يسهم في التواصل الخطابي

1)- المرجع نفسه، ص: 31-47.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 91.

3)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 46.

وإحداث التأثير(1).

ولهذا عمدنا إلى استغلال الأدوات الإجرائية للدرس التداولي نظرا لما يمنحه للباحث من إمكانات في وصف ظاهرة التواصل داخل الخطاب، والتي قد لا نستطيع في بعض الأحيان أن نتلقاه ونتفاعل معه إلا من خلال هذه الإمكانات.

وتلخص الباحثة «أوركيوني» (Orecchioni) منحى أصحاب الاتجاه التداولي في تحليل الخطاب بقولها: «إن كل تحليل للخطاب يجب أن يبدأ بالتعريف بما نسميه أحيانا «الجهاز الشكلي للحديث» أي وضع مختلف الفاعلين في الحديث داخل النص»(2).

وانطلاقا من هذا، لا شك في أن تضمين الآخر في الخطاب هو المعطى الأساس الذي يتطلبه كل حديث؛ إن المتحدث بمجرد الإعلان عن نفسه كمتكلم، يكون قد وضع شخصا آخر أمامه، وحدد لنفسه المقام الخطابي بين (أنا) و(أنت) وإن كان (أنا) و(أنت) «لا يضمران مفهوما ولا شخصا معينين، لكنهما يسمحان للمتكلم من احتلال مترلة الفاعل في الخطاب مع علاقة تتوفر بينه وبين المرسل إليه»(3)، ليبدو التحاور والتشكيل التعارضي بعد ذلك الشكل الطبيعي لكل خطاب بدرجات متفاوتة(4).

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 91.

2)- L’énonciation de la subjectivité dans le langage, Catherine Kerbrat Orecchioné, Armand colin, Paris, 1980, P : 158.

3)- مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ك.فوك، ب.لوفوميك، ترجمة: منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص: 135.

4)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 93-94.

II-3- بنية الدعاء:

الدعاء هو فعل الكلام الذي تجتمع فيه أفعال جزئية كالطلب بالأمر والنهي، والنداء وكذا الشرط، وهي وسائل تمتلك الكفاءة اللازمة التي يتم بها تحقق النشاط الخطابي، وضمان المشاركة، وإحداث التأثير لما تحمله بنية الدعاء من قوة كلامية (force illocutoire) تريح المتلفظ بها، لأنها فعل الكلام الذي لا يتحقق إلا بها[1]. لذلك قال «أبو علي الدقاق»: «الدعاء مفتاح الحاجة وهو متروح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرين، ومتنفس ذوي المآرب»[2].

أما «كاترين كارير» فإنها ترى: «أن المشروعية الخطابية لقول ما تقاس بمدى فائدته، وليس بقدرته على الإخبار»[3]، ولهذا فإن الدعاء سلطة أدبية يتكئ عليها المتكلم ليمارس خطابه مع الآخر، سواء من حيث تلك الأوامر والنواهي، أو تلك العروض التي يقدمها له؛ ويقرن محتواها بالغرض أو الفائدة التي يرجوها، على أن يحيط هذه الفائدة بهالة من الصدق، وإن كان «مانقينودومينيك» يرى أنه: «على المستوى الخطابي ليس هناك صدق أو عدم صدق، بل هناك ذوات تقول ما يجب قوله من أجل أن تكون أكثر اندماجا»[4].

يستنتج مما سبق، أن الدعاء (أمر، نداء، شرط) بنية مؤطرة تسهم في فرض شروط التخاطب، ومن ثم ضمان استمراره لأنه كفعل كلام يدار به

---

1)- المرجع نفسه، ص: 96.

2)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- l'implicite, Catherine Kerbrat Orecchioné, Editition Armand Colin, Paris, 1986, P :200.

4)- Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Mainguéneau, Bordes, Paris, 1990, P: 105.

الحديث، ويمنحه بعض هذه القوة الكلامية التي يمتلكها، والتي لا تتمثل في مدى صدقه، بقدر ما تتمثل في نجاحه عندما ينتهي فعل الدعاء، لذلك - غالبا- ما يأتي الدعاء ليعكس إعلان المتكلم عن حصول الأثر المتمثل في ذلك الوفاق الذي يتم بينه وبين المتلقي[1].

وهكذا تتجلى وظيفة الدعاء بعده الدعامة الأساسية التي يحقق بها الخطيب إستراتجية التحاور والإقناع، والخطيب البارع هو الذي يعرف كيف يستغل الدعاء كوحدة مؤطرة تدعيمية أحيانا داخل الخطاب، وأحيانا أخرى كرقيب يظهر ويختفي كلما اقتضى المسار التخاطبي.

وإلى جانب أن للدعاء وظيفة تدعيمية توجيهية لمسار المخاطبة، فإنه يأتي ليؤدي وظيفة تعويضية لانعدام رد الفعل من قبل السامع، أو بعد خفوت التبادل، إذ يكسر من أحادية الخطاب، وخاصة ذلك المرتبط بالنصائح والأوامر والنواهي، والتي قد تطول لارتباطها بمعارف معينة، وقد تفتح مسارا للخطاب مخالفا لما كان، كأن تؤدي إلى استمالة واسترضاء بعد تأنيب وزجر (كما في خطبة الولاية)، وهنا يأتي الدعاء كمبرر باعتباره كوحدة تدخل (intervention) ضمن بنية التبادل التخاطبي[2].

وبعد هذا العرض لتلك الأدوات الإجرائية يبدو جليا أن ما استعمله الحجاج في منتخباته من أساليب بيانية استخدمه مراعيا في ذلك قدر الجمهور المستقبل الذي يوجه إليه الخطاب لأنه كما يقول أبو هلال العسكري «ينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها، وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 97.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 99.

الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، حتى تقتسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»[1].

ولاشك أن الدعاء الذي يتضمن النداء، والأوامر والنواهي يعد من بين الآليات التي تسمح للخطيب بالنفاذ إلى نفسية المتلقي وإلى قلبه وعقله معا، وبالتالي تحقيق القصد من وراء تلك الأقوال التي يوردها الخطيب. «يا أهل الكوفة، يا أهل العراق» في خطبة الولاية، وكقوله «يا أيها الناس» في خطبة البصرة.

وبالإضافة إلى وظيفة الدعاء، فقد أكد النقاد القدامى أن لحسن الاستهلال وحسن التخلص، ومواقف استعطاف السامع واستمالته، ودفعه إلى أشياء وقبضه عن أخرى هي طريقة تقوم وراءها غاية أو سياسة، ولذلك يجب «أن يتوفر في عدته حتى يبلغ غايته مهما تنوعت، وتنجح عملية التخاطب الأدبي وهي سياسة محورها الخطاب، ومعيارها المتقبل الضمني، وإن كان مرامها المتقبل الصريح»[2].

ولأن الدعاء المتضمن للنداء والأمر والنهي، مرتبط في الكتابة العربية بالخطبة، وبين الخطبة والرسالة صلة وثقى، والخطبة لها حظ وافر من أمر الدين؛ فإن ذلك ينسحب على وحدة الدعاء ووظيفة الأثر الذي تحدثه عند سماعها أو تلقيها، لذلك نجد الحجاج، يكرر في التهديد والوعيد بعض المعاني التي يرجو من خلالها تحقيق تلك الأقوال وضرورة تحقق تلك المعاني المرجوة

1)- الصناعتين، أبو الهلال العسكري، ص: 153.

2)- جمالية الألفة (النص ومتقبله في التراث النقدي)، شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس، 1993، ص: 21.

في النفوس والعمل بها في الواقع ومن ثم تحقيق القصد.

ومن ذلك قوله: إن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- المتضمن الدعاء للأمير بطول العمر، هذا الدعاء الذي يؤثر -لا محالة- في نفسية الأمير الذي بيده أن يرفع من شأن الحجاج ويحط من قدر غيره، وخاصة وأن عبد الملك بن مروان يرى أن الحجاج هو سيفه الذي لا ينبو، ويده التي تبطش بكل عدو للأمير.

وبالإضافة إلى ذلك فإن فعل الدعاء بنية تتدخل في تفعيل الدور الخطابي وتمكينه من نفسية المخاطب، وتؤدي وظيفة نفسية تدخل ضمن استمالة السامع، واستدراجه للحديث، كما تعكس ضمنيا الرغبة من قبل المتكلم في الحظوة ونيل الاحترام من أجل الانصياع لكلامه الذي غالبا ما يكون مثقلا بمعارف ومفاهيم هي خلاصة ما خرج به الحجاج من نقمته وحقده على أهل العراق.

ونجد هذا حينما تفرغ بنية الدعاء من محتواها لتختزل في جملة النداء «يا أهل الكوفة، يا أهل العراق، أيها الناس» ويكون ما بعدها عرضا لتلك الأفكار والمعارف التي يود إيصال معانيها إلى جمهوره، وكأن النداء في منتخبات الحجاج هو فعل الكلام الذي يثير الكلام.

وإذا ما اعتبرنا المخاطبة حديث بين متكلم ومخاطب، فإن التبادل واستمراريته، يبدو وكأنه ينشأ بقوة ذلك النداء وتلك الأوامر والنواهي، بل إن إدراك الذات والآخر والعالم لا يتم إلا بواسطة الكلام، إضافة إلى ذلك النفوذ الطبيعي، وتلك السلطة التي يمتلكها الحجاج[1].

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 101.

يقول أبو حيان التوحيدي: «يا هذا خذ من التصريح ما يكون بيانا لك في التعريض، وحصل من التعريض ما يكون زيادة لك في التصريح، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة، ولا سمة، ولا علامة، ولا اسم، ولا ألف ولا باء إلا وفي مضمونه آية تدل على سر منطوي وعلانية منشورة، وقدرة بادية، وحكمة مخبورة، وإلهية لائقة، وعبودية شائقة وخافية مشوقة، وبادية معوقة، فاصرف زمانك كله في فلي هذه الأثناء واستنباط هذه الأنباء»(1).

فاللغة هي التي تمكن المتكلم من الإحالة إلى نفسه في كل مرة، كما قد توحي بذلك من خلال السلطة التي يمارسها على الآخر، فبمجرد ما يوجه المبادرة إلى الأنت يحوله إلى أنا، ويتحول إلى أنت وهكذا(2). فأما «كون أنا يحيل إلى نفسه فذلك استجابة لخاصية الانعكاسية (réflexivité) ولكنه يتحول إلى أنت بمجرد ما يرجع الآخر (الأنت) هذه اللفظة لنفسه، وهو بذلك يدخل ضمن خاصية التناظرية (symétrie) وهي خاصية تواصلية إلى جانب الانعكاسية، حيث يكون مرسل الرسالة في الوقت نفسه، هو نفسه أول مستقبل لها»(3).

وذلك يعود إلى المكانة التي تحتلها المكانة المرسلة للخطاب الأدبي منه على وجه الخصوص، حيث يتجلى حضوره بدرجات متعددة، تبعا للممارسة الخطابية ذاتها من مقاصد وقدرة على التشكيل من خلال حضوره المباشر

---

1)- المرجع نفسه، ص: 102.

2)- الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، ص: 5، نقلا عن: تحليل الخطاب الصوفي، ص: 102.

3)- L’énonciation de la subjectivité dans le langage, P: 21.

الذي تدل عليه لفظة (أنـــا) في قولـــه (أنـــا ابـــن جـــلا، إني أرى، وإني لصاحبها،...) أو معادلاتها (وطلاع الثنايا، متى أضع العمامـــة تعرفـــوني، لا يغمز جانبي، لا يقعقع لي، أحذو، أجزي، ...) وحضور غير مباشر من خلال التعبيرات العاطفية والتأويلية والتوجيهية التي يوضحها السياق وتتـــبين مـــن خلاله، ثم هناك الحضور الذي يتجلى من خلال مجمل الخيارات الأســـلوبية وتنظيم الخطاب[1].

وبالإضافة إلى ما لبنية الدعاء (نداء، أوامر، نواهي) من وظائف، يظـــل النداء بمثابة العقد الذي يقيمه الخطاب في كل مرة يحس فيها بالهيمنة، وبمجرد ما نتوجه بالنداء إلى الآخر، فإننا نسمح له بمشاركتنا، ولأنفـــسنا بالتنـــازل بطريقة ما وطرح أسئلة يفترض فهما وردا يتطابق وفـــق الجهـــاز العـــاطفي والفكري الذي ينشئه المتكلم للتأثير على المخاطب[2].

وهكذا فإنه لا يمكننا أن ننكر الكفاءة الـــتي يكـــسبها فعـــل الـــدعاء للخطيب، ولقد بينا بأنها المؤشر الأول للتواصل، وتتمثل تلـــك الكفـــاءة في حصول المعاني المرجوة من قبل الخطيب، ومن هنا فإن التحـــول في إنتـــاج الملفوظات والبحث عن الأكثر فائدة في تحصيل التفاعل لدلالة على حـــضور المخاطب وضمان التعاون مع المتكلم خطابيا، وتلك «سمـــة كـــل خطـــاب تحاوري حيث يضطر القائمون بفعل التبادل الخطابي إلى إيقافه ليكون استئنافه أنشط بعد ذلك»[3].

1)− Ibid, P: 159.

2)− L'énonciation de la subjectivité dans le langage, P: 159.

3)− Pragmatique pour le discours littéraire, P: 102.

وبعد، فإن الخطبة إذا ختمت بدعاء، فإن هذا الدعاء الختامي يجسد الوفاق بين المتكلم والمخاطب، ويعلن عن نجاح فعل التحاور الذي يحققه الخطيب بواسطة الاستدراج، تلك البنية التي يشتغل من خلالها على أفعال كلام تقلب بها الخطاب، وإن كان الحجاج قد ختم خطبة الولاية بالتهديد والوعيد الذي يستدعي القيام بالفعل على وجه الإلزام.

II-4- بنية الاستدراج:

إن التحاور لا يفترض فقط تبادل الكلام بين مخاطبين حقيقيين معا أو بين مخاطب حقيقي وآخر مفترض «ولكنه أيضا علاقة داخلية موضوعية وقصدية بين مشاركة متكلم وآخر يستحسنها ويقدرها»[1].

وتتأسس بنية الاستدراج من خلال النداء، وهو فعل طلب إقبال المخاطب ودعوته للمشاركة في الحديث أو السماع للخطاب، ولقد عبر الحجاج عن هذه البنية بالتخاطب والتحاور والنداء (يا أهل الكوفة، يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق).

ويبدو فعل النداء في خطبة الولاية أو غيرها من خطب الحجاج مطلبا طبيعيا لكل فعل إبلاغي، لأن الإنسان ما يتكلم إلا ليشرك معه مخاطبا ما، حتى وإن انشق ذلك المخاطب عنه، عندما يحاول أن يجد نفسه فيما يغايرها[2]، وينشق المتحاور على حد تعبير طه عبد الرحمن «إلى ذات عارضة تثبت منطوق

---

1)- Stratégies discursives, actes du colloque du centre de recherches linguistiques de Lyon, presse universitaire de Lyon, 1977, P : 166.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 105.

القول، وإلى أخرى معترضة تصل المنطوق بالمفهوم المخالف»[1].

ولعل الحجاج يكون قد أدرك بحكم أنه عايش الانتقال من السلطة الشفاهية إلى سلطة الكتابة أن السماع هو بمكانة القانون الأول الذي تبني عليه المشاركة في الخطاب، لذا نراه بعد النداء يشرع في التهديد والوعيد ليعود من جديد إلى النداء ليعرض صفات أهل العراق، لأنه بفعل حصول الإقبال بعد النداء يحصل فعل السماع، ومن ثم فعل التخاطب «وذلك أن السماع وبال على السامع متى لم يؤكده بما يشهد الوجد به»[2].

وهكذا فإن السماع لا يؤدي فقط دور طلب المشاركة في الحديث، ولكن يحل ما قد يحصل أثناء المخاطبة من إشكال كعدم التجاوب من قبل المتلقي، وكذا خشية من توقف الفعل التواصلي بعد خفوته.

يبدأ الحجاج في استدراجه المخاطب بتقديمه صورة عن نفسه مخالفة لغيره، بما يعرفه أهل العراق، وهي ارتداؤه للعمامة بشكل مغاير، وبعد الافتخار بالنفس، وبأنه كالأمر الظاهر، ينادي أهل الكوفة ليخبرهم بأنه يحمل الشر ويجزي بمثله كل من سولت له نفسه عصيانا، مشبها إياهم بالثمار التي نضجت، وحان قطافها، وسيكون بلا منازع هو القاطف لهذه الثمار التي ما هي إلا رؤوسهم التي ستقطع، ودماؤهم التي ستراق، وستجري كالسيل العارم.

والملاحظ أن الحجاج يوظف أبياتا من النظم مراعاة للذوق العربي، وإن لم يكن قد استهل الخطبة بالتحميد والثناء كما جرت العادة، فذلك راجع إلى

1)- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 44.

2)- الإشارات الإلهية، أبو حيان التوحيدي، ص: 349، نقلا عن: تحليل الخطاب الصوفي، ص: 107.

نقمته على أهل العراق، وهو لذلك ينتقل بعد الافتخار بنفسه إلى عرض تلك الصور المرعبة التي -لا محالة- تحمل في طياتها توقع قابلية حصول التفاعل نظرا لمعرفة أهل العراق بشخص الحجاج وبمدى صدقه في أقواله وجديته في الإنجاز.

ومن هنا، فإن الهيئة الإخبارية التي وردت بها الأفعال الكلامية في خطبة الولاية، تستدعي مطلوبا، فعل حصوله ثابت بتلفظه، وهو طلب القيام بأمر، وهنا نلمس الدور العظيم الذي يعطيه الحجاج للكلمة، والفعل الذي يمكن أن يحدثه في النفس، لذلك لا نستغرب تلك الكفة الزاجرة التي يخاطب بها الحجاج قوما ألفوا العصيان والتخاذل، أن أداء الواجبات الدينية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أفعال خطبة الولاية لا تتضمن زمن الأمر ولكنها تمثل أوامرا ونواهي، لابد لأهل العراق من القيام بها أو الكف عنها، وإلا عوقبوا. وتشكل الأفعال التي استعملها الحجاج إفادة جمهوره الحكم الذي تتضمنه الجملة أو لازم الفائدة، إلى غرض الاستمالة والإغراء وخاصة إذا علمنا أن ردود أفعال جمهوره تنعدم، ومن ذلك قوله: «إنكم لطالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي» ففي هذه العبارات إخبار ولكنه يتضمن الكف عن هذه المعاصي، وقوله: «إن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت مترله» ففي هذه العبارات إخبار كذلك ولكنه يتضمن القيام بالفعل.

وواضح أن عبارات الحجاج في معظم منتخباته هي أقرب إلى الحكمة لما تتضمنه من معان أما استشهاده فإنه يخلق جوا للقبول لأنه يحمل بداخله

عنصر الاستدراج وذلك لما يتوفر عليه من قوة الحجة، لمجرد أنه آية من كلام الله؛ صيغت بطريقة تصور المشهد، مشهد أهل القرية الذين عصوا الله بعد أن أطعمهم من الجوع، وآمنهم من الخوف، ومشهد أهل العراق الذين سارعوا إلى الفتن وتخاذلوا في الدفاع عن إعلاء كلمة الحق، ووضعوا سنن تخالف ما شرعه الله. فإذا كان عقاب أهل القرية هو الجوع والخوف، فإن عقاب أهل العراق بالمثل، «من تخلف سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت مترله».

ومعلوم أن الخطيب عندما يشعر بفقدان التوازن التبادلي، فإنه يلجأ إلى الدعاء أو النداء أو الاستشهاد، أو الإيهام بتدخلات الآخر، وافتراض ردود أفعاله (قصة آدم وقتل ابن الزبير) وما ذلك إلا ليعيد التوازن ويحافظ على الاستمرارية الخطابية، كأن يقول: «إني والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق»، «وإنكم لكأهل قرية...».

والذي نسجله هنا هو أن الرغبة الجامحة في الإقناع هي التي قد تدفع بالمتكلم إلى فرض التحاور بالقوة، مما يؤدي إلى التنافس وإيثار الغلبة، وقد يسبق الخطيب هذه «المهاترة» بتبرير كما يمكنه أن يتقيد بمواقف تفرض عليه السكوت عن بعض الجمل، يقول ابن حيان التوحيدي: «لعلك تقول بغفلتك وقلة تجربتك، وقصور نظرك، فلو سكت في الجملة كان أصلح من هذه الاستغاثة المكررة، ومن هذا العويل الطويل، ومن هذه البدايات المغرضة، ومن هذه الطرق المختلفة...»[1].

ولعل المعول عليه في السكوت عن بعض الجمل أو التقيد ببعض المواقف هو دعوة المتلقي للوقوف على المقاصد، وعلى مدى اختلاف المواقف الخطابية التي يخلفها اختلاف الحال، وإشارة إلى أن تشكيل خطاب ما، يفترض

1)- الإشارات، أبو حيان التوحيدي ص: 105، نقلا عن تحليل الخطاب الصوفي، ص:110.

مجموعة من الخيارات التي قد يصعب تبريرها أو الإفصاح عنها من قبل المتكلم، وربما يفتح المجال كذلك للمتلقي كي يتحرك بكل حرية للقبض على غرض الخطيب، وكذا على تجربة أو خلفية أو محددات تاريخية أو سياسية أو اجتماعية تحكمت في إنشاء المعنى، وذلك أن النص الظاهر ليس في حقيقة الأمر سوى مزاحم لنص آخر يسري بين سطوره، وأن النص الخطابي الإقناعي في مجمله يحمل مجموعات من الأدلة لتحيل إلى مضامين أو تصورات بالإضافة إلى أنه ممارسة يتكون من خلالها الاتصال مع الآخر(1).

ومن هنا قد يكون الموضوع ذاته هو الذي يخلق تقلبا في المواقف، ولما كان الموضوع ذاته تجربة في حركة مستمرة، نرى الحجاج في كل مقطوعة يزهو بنرجسية مفتخرا بشجاعته وكفاءته واستحقاقه للمنصب الجليل الذي ولاه إياه الخليفة (نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا، فرماكم بي).

وإلى جانب كل ما سبق ذكره، تسمح بنية الاستدراج للمتكلم والمتلقي بتعدد المواقف الخطابية، وكذا تعدد ذواتهم وتداخلها، وذلك نظرا لتعدد أفعال الكلام من صريحة مباشرة، أو غير مباشرة، كأن يكون القول متضمنا أمرا يفيد طلب حصول شيء، كما قد يحوي الأمر فعل كلام مقدر فيه، حين يخرج الأمر عن غرضه الأصلي ليدل على الدعاء أو النداء أو التمني أو الاسترخاء أو التوبيخ وغيرها، كقول الحجاج (يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق)، (...فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي)، (من تخلف بعد ثلاثة أيام بعد أخذ عطائه سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت مترله).

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 110.

وانطلاقا من هذه العبارات نلاحظ أن الذات المتكلمة تنشق إلى أكثر من ذات تبعا لتعدد أفعال الكلام، كما أن أفعال الكلام ذاتها قد تفرض على المتكلم أن يكون ملزما بها أو مجرد مؤول لها (إن أمير المـــؤمنين أمـــرني أن أعطـــيكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع المهلب بن أبي صفرة)، ولا غـــرو أن نجد هذا التنوع والتغاير في المقامات الخطابية مجالا للمتحاور للانتقال بينها[1].

ويمكننا أن نشير هنا إلى أن هذا التغاير لا بد أن يكون نابعا من تفهـــم الخطيب العميق لدورة التخاطب التي يجسدها عبد الرحمن حـــاج صـــالح في الترسيمة الآتية[2].

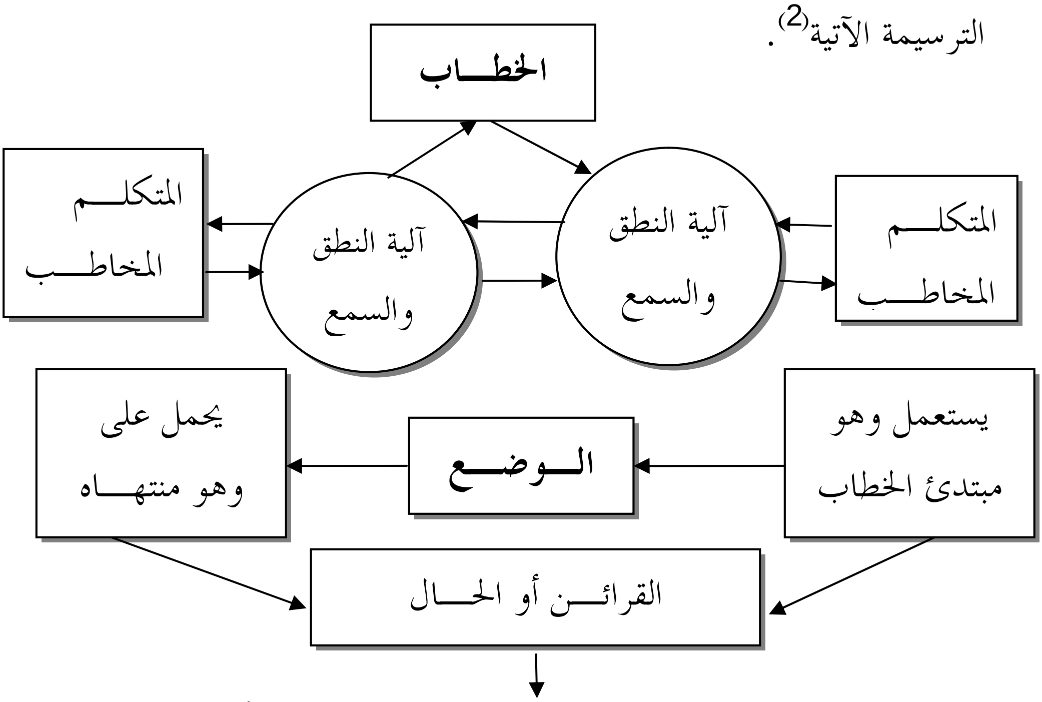

بها يتحدّد معنى الخطاب ومعاني المفردات المرادة وبالتالي أغراض الكلام

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 112.

2)- التحليل العلمي للنصوص، عبد الرحمن حاج صالح، ضمن بحوث في علم اللّسان جمع وتصنيف وتقديم صالح بلعيد، مخطوط تحت الطبع، ج234/1.

واعتمادا على هذه الترسيمة، نلاحظ كيف أن أفعال الكلام -في خطبة الولاية- تتعدد مما يفرض تعددا في الذات المسؤولة عن فعل الكلام، وذلك باختلاف الوظيفة الخطابية لها، فتبدو ذاتا كلية حين الإخبار، وتارة ذاتا مفتخرة، وأخرى حاقدة، ثائرة، مهددة. ويسيطر في هذه الخطبة ضمير المتكلم، وكذا ضمير المخاطب (كم)، إلى جانب العبارات الإخبارية على اعتبار الذات المتكلمة فيها هي صاحبة السلطة في الكلام.

ومن ظواهر بنية الاستدراج في خطبة الولاية اعتماد الحجاج على مبدأ المهاجمة عله يحمل المخاطب على الاعتراض فيتهمه بالشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، كما يتهمه بالعصيان بقوله: «لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي»، ثم لا يلبث أن يعود إلى التهديد والوعيد موظفا القسم «أما والله لألحونكم لحو العصا...» ليبين لهم الأسباب التي جعلته يحقد عليهم ويجمعهم ليلقي عليهم هذه الخطبة، وبعد أن يرهبهم ويرعبهم، يذكرهم بأهم كأهل القرية التي عصت الخالق ونالت عقابها.

ولعل المتلقي لخطب الحجاج، يدرك أن الحجاج كان على وعي من أن مبدأ المحاججة هو مبدأ التواصل، لذلك توسع بالاشتغال به، سواء باستدعاء حجج جاهزة في هيئة خبرية كالشعر والقرآن الكريم، أو افتراضها مسبّقا في فعل طلبي (هذا أوان الشد فاشتدي زيم)، أو اعتماد القياس والبرهان في عرضها، والشرح والتعليل وغيرها من الأساليب الإقناعية التي وظفها الاستدراج.

وهكذا فإن الإقناع بالحجة في خطب الحجاج يبدو بمثابة القانون الإلزامي الذي يحدث التفاعل به، وهو هنا يرتبط بالإكراه والإحراج كما في خطبة الولاية وفي معظم خطبه.

ومجمل القول، أن الوعي المنهجي للتخاطب لا شك أنه يجسد تلك الصورة التي درج عليها كل خطيب بليغ من خطباء الجاهلية (قس بن ساعدة) إلى خطباء الصدر الأول للإسلام (خطبة الرسول ﷺ وخطب علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب–رضي الله عنهما–) إلى العصر الأموي، ولا شك أن الحجاج قد تأثر بأساليب الاشتغال المنهجي عند المعتزلة الذين يمزجون في المخاطبات بين القلب والعقل معا.

وهكذا فإن «كل نظرية للفعل التواصلي تخفي وراءها نظرية في البرهنة، هي عبارة عن صياغة شكل عقلاني للغة. وبالطبع فإن النظرية البرهانية لا تنفصل عن محتوى معرفي»[1]. وعلى هذا الاعتبار يمكننا القول؛ إن خطب الحجاج تمثل نظرية للفعل التواصلي.

ولقد لاحظنا منذ البداية أن الممارسة الخطابية في الدعاء المتضمن للنداء، يحددها قصد خطابي يتجلى من خلال ذلك النداء كبنية مؤطرة تقترن بجلب مبدأ الفائدة للمتكلم والمخاطب على السواء، وهكذا فإن المظهر القصدي ووظيفته، والاعتراف به من قبل المتكلم في النداء، يعتبر الأثر السابق لفعل النشاط الحجاجي الذي يثري بنية الاستدراج والمحاورة بصفة عامة، حيث إن الملفوظات الحجاجية بينها «مؤداة من قبل الفاعل أو بواسطة أداة أو رابط غير أن المتكلم هو الذي يعطي التعليمات بطريقة توجه الخطاب سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة»[2].

1)– تحليل الخطاب الصوفي، ص: 116.

2)– Argumentation, et Conversation, J.MŒSCLER, Hatier, 1985, P: 65.

وبهذا نرى الحجاج في معظم المنتخبات متلزما بالحجة البليغة قولا وإنجازا يطالب بها الطرف الآخر، باعتبارها قانونا للممارسة الخطابية التي تحفظ فيها حقوق المتخاطبين وواجباتهم التي لا تخرج عن المعيار المنطقي والخلقي في الوقت ذاته؛ الذي أساسه الصدق في القول، وجلب المنفعة للآخر، كأن يكون أثرا يحدث في النفس ويؤدي إلى فعل ما.

وبديهي أن الخطيب لا يقدم الحجة من أجل إلحاق الضرر بالآخرين، وإنما من أجل تقديم النصيحة وقبولها، ولعل هذا ما يعكسه قول الحجاج: «وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله» على أن هذا التهديد الأخير الذي يختم به الحجاج خطبة الولاية، يخلق فرضية للقبول في خضم الوضع التحاوري.

III- صور الحجاج في منتخبات الحجاج:

مرّ المنطق في علاقته باللغة بمرحلتين؛ تمثلت الأولى في المنطق الأرسطي الذي له علاقة مسبقة ومتوازية بين المنطق واللغة مبنية على أساس التعريفات ذاتها، وهكذا لم يكن المنطق سوى تحليل للفكر القائم على اللغة، أما المرحلة الثانية فقد أسفرت عن القطيعة بين الجانبين (المنطق واللغة) حيث بنى كل من «بول» (Boole) و«مورجان» (Morgan) نموذج المنطق كلغة صناعية تهدف إلى تفادي وجوه القصور في اللغة الطبيعية، كاللّبس وعدم التماسك[1].

1)- بلاغة الخطاب وعلم النصّ، ص: 12.

أما التعريفات التي تقدم اليوم عن اللغة، فإنها تتأسس على منطلقات وظيفية تأخذ في حسبانها لغة الحياة بمسوياتها المختلفة باعتبارها ظاهرة بشرية، وبعد الكلام هو الإطار الشرعي للظاهرة اللسانية، ثم يأتي مفهوم التداولية ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة العربية القديمة بعبارة «مقتضى الحال» التي أنتجت المقولة الشهيرة «لكل مقام مقال».

وإن كنا نعثر على سابقتها الواضحة في عبارات «شيشرون» (Ciceron) الروماني الذي يقول: «إن الرجل البليغ يجب أن يقدم قبل كل شيء البراهين على حكمته، ويتكيف مع مختلف الظروف والشخصيات، أعتقد بالفعل أنه لا يجب أن يتكلم دائما بنفس الطريقة أمام الجميع، ولا ضد كل شيء، ولا لصالح كل شيء، عليه إذن لكي يكون بليغا أن يكون جديرا بأن يجعل لكل مقام مقالا»(1).

وانطلاقا من هذه المفاتيح التي يسلمنا إياها «شيشرون» يمكننا الولوج إلى عالم خطب الحجاج «لنكشف الأدوات الإقناعية التي استعان بها، حتى يكون جديرا بلقب الرجل البليغ.

III-1- القياس الخطابي:

يتسع القياس الخطابي ليشمل كل صور الاستقراء والاستنتاج القائمة على الاحتمال لا القطع، وأولها: التعارض والتضاد، وثانيها التقسيم المستقصي.

III-1-1- التعارض والتضاد:

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

1)- La Cienca del Texto, Van Gijek, Trad Barcelona, 1984, P: 79.

1- قال الحجاج في إحدى خطبه: «زعمتم أني ساحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَاحِرِ﴾، وقد أفلحت»[1].

وتخريج هذا المقتطف هكذا:

- لا يفلح الساحر.
- أفلح الحجاج
- الحجاج ليس ساحرا.
- هم كاذبون، لأن تصديقهم يؤدي إلى تكذيب الله، والله أكبر منهم، إذن: لا مفر من أن ينكسر الأصغر.

2- «زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم مالا تعلمون؟»[2].

وتخريجه:

- من يعلم الاسم الأكبر لا يغلب.
- تفترضون أني أعلم الاسم الأكبر.
- إذن: أنتم مخطئون في مقاتلتي.

3- وقال أيضا: «يا أهل العراق، بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال: من ملك على عشر رقاب من المسلمين، جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور، وأيم الله، إني لأحب إلي أن أحشر مع أبي بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا»[3].

1)- العقد الفريد، ج140/4.

2)- المرجع نفسه، ج46/5.

3)- العقد الفريد، ج46/5.

وتخرجه:

- أبو بكر وعمر حكما.
- الحكم لم يوبق أبا بكر وعمر.
- الحكم لا يوبق أحدا.

وفي هذا المقتطف الأخير، نلمس استشهادا بالمثل الرفيع الذي لا يجرؤ المستمع على الطعن فيه؛ كما فيه تحقير لأهل العراق وكما هو معلوم فإن للمثل قوة القياس المضمر، كما أن الحكمة إذا أضيف إليها تفسير صارت قياسا(1).

وقصارى ما نود توضيحه، أن منتخبات الحجاج لم تخل من الأقيسة العقلية المتنوعة، التي يدخل معظمها فيما أحصاه «أرسطو» وذلك أنها تعود إلى طبيعة العقل الإنساني وإلى مبادئه، ولكن لا يجب الاتجاه إلى المنطق المكثف ولا إلى الحجة العقلية الصريحة، لأن مجال ذلك هو المناظرات بين المكلمين وأصحاب المذاهب الدينية، لا الخطابة التي توجه إلى متلق ليس في مقدوره إلاّ التنفيذ والاستجابة.

ولقد سبق الذكر أن القياس الخطابي يقوم على الاحتمال والترجيح، ومجاله الأساس في نظرية «أرسطو» المرافعات القضائية، وإن كان موضوعنا ليس هو الخطابة القضائية، فإن الواقع يقتضي منا الاعتراف بأن كل المواقف يسعى فيها الخطباء إلى تبرئة الذمة ودفع التهمة لفعل شنيع. كما فعل الحجاج بن يوسف عندما قتل عبد الله بن الزبير بالحرم، وجزع الناس لذلك جاء في جمهرة خطب العرب:

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ط2، ص: 76.

«ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله، ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع أدم حرمة الجنة، لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها، بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة»[1].

فلكي يهون الحجاج من شأن قتل ابن الزبير في الحرم، أتى بقصة أدم وخروجه من الجنة، وتقوم رؤية الحجاج في هذا المقتطف على مقاله تفصيلية ضمنية من ثنائياتها.

- ابن الزبير ← آدم، وآدم أكبر من ابن الزبير
- حبر هذه الأمة ← خلقه الله وأسجد له الملائكة.
- الطمع في الخلافة ← الأكل من الشجرة الخلد.
- الخلافة ← الخلد.
- مكة ← الجنة، والجنة، أكبر من مكة.
- الدولة (الخليفة + الحجاج) ← الله جلّ وعلا.
- القتل ← الطرد من الجنة.

ويمكن تفصيل هذه المعطيات كالآتي:

أ- المشبه به:

- الله خلق آدم وأنعم عليه بأن أسجد له ملائكته وأسكنه جنته واشترط عليه ألا يأكل من شجرة الخلد.

1)- جمهرة خطب العرب، ج287/2.

- آدم لم يف بالشرط وأكل من الشجرة.

النتيجة: حلّ به عقاب الله وهو الطرد من الجنة.

ب- المشبّه:

- اختلف ابن الزبير مع الدولة الأموية دون منٍّ منها، أو التزام منه.

- قتل ابن الزبير لهذا الاختلاف.

وعلى الرغم من أن المعطيات بين المشبه به والمشبه لا تتطابق، وعلى الرغم من أنها تقوم على الإيهام بالتشابه، فإنها مقبولة في الخطابة التي تقوم على الاحتمال والإمكان لا على اليقين[1].

وهكذا يتجلى أن الحجاج يكون قد قدر ردود أفعال جمهوره، وبنى عليها أقواله، وهو لذلك استنبط تلك الأقوال الافتراضية (زعمتم أني ساحر) حججا هيأ لها أخرى (وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾) وقد أفلحت. و«زعمتم أني أعلم الاسم الأكبر، فلم تقاتلون من يعلم مالا تعلمون؟» مما يسمح لنا بالوقوف على خطابين، أحدهما ضد الآخر. وبما أن الخطاب الحجاجي يتموضع دائما قياسا بخطاب ضد حقيقي أو تقديري، فإنه يسهم في تحقيق النشاط التواصلي الذي تفرضه البنية اللغوية ذاتها أو السياق النصي. وقد يتعين بطريقة مباشرة عن طريق الروابط الحجاجية (Connecteur Argumentatif) التي تصل المقدمة بالاستنتاج وتتدخل في توجيه دلالة المحاجة، كالقسم، والاستفهام، والشرط وغيرها[2].

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط79/2.

2)- تحليل الخطاب الصوفي، ص: 118.

وتبدو تلك الإجابات أو الإقرار بعدم صحتها سببا لنتائج معينة، هـــي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام الذي تتمحور حوله كل المعطيات الحجاجية في هذا الخطاب، والأساس الذي يقيم عليه المتكلم استدراجه للمخاطب، ولهذا نقول إن المتكلم «يقوم بالفعل الاستنتاجي حينما يتلفظ بقول ما، وفي الوقت نفسه يرجع إلى معطى معين يقدمه على أساس أنه نقطة انطلاق لاســـتدلال سيؤدي إلى إصدار القول»(1). ولذلك فإن الفعل الاســـتنتاجي مـــا هـــو في الحقيقة إلا خطاب حجاجي مرتبط بالوضعية التبليغية التي يقيمها الحجـــاج على التأثير والإقناع.

ولعل بنية المخاطبة على هذا الوضع التبليغي هي التي حذت بالحجاج إلى الشرح والتعليل والتدعيم، في خطبته بعد قتله ابن الزبير في الحرم وجزع الناس لذلك كما سبق وأن رأيناه.

III-1-2- التقسيم المستقصي:

جاء في إحدى خطب الحجاج بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن الله كفانا مؤونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة، فليت الله كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا، مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهـــالكم لا يتعلمـــون، وشـــراركم لا يتوبون؟!، مالي أراكم تحرصون على ما كفيتم، وتضيعون ما به أمرتم؟!»(2).

فالمتلقي لهذه الخطبة، يدرك أن الحجاج يسعى إلى الإيحـــاء بالإحاطـــة بالموضوع من كل جوانبه، وذلك لصرف نظـــر المـــستمع عـــن البحـــث

---

1)- L'argumentation dans la langue, O.Ducrot et Anscoubre, Pierre Margada, édition, Paris, P: 1983.

2)- عقد الفريد، ج4/113.

والتقصي، ولعل الشيء الذي يسهل الإقناع في هذه الخطبة هو ذلك «العجب» وتلك «المقابلة».

III-2- المثل:

يقوم المثل في الخطابة مقام الاستقراء في المنطق، ومن هنا يمكن الجزم أن المثل هو استقراء بلاغي؛ كما أنه حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية لأحديهما وذلك بالنظر إلى مماثلتها[1].

ولقد انتبه دارسوا النص القرآني -والبلاغيون العرب بالمساهمة والمثاقفة إلى أهمية المثل في إحداث الإقناع، ومن هؤلاء ابن وهب الذي يقول: «وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا، وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[2] وقال: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِم، وَضَرَبْنَا لَكُم الأَمْثَالَ﴾[3]، وكذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم، ونطقت ببعضه على ألسن الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها»[4].

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 82.

2)- سور الروم، الآية: 58/ سور الزمر، الآية: 27

3)- سورة إبراهيم، الآية: 45.

4)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 117-118.

ويستعمل المثل في تقدير الزركشي «لإخراج مالا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجربه العادة، ومالا قوة له من الصفة إلى ماله قوة»[1] كما أن المثل «قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره...»[2] وهكذا فإن المثل يؤثر في النفس مثل تأثير الدليل[3].

وبعد هذا، فإن المثل دعامة كبرى من دعائم الخطابة، لما يحققه من تأثير وإقناع، وهو إذا أخذ بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه، والاستعارة، صار أهم دعامة من دعائم البلاغة، وهذا هو المنحى الذي سار عليه بيريلمان وأولبريشت في كتابهما المشهور (traité de l'argumentatif) ولا شك في أنه المنحى نفسه الذي انتهجه حيث ربط بين علم البيان (وعماده: التشبيه والتمثيل والاستعارة) بعلم المعاني من جهة، وعلم الاستدلال من جهة ثانية[4].

ويتنوع المثل من التاريخي إلى التشبيهي فمن المثل التاريخي، استغلال الحجاج قصة آدم وشجرة الخلد، لكي يبرر موقفه المحرج بعد قتله لابن الزبير -وقد سبق الحديث عن ذلك- وأما المثل التشبيهي، فيتمثل في تلك الآيات القرآنية التي يستشهد بها الحجاج في خطبه، كلما دعاه الموقف إلى ذلك.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في خطبة الولاية: فإنكم لـ﴿كَأَهْلِ قَرْيَة كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّة يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[5].

1)- الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980، ص: 232.
2)- المرجع نفسه، ص: 233.
3)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
4)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 85.
5)- سورة النحل، الآية: 112.

وتخريج هذا التشبيه كمايلي:

- أهل العراق	←	- أهل القرية
- أمير المؤمنين أمر الحجاج بإعطاء أهل العراق أعطياتهم.	←	- الله أتى أهل القرية رغدا من كل مكان
- أهل العراق إذا لم يستقيموا على الحق كان عقابهم سفك الدماء، سلب الأموال وتهديم الديار	←	- أهل القرية كفروا بأنعم الله فتحول أمانهم وطمأنينتهم إلى خوف وجوع.

والملاحظ أن هذا النوع من التمثيل يقوم على الاستعارة والرمز بصفة عامة (فسفك الدماء، وسلب الأموال، وتهديم الديار) رمز للخوف والجوع، و«إعطائكم أعطياتكم» رمز إلى النعمة، وقوله «أن أوجهكم لمحاربة عدوكم» رمز لتحقيق الطمأنينة والسلام بعد الاستجابة للنداء والقضاء على العدو.

وخلاصة القول أن نماذج الأقيسة الخطابية من تعارض وتضاد، وتقسيمات مستقصية وتمثيل كلها تمثل ما يسمى بالانسجام الداخلي للخطاب الإقناعي.

IV– الانسجام مع الخارج.

تسمى الوسائل المستعملة في هذا الصدر عند أرسطو بالحجج أو البراهين الجاهزة، أو غير الصناعية، وتتضمن الشهود والاعترافات والقوانين وأقوال الحكماء، وإن كان هذا يخص الخطابة القضائية، فإن الخطابة العربية تتضمن بالمقابل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالإضافة إلى الشعر والأمثال والحكم، وهي أيضا براهين جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى

مصداقية الناس عليها، وتداولها بينهم، أما دور الخطيب فإنه ينحصر في مدى براعته وتوفيقه لاختيار هذه البراهين، وتوجيهها إلى الغرض المقصودة للاستدلال عليها.

جاء في البيان والتبيين: «وأكثر الخطباء لا يتماثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء»[1]، فالأبيات الشعرية إذا ما رصدت للإرهاب والإغراب كما في معظم خطب الحجاج؛ فإنها تعد بمثابة المثل والحكمة لما لها من قوة في التأثير والإقناع.

ولقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثيل بالشعر في خطبهم، وهي سمة في الخطابة العربية، وأكثر ما نجد التمثيل بالشعر في خطب بني أمية وولاتهم، وقل أن نجده في خطب الخوارج والشيعة[2].

ولعل الحجاج خير نموذج لعصره، في إكثاره من الاستشهادات الشعرية، كما في خطبة الولاية، ومرد ذلك أن الأبيات الشعرية تساهم بشكل كبير في بناء الخطبة إلى جانب أن تدعيم الصورة بما تشيعه من إغراب وإحالة على عالم خاص يدعم الصوت والإيقاع كذلك، ومن أجل ذلك كان العرب يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، أو كلام من النظم، لأن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع[3].

1)- البيان والتبيين، ج118/1.

2)- الخطابة العربية، إحسان النص، ص: 198.

3)- البيان والتبيين، ج118/1.

وهكذا فإن الاستشهاد بالآي القرآني لم يكن حكرا على الخطباء الدينيين دون غيرهم، بل استفاد من تأثير النص القرآني نخبة كبيرة من الخطباء على تفاوت في ذلك؛ ومن الخطباء الذين جعلوا المادة الأساسية في خطبهم ورسائلهم آيات قرآنية؛ عثمان بن عفان، مصعب بن الزبير، زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم(1).

وبالإضافة إلى ما يؤديه المثل (قرآنا، شعرا، حكمة، ...) من دور في التأثير والإقناع، فإنه يشع في الخطب روحا بدويا (لا يقعقع لي بالشنان، لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل)، وذلك لارتباطها بالبادية، وقد اعتاد الناس تقبل مضامين الأمثال باعتبارها من خلاصة تجارب العقلاء من الأجداد والبلغاء، وهي مدعمة -في الغالب- بمجانسات صوتية تقوي الشعور بصحة محتواها.

وصفوة القول، أن النص القرآني وظف في خطب العرب لأغراض استدعته، باعتباره سلطة يتكئ عليها الخطيب إما في الاحتجاج لقضية مختلف فيها كما في المناظرات، وإما لتمثيل حالة مشابهة كما في خطبة الولاية «وإنكم لكأهل قرية...»، وإن كان هذا النوع غالبا في الخطب السياسية والوعظية، أما الغرض الأخير الذي وظف له النص القرآني فهو الاستئناس وذلك لخلق جو ديني كما في المناسبات الدينية والاجتماعية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خطباء بني أمية كانوا يميلون إلى التمثل بالشعر واستغلال إمكاناته الإيقاعية والبيانية والمعجمية، وذلك لخلق جو من الإغراب مهيء للمستمع كما في خطبة الولاية.

---

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 56.

IV-1- الأسلوب:

حاول «جرجياس» أن يطبق على النثر بعض المبادئ الجمالية المستقاة من الشعر، وحينها ظهر الأسلوب ولكنه أخذ مكانة أقل من غيره من عناصر الخطابة عند أرسطو ولكن بعد ذلك تفتقت جوانبه عند اللاتين حتى ابتلع البلاغة كلها، مشخصة في الصور البلاغية، أما في البلاغة العربية التي لم تميز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب، كعدم الالتزام بالوزن، أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى، فلقد احتل الأسلوب الصدارة(1).

ومعلوم أن عامة الناس «يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي»(2).

يستنتج من هذا القول أن مرمى الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والإفحام فقط بل مرماه حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة عاطفته، وجعله يتعصب للقضية أو للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، فيتقدم لفدائها بالنفس والنفيس إذا اقتضت الضرورة، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية تساق جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، ولا يمكنه في أي حال الاستغناء عن المثيرات العاطفية، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد منهم هو مخاطبة وجدانهم والتأثير في عواطفهم(3).

---

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 97.

2)- النقد الأدبي، و.ويمزت، ك.بروكس، ج104/1.

3)- الخطابة العربية في أزهر عصورها، الإمام عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

وهكذا فإن الاستقراء يدلنا على أن أعاظم الخطباء يستعملون بعض قواعد المنطق، ولكنهم لا يقضون أوقاتهم في تنظيم الأدلة، وتنميق البراهين التي إن أقنعت لا تؤثر في السامعين؛ بل إنهم يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب من المؤثرات التي يتفننون في تنويعها، لعلمهم أن ما يوجده أحد المحرضات من تأثير، لا يلبث أن يهن، وينفذ، وهم باستدراج لبق، وكلمات ساحرة، وصوت عذب، يكونون جوا عاطفيا ملائما لقبول استنباطهم(1).

ولعل هذا ما يجعلنا ندرك أن الخطيب الذي يخاطب الجماهير، لا يعول في خطبه على المنطق، بمقدار ما يعول على خلق جو عاطفي مهيئ لقبول ما يقدمه له من أفكار ليسلم ويذعن لما يطلب منه القيام به، كما فعل الحجاج بأسلوب التهديد والوعيد الذي يرعد النفوس ويبرق القلوب.

ومن هنا فإن الجماعة تقبل الدلائل العاطفية الوجدانية إن طوعا أو كرها، بينما تسأم من البراهين العقلية وتضجر منها، وذلك أن الذي يضل الجماعة المتحدة المشاعر والأهواء هو العاطفة، لا العقل، ولو كان أحادها من ذوي الفكر الصائب والعقل الناضج، فإن الواحد متى انضوى تحت لواء الجماعة، غلب عليه روحها العام، وسرت إليه عاطفتها، واستولت عليه مشاعرها.

وانطلاقا من هذا الاعتقاد، فإن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، ولهذا سعى الخطباء ذوو الملكة والحنكة والذين يعرفون كيف تتأثر، -سعوا- إلى مخاطبة شعورها، أكثر من مخاطبة العقل، ومرد ذلك أنه لا سلطان لقواعد المنطق على مشاعر الجماعة، ومن أجل إقناعها، ينبغي الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها، والتظاهر بموافقتها، أو بالدفاع عنها، ثم يحاول

1)- الخطابة العربية، عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

الخطيب تعديلها بموازنات صغيرة عادية تشخص أمامها صورا مؤثرة كما فعل الحجاج (وإنكم لكأهل قرية...) و(إني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق)، (لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ...).

وبالإضافة إلى القدرة على التأثير في النفوس، ينبغي أن يكون الخطيب قادرا على الرجوع القهقري متى وجد المقتضى، وأن يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفوس السامعين حتى يغير منه، كلما دعت الحاجة.

ومن هنا فإن الخطيب مطالب بتجميل الأسلوب حسب المقام، والجمهور الذي إليه الخطاب؟ سواء كان الخطاب شفهيا أو كتابيا أو حواريا، كما يجب على الخطيب ألا ينسى أن لكل نوع خطابي أسلوبا خاصا يليق به، فالأسلوب في الكتابة غيره في المناقشات، وهو في الجماعات غيره في المحاكم، وإذا كان أسلوب الكتابة أدق، فإنه في الحديث أشد حركة وتنازعا[1].

وتذكر الكتب أن أكثر الخطباء العرب، هم شعراء أيضا كقطري بن الفجاءة، والكميت وآخرون، كم أن من الخطباء من كانت له ثقافة أدبية واسعة قائمة على حفظ جيد الأشعار والأمثال مع حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، والحجاج خير نموذج لهذه الطائفة[2].

وعن الحجاج يقول عمر فاروق الطباع: «كان الحجاج رجلا محبا للأدب، فلم يقصر حياته على الحرب والإدارة، بل كان يعقد للشعراء مجالس، ويجزل العطاء لمن مدح منهم بني أمية، أو أثنى على أعماله، ولعل الخطابة أبرز آثره الأدبية، وفيها تبدو شخصيته القوية الحازمة، وشدته،

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 67.

2)- المرجع نفسه، ص: 100.

وقسوته، وبطشه بأعدائه، وقد حفظت له الكتب القديمة مجموعة ضخمة من تراثه الخطابي الذي يكشف عن كثير من جوانب العصر، وصروف البيئة في أثناء ولايته على العراق، فقد كان يخطب في كل مناسبة، ويستعمل لسانه عند كل حادثة تقع، أو أمر يجري، أو ظاهرة تتجلى، كما كان يعمل سيفه في كل حركة عصيان، أو بادرة تمرد، أو شبهة تقع على أحدهم»[1].

وعلى هذا الأساس، فإن الحجاج في معظم المنتخبات لا يهذي بالأفكار التي تتيسر لأي شخص كان، وإنما نجده يعمد إلى نوع خاص من الأسلوب، ولئن كان أسلوب خطبة الولاية يعتمد الغلو، فقد بدا الحجاج مأخوذا بالنقمة منذ مطلعها، لأنه تجاوز «البسملة» فضلا عن سائر الأحاديث الدينية التي دأب الولاة والخلفاء على الاستهلال بها كإحدى سنن الخطب الإسلامية نتيجة لتوحيد الدين والدولة.

وعلى الرغم من الإمام علي -رضي الله عنه- كان أشد غيضا من زياد والحجاج إلا أنه لم يتخل عن المقدمة الدينية التي تبدو ضرورية لتخلع على كلام الخليفة صفة القداسة والتقوى، وإذا كانت خطبة زياد بن أبيه لم تبتدئ بالمقدمة الدينية، فذلك يوحي بصورة غير مباشرة إلى أن الأمويّين لم يأخذوا الدين في أعماق وجدانهم بالجد والتقوى الذين كان أسلافهم قد أخذوا بهما.

ونكاد نرى فيما بعد «أن الحجاج كان في حالة شبيهة بالحالة التي شهدناها في هذه الخطبة، لأنه لم يكد يعرّف بنفسه منذ أن استوى على المنبر، إلا بأنه طلاع الثنايا، وهكذا فإن الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- بالرغم من أنه لم يكن أقل نقمة من هذين الواليّين، ظهر أشدّ انضباطا،

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 273-274.

وأكثر تقيّدا بأحكام الدين»[1].

ويظهر أسلوب النقمة من خلال قوله: «يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق» فالغلوّ الذي شخّص في هذه الجملة يدلّ على أن الألفاظ كانت تنبئ في الواقع عن نفس موتورة، أكلها الحقد على أولئك القوم الذين أسرفوا في خروجهم عن الأخلاق.

ونحن إذ نتعمّق في خطبة الولاية، نجد أن الحجّاج يحاول أن يصلح سامعيه «بالإرهاب» الديني، مقلّدا بذلك الإمام علي -رضي الله عنه- وزياد بن أبيه حتى قيل «تشبّه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجّاج بزياد فأهلك الناس»[2].

IV-2- السلطة الخطابية:

لئن كان الحجّاج قد اشتهر بالدهاء والقسوة وسفك الدماء، فقد شهد له بالفصاحة والبلاغة، شأنه في ذلك شأن الولاة والخلفاء الأمويّين، ولكنه كان يجيد لغة السيف، لغة التهديد والوعيد أكثر من غيره. قال الجاحظ: «زعم أصحابنا البصريون عن أبي عمر بن العلاء أنه قال: لم أرَ قرويين أفصح من الحسن والحاج»[3]. وعن مالك بن دينار أنه قال: «ربّما سمعت الحجّاج يخطب، ويذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، وأنه صادق لبيانه وحسن تخلّصه بالحجج»[4].

---

1)- في النقد والأدب مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي الأموي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ط5، 1986، ج329/2.

2)- الخطابة العربية وفن الإلقاء، الدكتور أشرف موسى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978، ص: 79.

3)- المرجع نفسه، ص: 56.

4)- البيان والتبيين، ج228/1.

ويروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان قال يوما لخالد بن سلمة المخزومي: «من أخطب الناس؟ قال: أنا، قال: ثم منْ؟ قال: سيّد جذام، يعني «روح بن زنباع». قال: ثم من؟ قال: أخفيش ثقيف» يعني الحجّاج. قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين. قال: ويحك، جعلتني رابع أربعة، قال: نعم، هو ما سمعت»(1).

ويكفينا من هذه الشهادات أن نتأكد من أن الحجّاج يملك سُلطة خطابية مكنته من استعمال كل وسائل الإقناع الضرورية، فقد جمع له بالفصاحة والبيان، وحسن التخلّص بالحجج، كما جمع له بأنه من أخطب الناس، وعن براعته في العقل؛ قال: صالح بن سليمان بن عبد الرحمن بن الحارث: «ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض، إلا ما كان من عقل الحجّاج بن يوسف وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا»(2).

أما عن اللّحن، فقد جاء على لسان الأصمعي: «أربعة لم يلحنوا في جدّ، ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان و الحجاج بن يوسف، وابن القرية، والحجّاج أفصحهم»(3).

ومن هنا فإن السلطة الخطابية الطبيعية التي يمتلكها الحجّاج، هي التي مكنته من اللجوء إلى شواهد حجاجية جاهزة كالشعر والآي القرآني، وهي لما تحتويه من قيمة علمية وتاريخية أصبحت بمثابة حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى مصادقة الناس عليها، ومن مدى تواترها بينهم كما

1)- المرجع نفسه، ج204/1.

2)- المرجع نفسه، ج70/1.

3)- الخطابة وفن الإلقاء، ص: 55.

أنف الذكر.

وهكذا، فبعدما يشعر المتكلم بأن كفاءته اللغوية لم تعد قادرة على مواصلة المسار التواصلي، فإن تلك الحجج الجاهزة تكون بمثابة البديل، كما أنها تأتي كوظيفة تدعيمية «إنكم لكأهل قرية كانت آمنة...» ومقابلتها «من تخلف بعد ثلاثة أيام من أخذ عطائه سفكت دمه...» فالملاحظ في هذا التصوير البديع، هو أن عقاب أهل العراق هو نفسه عقاب أهل القرية (الخوف والجوع) على أنه لا يمكننا أبدا أن نطابق بين الخالق والمخلوق.

وبالإضافة إلى أن وظيفة الحجج الجاهزة تدعيمية فإنها تؤدي وظيفة أخرى، هي إعادة التوازن بين المتكلم والمخاطب حينما يعتري العملية التخاطبية نوع من الخفوت في التفاعل، أو حينما يشعر الخطيب بذلك الخفوت، بعدما يكون آخذا في معنى «وكأنه يعترضه شك أو ظن، أن رادا يرد قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدّمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه»(1).

وعلى هذا الاعتبار، تبدو الإجابات عن أسئلة مفترضة (زعمتم أني ساحر) والإقرار (وقد قال تعالى: ﴿ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ والنتيجة (قد أفلحت) بمثابة حجّة. وغيرها من الأسئلة التعجبية (يزعمون أنا من بقايا ثمود! وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾(2) (وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟!)(3) والشرط القائم على الإقرار بوضعياته

1)- الصناعتين، ص: 439.

2)- سورة الحاقة، الآية: 108.

3)- البيان والتبيين، ج1/120.

معنية (من تخلف... سفكت دمه...) هي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام (الذي تتمحور حوله كل المعطيات الحجاجية في الخطاب الإقناعي، والأساس الذي يقيم عليه الحاج استدراجه.

وبعد، فلقد تمكن الحجاج بكل ما يمتلكه من معطيات معرفيه، وقدرات لغوية تحليلية من تقديم العلل والأسباب التي جعلته يجمع أهل العراق ليسمعوا ذلك الدّوي الصارخ، فهو بعد أن يفتخر بنفسه، ينصرف إلى عرض صفات أهل العراق الذين انصرفوا إلى الشقاق والنفاق، معددا معاصيهم التي تستوجب العقاب، مؤكدا عزمه، معلنا لهم أن من يعطي له أمرا كان حظه السفك، ولعل الحجاج يكون قد استشعر عظم التهديد والوعيد الذي يحيطهم به، لذا نراه يوهمهم بالعدل واللين، ليؤكد لهم أنه يبتعد عن الأحقاد الذاتية، ويدعوهم للدفاع عن بني أمية، مؤكدا لهم في الآن ذاته أن له فيهم صرعى كثيرين، فليحذروا أنه يكونوا من صراعه.

ومن هنا، فإن تلك الأساليب التي انتهجها الحجاج كانت قادرة على التأثير والإقناع، لأنها لوّنت خطابه بنوع من الشمولية التي أعطت للمخاطب معارف لازمة به وذلك من خلال الشرح الذي «هو زيادة عن كونه نشاطا معرفيا، ونتاجا للمعرفة وموضوعا للفكر، له قواعده ومنطقه الداخلي، فهو نشاط لا يمكن إبعاده عن النشاط اللغوي: إنه أسلوب عقلاني للحديث عن التجربة»(1)، ومن هنا فهو ذو أهمية كبرى للمحاججة.

---

1)- L'explication dans l'argumentation, Langage Française, M.J. Borel, N°50, Parie, 1981, p: 22.

فإذا كانت أفعال الكلام الجزئية من نداء وأمر ونهي وشرط والتي زخرت بها خطبة الولاية قد مكّنتنا من الكشف عن ذلك الصراع الذي كان قائما بين الراعي والرعية، فإنها قد أدّت إلى مستوى دلالي أكبر هو فعل الكلام ذو الطبيعة الشاملة أو فعل الكلام الجامع (Marco acte de langage)[1].

ويبدو أن ظروف عصر الحجاج السياسية والاجتماعية والدينية كانت مرجعا استقى منه الحجاج أفكاره. ولذلك جاءت معظم خطبه لتمثل وتعكس تلك الظروف، خاصة وأن المجتمع الإسلامي آنذاك كان مقسما إلى كتلتين: أهل السنة وأهل الشيعة. الأمر الذي أدى إلى ذلك الخلاف والصراع الحاد ولعل هذا ما يؤكده قول التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»: «فسفكت الدماء، واستبيح الحريم، وشنّت الغارات، وخرّبت الديار، وكثر الجدال، وكثر القيل والقال، وفشا الكذب والمحال، وأصبح طالب الحق حيرانا...، وصار الناس أحزابا من النحل والأديان،...»[2].

ومن هنا، فإن خطب الحجاج تنقل لنا أخباراً في أحد جوانبها التعبير عن قضية، وموقف معيّن، قضية ذلك الصراع بين أهل العراق وبين حكامهم، وموقف الحجاج من ذلك. الأمر الذي يؤكد أنه هناك تفاعل أكيد بين الخطيب والمخاطب.

وعلى هذا الأساس، تكشف أقوال الحجاج عن صراع ديني سياسي يتمثل في تمرد أهل العراق على الدين والدولة وذلك أنهم لم يأخذوا الدين بالجد، ولا ذاذوا عن الدولة الأموية.

---

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص 122.

2)- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج2/77-78.

يتجلى واضحا أن خطب الحجاج تعد بمثابة البديل السيميائي الذي يظهر من خلال استراتيجية ذلك التحاور الذي أقامه الحجاج على التشكيل التعارضي بين (الأنا) المفتخرة، المهددة، و(أنت) المتمرّدة؛ الأمر الذي يكشف بدوره عن الصرع بين الراعي والرعية، بين قوة حاكمة، وقوة محكومة، بين قوة لا ترحم، وقوة لا تطيع إلا تحت ضغط الإرهاب.

ولعل شعار «الإرهاب» هو الذي ألجأ الحجاج إلى اعتماده كوسيلة مساعدة على الإقناع، وكأني بالذين أصغوا إلى خطبة الولاية يردّدون في أنفسهم قول الأديب الفرنسي «مونتين» إن رأسي ينحني أمام سيّد خطير، أما عقلي فلا ينحني[1].

IV-3- سعة الاطلاع:

يبدو واضحا، من خلال خطبة الولاية، أن الحجاج كان على اطلاع واسع على أحوال عصره وبيئته، ولعل هذا الذي يساعده على الإقناع، وذلك أن سعة الاطلاع تمثل وسيلة أخرى للعثور على أدلة إقناعية، وإن كان «عمر الطباع» يرى أن «الحجاج لم يكن يرمي في خطبته إلى الإقناع، إنما كان يرمي إلى الإخضاع والإذلال وتنفيذ المشيئة بوساطة الإرهاب، كان يرمي إلى تأدية الرسالة التي انتدب لها، ولا يهمه نوع الوسيلة الموصلة إلى الهدف، وكأن شعاره «الغاية تبرّر الوسيلة» بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونؤكد أنه كان يفضل إرهاب الناس على استمالتهم وكرههم له على محبّتهم إيّاه»[2].

وما يؤكد قول عمر الطباع، على أن الحجاج لم يكن يكترث بحب الناس له، هو خطبة الحجّاج نفسه في أهل الكوفة وأهل الشام التي مطلعها:

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص 279.

2)- المرجع نفسه، ص: 279-280.

«يا أهل الكوفة، إن الفتن وتلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف. أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم...»[1].

ولكننا إذا كنا نتفق مع الدكتور عمر الطباع في عدم اكتراث الحجاج ببغض أهل الكوفة ولا بمحبتهم له، فإننا نخالفه الرأي في كون الحجاج لم يكن يرمي إلى الإقناع في خطبة الولاية، ودليلنا على ذلك، أن هذه الخطبة تحتوي على كل مقومات الخطاب الإقناعي كل بمقدار.

*** البراهين الخطابية:**

أ- براهين جاهزة:

- استشهاد الحجاج بآية من القرآن الكريم (الآية 111 من سورة النحل)، وكما هو معلوم عن حياة الحجاج أنه معلم قرآن وابن معلم للقرآن الكريم.

- استشهاده بأبيات شعرية في بداية الخطبة وفي وسطها، أي كلما استدعى منه الظرف التدليل على أقواله.

ب- براهين غير جاهزة:

- التقسيم والمقابلة والترادف بين المعاني لادعاء الاستقصاء والإحاطة ومن الترادف قوله: لأحمل الشرّ محمله، وأخذوه بنعله، وأجزيه بمثله؛ ومعناه أني أقابل الشرّ بالشرّ.

وقوله: لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت؛ والمقصود بذلك أنه يوفي بكل ما يعد به.

---

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، ص: 134.

د– أما الأسلوب فإنه يقوم على:

– غلبة الموازنات الصوتية–الإيقاعية؛ فقر متناظرة التركيب، ومتجانسة القافية (بحمله، نعله، مثله)، (أبصارا، أعناقا)، (طامحة، متطاولة)، (قطافها، صاحبها)، بالإضافة إلى ذلك التجانس في الأبيات الشعرية (زيم، حطم، غنم، وضم)، عصلبي، دوي، أعرابي)، (شدّوا، جدّوا)، (عردّ، أشدّ، بدّ)، (العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق) هذا التجنيس والسجع الذي يمنح الخطاب جرسا موسيقيا.

– ثم يميل إلى الاسترسال مع الآية الكريمة حتى يجنّب الخطبة التكلّف الذي يسيء إلى الوظيفة التواصلية الإقناعية.

– الميل إلى التصوير المرعب، «وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحيّ تترقرق».

– ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين؛ ومعناه: لست كالإبل التي يضرب لها على قرب خاوية حتى تسرع في السير، ولست ضعيفا كالتين.

– نثر كنانته، عجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلها مكسرا؛ والمقصود أن الأمير لم يخترني واليا عليكم لنسبي ولمالي ولا بمحض الصدفة، ولكن لأني أهل لتلك المهمة التي وكلت إليّ.

– أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي؛ ومعناه أنهم تمادوا في الكفر.

– لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنّكم عصب السلمة، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل.

- ثم يختم خطبته بالتهديد والوعيد كما بدأها، مراعيا في الخطبة كلّها المقام والذوق العربي الميال إلى الإيجاز في مثل تلك المواقف.

هـ- السياق:

إن الكشف عن السياق لا يتم إلا فيما ينتجه التفاعل بين المتكلم والمستمع، ولذلك فإن الخطيب يقيم مخاطبته على ما يفترضه هو من تبادل وتدخلات وردود أفعال المخاطب، وهي نفسها التي تسمع للمتلقي بأن يفرض هو بدوره ويبني المعنى على تلك الافتراضات. ومن هنا يسمح الاشتغال الواسع على الأساليب بتشكيل قابلية التلقي؛ كما يسمح بتكوين شروط التأثير والإقناع.

ويظل الحجاج يفتخر بذكائه وفطنته وشجاعته وقوته، وبإشهار سيفه في معظم خطبه، دونما ملل ولأجل ذلك فإن أقواله تكشف عن صراع حادّ، وتكاد خطبة الولاية تكون بمجملها مجموعة من معاني الرعب مفرغة في صور مخضبة بالدّماء، ومعبّرا عنها بألفاظ وتعابير مختارة من معجم السفاحين ولهجاتهم. ولذلك فإننا لا نستشف من تقريعه سوى النقمة الحاقدة، والكره المتأصل في أعماق نفس نيرونية مضطربة لا يعيد إليها الهدوء سوى مشهد الدماء والأشلاء[1].

وانطلاقا من هذا الرأي، فما أشبه الحجاج بالطبيب الذي يعالج كل الأدواء، مهما تنوعت واختلفت أعراضها بدواء واحد، هو دواء الإرهاب، ذلك الإرهاب الذي يقوم عند الحجاج مقام الأدلة الدينية والعقلية والعلمية والتاريخية والقرائن[2].

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 279.

2)- المرجع نفسه، ص 280.

ومن هنا فإنه إذا ما تمّ اعتبار الخطابة فن التأثير والوصول العملي إلى الغرض المقصود، فالحجاج من أبرز خطباء الطبقة الأولى؛ وذلك أن خطبه تؤثر في القلوب حتى تميتها وفي الإرادات حتى تشلّها، وفي النفوس حتى تزعزعها، وفي العزائم حتى تهدّمها، وتحقق له في الوقت ذاته من الوجهة العملية الغاية التي يرمي إليها، إذ تنحني أمامه الرؤوس، وإن تمرّدت عليه الضمائر[1].

ولعل الشيء الذي يوحي «بالإرهاب» في خطب الحجاج هو لجوءه إلى المعاني التي ترادف الموت والقتل والتنكيل، وكذا إلى الصور المرعبة المخضبة بالدماء، والعارضة للموت بأشكال وألوان مبتكرة تقشعرّ لها الأبدان، وإلى الألفاظ التي تشير إلى الفتك والبطش والهلاك، يصحب كل ذلك نغما موسيقيا، يشبه تارة الموسيقى الحربية العنيفة النبرات، وطورا موسيقى المناحات التي ترافق الميت إلى مثواه الأخير.

ومما يلاحظ كذلك في خطبة الولاية، أن الحجاج لا يقيم وزنا لا للحدود الإنسانية ولا للعلاقات الاجتماعية، فأهل العراق عنده سواء، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم،...، مما يدل على نقمته الحاقدة، وعلى تلك العصبية التي عبّر عنها بإكثاره من التأكيد، (إني والله، أما والله، وبأنّ، وقد) وغيرها من الأدوات التي تؤكد تصميمه العنيد الذي لا رجعة فيه، بالإضافة إلى سمعته الاجتماعية التي ساعدته على بث الرعب في النفوس والوصول الفوري إلى تحقيق الغايات.

وبعد، فلقد سبك الحجاج خطبه المنتخبة بأسلوب بدوي يعتمد على العبارات المقتطعة الموجزة، والصور والتشابيه الحسية، يفرغها مسجوعة

---

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 280.

أحيانا، وتارة مرسلة وهي في كلتا الحالتين تتسم بميسم جزالة التراكيب، وشدة الأسر، واختيار الألفاظ المدوية النازلة في منازلها.

ويضاف إلى كل ما سبق ذكره، أن الحجاج استغرق كثيرا في البلاغة، فلقد جاءت تعابير خطبة الولاية متفقة ومقتضى حال نفسيته ونفسية أهل العراق، والحالة السياسية التي كانت سائدة آنذاك، ومطابقة مقتضى الحال - كما هو معلوم- لا تقتصر على التعابير والمعاني والصّور. وإنما تتجاوزها إلى موسيقى عسكرية الجرس، كئيبة الوقع في النفوس، وكأنها جاءت تدعم وسائل الخطيب في الإجهاز على الأعصاب؛ الأمر الذي يدل على أن السياسة الأموية كانت ترتاح إلى هذا الضرب من الأدب البدوي الجاهلي البعيد عن روح مكة والمدينة[1].

V- البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحجاج (الدلالة والإيقاع):

إن طبيعة الكذب والزيادات الشهية في الخطابة التي هي فن الإقناع، تمثل كل ما زاد عن متطلبات التوصيل دون أن توقع في الغموض والبعد عن التأثير والإقناع، ويمكن إرجاع جانب من ذلك إلى الصورة البيانية، ابتداء من النعوت والأوصاف إلى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية،... كما يرجع إلى جانب منها إلى المقابلة بين المعاني (الطباق) واختيار الألفاظ المعبّرة[2].

وعلى هذا الأساس، أدّى تراكم الصفات والأقوال التابعة المتكررة للضمائر إلى تجسيد المفاهيم في شكل وحدات مكرّرة تحققت على مستوى الصيغ وتوازن العبارات لتنتهي إلى نوع من التجانس الصوتي الذي سمّاه

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 281-282.

2)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 100.

شوقي ضيف «بالتوقيع» الذي نلمسه «من معادلة ألفاظه معادلة لا تنتهي إلى السجع، ولكنها تنتهي إلى التوازن الصوتي الدقيق»[1].

ومن هنا فإن الحجاج كسابقيه لم يسلم من موجة «التوازن الصوتي» الذي يعدّ من المقولات البلاغية الرسمية التي تساهم بشكل كبير في التأثير والإقناع، وعليه يسهل علينا تقييم خطبة الولاية إلى جمل قصيرة، هي أشبه ما تكون بالأساليب الشعرية الحديثة:

- إني لأحمل الشرّ بحمله.
- ——— وأخذوه بنعله.
- ——— وأجزيه بمثله.
- وإني لأرى رؤوسا طامحة.
- ——— أعناقا متطاولة.
- إني والله يا أهل العراق.
- ——— ومعدن الشقاق والنفاق.
- ——— ومساوئ الأخلاق.
- ما يقعقع لي بالشنان.
- ولا يغمز جانبي كتغماز التين.

وإني والله لا أعد إلا وفيت.

- ——— لا أهمّ إلا أمضيت.
- ——— ولا أخلق إلا فرّيت

1)- الفن ومذاهبه في النشر العربي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت، ص: 169.

وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلّف إلا سفكت دمه.

- ——— وأنهبت ماله.

- ——— وهدّمت منزله.

وبناء على موجة «التوازن الصوتي» يمكننا دراسة البنى التي تساهم في الإقناع الخطابي في خطبة الولاية.

V-1- نبيه التكرير:

لقد سبق الذكر بأن التكرير، ظاهرة لغوية مقامية تقصد إلى التأكيد والتقرير، مما يساعد على الإفهام والإفصاح والكشف؛ أي على توكيد الكلام والتشييد من أمره، وتقرير معناه. كما إن له دوره في السبك المعجمي كأن يحيل إلى لفظ مكرر أو لفظ آخر سابق مرادف، أو مرادف قريب.

وترتبط بعض حالات التكرير بالتغيير في سلوك المخاطب، فإذا كان الخطاب من الأمر إلى المأمور، كان ذلك التكرير حثّا على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفور ومن أجل ذلك يقرن أبو الهلال العسكري التكرير بتأكيد الحجّة، كما يجعل منه مدّا للقول، ومن ثم يربط بين مدّ القول وبلوغه الشفاء والإقناع.

ومن منظور «باربرا جونسون» يرتبط الخطاب العربي في الإقناع على العرض اللغوي للدعاوي الحجاجيّة، وصياغتها صياغة موازية، وإلباسها إيقاعات نغمية بنائية متكررة، نتيجة المركزية الثقافية للغة العربية في المجتمع الإسلامي، حيث تسمى «بابرا» هذه الإستراتيجية البلاغية بإستراتيجية الإقناع بالتكرير (Repeating) وبالصياغة الموازية (rephrasing) وبإلباس الدعوى وإعادة إلباسها إيقاعات نغمية متغيرة من الكلمات، تسميها

بإستراتيجية العرض (Présentation) أي استحضار الشيء أمام الإنسان حتى يتعلق به شعوره.

ومثالنا على ذلك قول الحجاج: وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي تترقرق، وإنكم (لكأهل قرية...).

V-1-1- أنواع التكرير في خطبة الولاية:

أ - تكرير الشكل:

لقد سبق الذكر أن وظيفة التكرير هي الوصف، أي أنها وظيفة سبكية خالصة يقتضيها التركيب، لا بلاغية يقتضيها المقام؛ ولكن هذا لا يمنعنا من أن نميز ثلاثة أنواع من التكرير على مستوى الشكل والتي نعتقد أن لها ضلعا أوفر في تحقيق الإقناع، ومن هذه الأنواع:

أ-1- تكرير المكرر بذاته:

- إني لأحمل، وإني لأرى، وإني لصاحبها، وكأني أنظر، إني والله يا أهل العراق، وإني والله لا أعد، وإني أقسم بالله.

- أما والله إني لأرى، أما والله لألحونّكم، أما والله لتستقيمن.

ومن خلال هذا النوع من التكرير يبدو أن الحجاج يريد إثبات تأكيده على العزم، ودحض مزاعم أهل العراق، وذلك أن تكرير اللفظ بذاته يعدّ وسيلة لغوية للوصول إلى الهزء بالخصم وفضح جهله، وإن كان أهل العراق على ثقة بأن الحجاج منفذ لعزمه. وتكشف سياسة السياق اللغوي مع بنية تكرير اللّفظ بذاته عن كفاءة اتصاليّة عالية؛ لأن تكرير اللفظ بذاته يرمي إلى تهيج الخصم. كما يهدف إلى جعل محتوى الجدال مفهوما أكثر، إنه يزيد من جذب انتباه المستقبل وامتلاكه.

أ-2- التكرير في هيأة عنصرين من مادة واحدة:

وهذا النوع يكاد يستحوذ على معظم خطبة الولاية ومن ذلك قول الحجاج:

- لا يغمز، كتغماز.
- سننتم، سنن.
- لألحونّكم، لحو.
- لأقرعنكم، قرع.
- لأعصبنكم، عصب.
- لأضربنكم، ضرب.
- إعطائكم، أعطياتكم.
- قالا، وقيل وما تقول.

ويعد هذا النوع من التكرر آلية لغوية مهمة من آليات دفع دعوى الخصم وإقناعه بالإقلاع عنها، وهو في خطبة الولاية يؤكد عزم الحجاج في القيام بالفعل. (وتعكس هذه الهيئة من التكرير المبنية على (فعل مبني للمجهول + اسم مجرور)، (فعل+ مفعول مطلق) -تعكس- في سياقها الحجاجي عن حالة من الحالات تأثير في سلوك الخصم عن منازعة محتدمة باستخدام علامات لغوية تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس.

أ-3- التكرير بإعادة الصياغة:

وهو تكرير بتغيير التركيب هدفه تشييد المعنى ووجهة النظر، ومن ذلك ما جاء في خطبة الولاية:

- «فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة يأتيها رزقها رغدا...».

- ومقابلتها: «وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم».
- أهل القرية كفروا بأنعم الله.
- أهل العراق مأمورون بالحرب ضد العدو دفاعا عن بني أمية.
- عاقب الله أهل القرية بالخوف والجوع جزاء كفرهم.
- أهل العراق إن تخلفوا عن الحرب عوقبوا بالمثل، الخوف والجوع.

ب- تكرير المضمون:

ويبنى هذا النوع على مكوّنات لغوية مترادفة أو مشتركة في جزء من المعنى. وهو أنواع أربعة:

ب-1- تكرير مفردتين أو أكثر في جملة من منطوق واحد:

ومن ذلك قول الحجّاج:

- وإني لأحمل الشرّ بحمله.
- ——— وأحذوه بنعله.
- ——— وأجزيه بمثله

والمعنى المراد من هذا التكرير هو أن الحجاج، يقابل الشر بالمثل.

ب-2- تكرير مفردتين في ثنائية:

- معدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق.
- فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا.

ويميل هذا النوع من التكرير إلى جعل الطرف الثاني من الثنائية اللفظية أعم وأقوى من الطرف الأول فيها (أمرّها، أصلبها)، (الشقاق والنفاق، مساوئ الأخلاق).

ب–3– تكرير مفردتين في منطوقين متواليين:

– لا أعد إلا وفّيت.

– لا أهمّ إلا أمضيت.

– فكلمتا وفيت وأمضيت توحيان بنفس المعنى الذي هو التنفيذ والقيام بالفعل.

ب–4– تكرير المضمون بين جملتين متواليتين أو أكثر:

– أحمل الشر بحمله.

– وأحذوه بنعله.

– وأجزيه بمثله.

وقوله:

– فررت عن ذكاء.

– فتشت عن تجربة.

– وجريت إلى الغاية القصوى.

وقوله:

– أوضعتم في الفتن.

– اضطجعتم في مراقد الضلال.

– وسننتم سنن الغيّ.

وقوله:

– لا أعد إلاّ وفّيت.

– لا أهم إلا أمضيت.

– لا أخلق إلا فرّيت.

وبعد، فإن الجمع بين مفردتين، يعد آلية لشغل فضاء ذلك معنى كاملا؛ فحيثما تقصر المفردة الواحدة في ذلك السياق الحجاجي عن أدائها، تنــوب عنها الأخرى.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، هو أن تكرير المضمون يبدوا آلية أساسية من آليات تشديد المعنى وإقناع المستقبل على وجه خاص، كما تؤكد ثنائيــات تكرير المضمون على فكرة المكاثرة أو المغالبة التي يتقضيها الاحتجاج، كمــا ترتبط هذه الثنائيات باستراتيجية التوازن الغالبة على خطاب الحجــاج ممــا يجعلها من النماذج المتميزة من النصوص العربية الحجاجية على الجمــع بــين تكرير المضمون من ذلك النوع وبين التوازن.

فتكرير المضمون على مستوى الجمل والعبارات: (لأحمل الــشر بحملــه وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله)، يمثل أسلوبا يحتفي احتفاء خاصا بإعادة صــياغة المعنى، وإيقاعية التوازن اللذين يعكسان تفكيرا مطولا تغلب فيه السلاسة والهدوء على الانتقالات المفاجئة أو السريعة، وهذا الذين ذهب إليه «والتر أونج» من أن التفكير المطول ذو الأساس الشفاهي، يميل إلى أن يكون إيقاعيا بشكل ملحوظ، لأن الإيقاع حتى من الناحية الفيزيولوجية يساعد على التذكر.

ومهما يكن من أمر، فإن تأمل حالات تكرير المضمون يدلنا علــى أن الجملة الثانية تميل إلى أن تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجملة الأولى الــتي تشترك معها في الدلالة العامة، كما أن تكرير المضمون بإمكانه أن يساعد في دفع المعنى إلى درجة أقوى مما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغويــة في إقنــاع المخاطب واستمالته.

وربما بدا تكرير المضمون على مستوى جملتين أو أكثر في هيئة إيــضاح أو شرح الثانية للأولى، فعبارة (أحذوه بنعله) في توضيح للجملة (إني لأحمــل

الشر بحمله)، وجملة (أجزيه بمثله) توضيح للجملتين الثانية والأولى. ولهذا يعدّ هذا النوع من التكرير أوسع من غيره مدى في خطاب الحجّاج، ولعلّه من أجل ذلك أبلغ أثرا في إقناع المخاطب بوجهة نظر المتكلم مرّة بعد أخرى.

V-2- بنية الازدواج:

وضع أرسطو الصناعة الصوتية في الخطابة في مترلة وسط بين النظم المطر الوزن، والنثر المرسل، وهو لذلك يرى أن شكل المقال ينبغي أن يكون غير ذي وزن ولا عدد؛ لأن ذلك النحو غير مقنع، ولذلك يجب ؟أن يكون النثر الخطابي إيقاعيا غير مطّرد الوزن، ولهذا يفضل أرسطو العبارة التي يدرك الطرف الآخر نهايتها[1].

ويعد السجع في البلاغة العربية من أهم الظواهر الأسلوبية في النثر؛ لأنه يمنح الكلام مكانة أقرب إلى الرّجز والقصيد، وإن كان دونهما، على أن يكون السجع في بعض الكلام لا في جميعه: فالسجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها، والسجع مستغنى عنه»[2] وهذا الرأي إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على المترلة الوسط التي يحتلها الكلام البليغ الذي ليس شعرا.

وعلى الرغم من رفض البلاغيين القدامى لاطراد السجع والجناس وغيرهما من المحسنات اللفظية، لما ينمّان عنه من تكلف يعوق الوظيفة الإبلاغية للخطاب، ولأن ظهور التكلف مناف لغرض الإقناع الذي تتغياه الخطابة، فإنه «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 112.

2)- البرهان في وجود البيان، ص: 165.

تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج»[1].

ومن هنا، فإن الازدواج والتوازن، والترصيع وغيرهما من المصطلحات الصوتية، مراتب حسب توافق طرفي الفاصلتين ولقد قال بعضهم «أحسن السجع ما تساوت قرائنه، ثم طالت قرينته الثانية أو الثالثة»[2]، وهناك من يجعل التوازن في مرتبتين؛ الأولى أن يراعي الوزن في جميع الكلمات أو في أكثرها، وهو أحسنها وأعلاها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها، والمرتبة الثانية، ألاّ يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين[3].

وعلى هذا الاعتبار، يمكننا تصنيف التوازن إلى أنواع ثمانية:

1)- التوازن بين الأجزاء بالاتفاق التام في زنة الوحدات وعددها وهيأة ترتيبها وفي الفاصلة:

- أحمل النثر **بحمله**، وأحذوه **بنعله**.
- يا أهل **العراق**، ومعدن **الشقاق والنفاق**.
- **أوضعتم** في الفتن **واضجعتم** في مراقد الضلال.
- لا أعد إلا **وفّيت**، ولا أهمّ إلا **أمضيت**، ولا أخلق إلا **فرّيت**.

---

1)- الصناعتين، أبو الهلال العسكري ترجمة: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، د.ط، 1981، ص: 283.

2)- شرح الفوائد الغياثية، الملا عصام الدين، دار الطباعة، العامرة، 1321هـ، ص: 282، نقلا عن بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 114.

3)- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت 1968، ص: 143-144.

- **ألحونكم، أعصبنكم، أقرعنّكم، أضربنّكم.**

2)- التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في زنة وحداتها اتفاقا ناقصا فضلا عن الاتفاق في الترتيب والفاصلة:

- **بحمله، بنعله، بمثله.**
- **العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق.**
- **أوضعتم، اضطجعتم، سننتم.**

3)- التوازن بين الأجزاء بالاتفاق في الترتيب والفاصلة دون زنة الوحدات:

- **سفكت دمه، أنهبت ماله، هدّمت منزله.**

4)- التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقا ناقصا مع الاتفاق في الفاصلة دون الترتيب:

- أبصارا **طامحة** وأعناقا **متطاولة**.
- حان **قطافها**، وإني **لصاحبها**.
- **العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق.**
- **الشنان، التين.**
- **أحذوه، أجزيه.**
- **فرّرت، فتشت، حريت.**
- **لتستقيمن، لأدعنّ.**
- **سفكت، أنهبت، هدّمت.**

5)- التوازن بالاتفاق في الفاصلة دون سائر الملامح الأخرى:

- نثر **كنانته**، بين **يديه**.
- عجم **عيدانها** فوجد **أمرها** عودا و**أصلبها** مكسرا.
- فرما**كم** بي، لأنـــ**كم**.
- أوضعـــ**ـتم**، سننـــ**ـتم**.
- قرع **المروة**، عصب **السلمة**.
- إعطائـــ**كم** أعطياتـــ**كم**.
- أوجهـــ**كم** لمحاربة عدّ**كم**.
- **دمه، ماله، منزله.**

6)- التوازن بالاتفاق في زنة الوحدات اتفاقا تاما وفي الترتيب دون الفاصلة:

- **أبصارا، أعناقا.**
- **نثر، عجم، وجد، رمى.**
- **لحو، قرع، عصب، ضرب.**

7)- التوازن بالاتفاق الناقص في زنة الوحدات والاتفاق في الترتيب دون الفاصلة:

- **يقعقع، يغمز.**
- **الفتن، الضلال، الغي.**
- **أعد، أهمّ، أخلق.**

8)- التوازن بالاتفاق في ترتيب الوحدات فقط:

- **سفكت دمه، أنهيت ماله، هدّمت منزله.**
- **نثر** كنانته، **عجم** عيدانها، **فوجدني أمرها عودا، وأصلبها مكسرا.**

ونخلص في النهاية، إلى أن الجمع بين التوازن والتكرير المضموني يعد المنطقة المركزية التي تتفاعل فيها البنية والدلالة، وتشتغلان معا في النص الحجاجي العربي، وذلك قصدا إلى تثبيت التبرير أو إقناع الخصم والمخاطب بعامة بصدق دعوى الخطيب.

وجدير بالذكر، أن معظم خطب الجاهلية كان طابعها السجع المرصع، خاصة سجع الكهان، وخطب الوعظ والتأمل في الكون والفناء. ومن أجل ذلك كانت خطبهم تتنفس في فضاء ديني تنبئي، وذلك أن الارتباط بين الدين والكهانة وبين الصناعة الصوتية، كان مطلبا ضروريا لتحقيق الوظيفة الإقناعية، ذلك أن توقيع الكلام، وتوازنه يكاد يكون حجة على صدقه، وهذا ملحوظ في الحكم والأمثال التي ينظر أن تكون خالية من السجع والوزن.

ولعل هذا الذي دفع إحسان النص إلى القول بأن: «السجع في الخطب الدينية أكثر شيوعا بوجه عام، منه في الخطب السياسيّة»[1]، لما للأسلوب القرآني من تأثير على النفوس، وكذا قلة حظ الخطيب الدينية من طرافة الأفكار وجدّتها، مقارنة بالخطب السياسية؛ لذلك كان لا بدّ من اللجوء إلى الزخرف اللفظي للتعويض عن الفقر في الناحية الفكرية، لأن السجع يساعد كذلك على التذكر؛ هذه الوظيفة التي كان خطباء السلف على وعي بها[2].

ولقد سئل الفضل بين عيسى الرّقاشي، وهو من أسرة فارسية من القصاص، عن إيثاره للسجع الموزون، فأجاب: «إن كلامي لو كنت لا أمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر،

1)- الخطابة العربية، إحسان النص، ص: 222.

2)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 116.

والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقليد، وقلة التفلت»[1].

ومن هنا يتجلى، أن خطباء السلف كانوا على وعي بالوظيفة الإقناعية للصنعة الصوتية، وإن كان خطباء بني أمية يزاوجون بين الصنعة الصوتية وغيرها من المقومات الأخرى، مما يجعل إيقاعهم قائما على التوازن تتراوح بين الازدواج والسجع مع تفاوت بين الفواصل أحيانا، والتخلي عن قوافي حينا أخرى، كما سبق وأن رأينا في أصناف التوازن.

وبعد تحليلنا لتلك الأصناف، لاحظنا أن الحجاج ينصرف من حين إلى آخر إلى الفكرة موضوع الخطاب ليسترسل معها دون الاهتمام بالموازنة بين الفواصل، ولعل هذا هو المنحى الغالب في معظم منتخباته وكذا في خطب أبي حمزة وزياد بن أبيه وغيرهم من أعلام الخطابة السياسية[2].

وعلى الرغم من اعتناء هؤلاء الخطباء بالإيقاع العام للخطب ظلوا حريصين على تبليغ الرسالة، والتسلسل الطبيعي للمعاني والصور، ولذلك فإن خطبهم تسير في فقرات معنوية ازدواجية أو سجعية يتلو بعضها بعضا، حيث تقدم كل واحدة منها مقدمة يلتقط فيها الخطيب خيط المعنى، ثم يحوكه حياكة جديدة في فواصل جديدة، فتتكون أزواج متوازنة توازنا مقارنا، بالنسبة لعنصر مشترك تعود إليه، على نحو قول الحجاج:

1- «أيا أهل الكوفة أما والله، إني لأحمل الشرّ بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله».

1)- البيان والتبيين، ج1، ص: 287.

2)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص 118.

2- «وإني والله لأرى أبصارا طامحة، وأعناقا متطاولة، ورؤوسا قد أينعت وحنا قطافها، وإني لصاحبها».

فهاتان الفقرتان تشتملان على ممهدّ مشترك هو: «يا أهل الكوفة، أما والله إني». أم الفقرة الثانية، فلها ممهّد داخلي خاص بها:

«لأرى» الذي أصبح مضمرا في القرينة التالية: «رؤوسا».

ويقوم الازدواج في هذه الفقرات على الموازاة بين التراكيب النحوية المتعادلة، مع مرونة تتجلى في تعويض الظاهر بالضمير، وتغيير التركيب داخل الفقرة الواحدة أو الزيادة في عناصره، وذلك شأن الفاصلة: «ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها» التي يجوز شقها إلى فاصلتين: «رؤوسا قد أينعت، وحان قطافها». حيث تتجاوب الأولى ازدواجا مع «لأرى أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة» والثانية مع «وإني لصاحبها» وبعد هاتين الفقرتين يتحرر الخطيب من الموازنات الصوتية لصالح عنصر بنائي من مستوى آخر هو عنصر الصورة[1].

3- «وأكني أنظر إلى الدماء بين العمائم بين العمائم واللحي تترقرق».

ثم ينوع الحجاج قافية أسجاعه من فقرة إلى أخرى كما لا يتردّد في تنويعها حتى داخل الفقرة الواحدة إذا اقتضى الأمر كما في المثال «2». ولا يكتفي الحجاج بالتغيير في الفواصل، بل وحتى في النموذج التركيبي ويندر أن تكون الموازنة أقوى مما سبق؛ أي أن يقع فيها ترصيع وموازاة تامة بين الفواصل: «سفكت دمه، أنهبت ماله، هدّمت مترله» وهذا هو الازدواج المتوازن عند «ليفين» حيث تتقابل المقولات النحوية بين القرائن.

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص 119.

وبناء على ما سبق، يمكن رصد ظواهر التقابل في خطبة الولاية على النحو الآتي:

4- «إني والله يا أهل العراق».
- (———) معدن الشقاق والنفاق.
- (———).(——).مساوئ الأخلاق

هذا التقابل الذي يكشف على أن هناك مؤالفة في القوافي، ومخالفة في البناء النحوي للقرائن، ومع أداة النفي بعده، يغير الخطيب مسار المعنى والتركيب الذي لم يحتفظ منه إلا بالبناء للمجهول في قوله:

5- «ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين».

على أن الملاحظ في هذا القول، أن سناد الرّدف (شنان/تين) قد قلّل من تماثل القافية، وذلك تمهيدا للتخلص منها، والمرور إلى الفقرة الموالية:

6- «ولقد فرّرت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة».

7- ليتلو هذه العبارة «تمهيد» طويل مرسل، متحرّر من جميع الشروط الموازنة الصوتية: «وإن أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها،...». لتأتي الفقرات اللاحقة موزعة بين الازدواج والسجع والاسترسال، الأمر الذي يسّر تضمين الآية القرآنية فإنكم لـ﴿كأهل قرية كانت آمنة،...﴾ ويسّر أيضا حكاية ما أمره به أمير المؤمنين: «وإن أمير المؤمنين، أمرني...».

8- ومن عناصر دعم الإيقاع في هذه الخطبة كون حوالي ثلثها من الرجز، والرجز -كما هو معروف- قريب من السجع، أو هو سجع مطرد الوزن[1].

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص 121.

9- ويضاف إلى كل ما سبق ما لعبه الجناس الناقص في تناغم بعض الفواصل كتكرار صوت (ق) و(ش) و(ن) في قوله: «يا أهل العــراق، ومعـــدن الـــشـــقاق والنفاق، ومساوئ الخلاق، ما يقعقع لي بالـــشـــنان».

V-3- بنية التوازي:

إذا كان التوازي بمفهومه الاصطلاحي عند (هاليداي) بنية تركيبية، أثيرة في خطاب الحجاج العربي؛ ومن ثم فهـــو بنيـــة اســـتراتيجية مهمـــة مـــن استراتيجيات الإقناع بوجهه النظر، فإنه في البلاغة العربية القديمة يعدّ قـــسما من أقسام السجع كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ حيث إنه ينطوي على اتفاق في جميع أوصاف الوحدات إيقاعا، وفي عدد الحروف، وفي الحرف الأخير.

أ- المتوازي في خطبة الولاية:

- حمـــــله، نعـــــله.
- العراق، الشقـــــاق، النفـــــاق.
- فرّرت، فتّشــــت.
- لألحونّكم، لأقرعـــنّكم، لأعصبـــنّكم، لأضربـــنّكم.
- وفــــيت، أمضــــيت، فـــرّيت.
- الزرافـــــات، الجماعـــــات.
- أنهيــــت، هدّمــــت.

وجدير بالذكر، مرّة أخرى أن التوازن مختص بوزن المركبات اللغويـــة، وثقلها، وحجمها، بينما يختص التوازي بتحديد زمن انتهاء الجملة أو بتدعيم ذلك باتفاق الحروف الأخيرة فيما بينها، مما يضفي خصوصية الجمالية علـــى

الجمل المستعملة، خاصة وأن الثقافة البلاغية القديمة تقوم على التشابه، وتسعى إلى تحقيقه في جميع أنواعها وأقسامها تحقيقا كاملا؛ وبطبيعة الحال، فإن النفس تهتز وتضرب لكل جميل.

ويتجلى التوازن بشكل أعمق في الإلقاء، لكونه يساعد على الاحتفاظ بوجوده من خلال تجنيب النص الشفاهي خطر الضياع والنسيان، ولا شك في أن عامل التكرير هو أكثر العوامل الشفاهية تجسيدا للتوازي.

ويعتقد «هوبكنس» أن التوازي ليس مقصورا على الجانب الزخرفي فقط، وإنما يتسع ليلامس الدلالة، وهو لهذا قسم التوازي إلى قسمين: توازي المشابهة، وتوازي المخالفة، لينتهي إلى أن التوازي الموسوم هو الذي يتعلق ببنية البيت بالإيقاع (تكرار متوالية معينة من المقاطع) وبالوزن (تكرار متوالية إيقاعية معينة بالجناس والسجع وبالقافية)، ليصل إلى أن هذا النوع من التوازي الشديد الوسم في البنية يكون إما ناتجا عن تحسين وإما ناتجا عن تأكيد، حيث تنتمي الاستعارة والتشبيه والتمثيل... إلى نوع التوازي الموسوم حيث يكمن الآثر في تشابه الأشياء، بينما ينتمي الطباق والتباين إلى التوازي غير الموسوم الذي نلتمس فيه الأثر من المغايرة[1].

ومن هنا فإن الدور الذي يلعبه التوازي في التراث يكشف عن إمكانات متجددة باستمرار وغير متوقعة في الخصائص البنيوية للتوازي.

ب- البنية الصوتية:

إن أي عملية إلقائية أدائية لا تتحقق إلا على مستويين؛ المستوى الصوتي للغة، والمستوى الدلالي؛ فالمستوى الصوتي يشكل البنية الأساسية التي تحدد

1)- قضايا شعرية، رومان جاكوبسون، ص: 47-48.

للمستوى الدلالي طريقه إلى الأذن، ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقع المستويان على نفس القدر من التعادل والمساواة، لأن ذلك سيحقق للغة توازيها الذي تتصف به اللغة النثرية (الخطابة)، بينما تصبح اللغة الشعرية أميل إلى الصوت بكل مكوناته اللسانية وغير اللسانية.

ومن هنا فإنه إذا كان المستوى الصوتي يميز بين اللغة النثرية وبين اللغة الشعرية؛ فإن المستوى الدلالي لا يمكنه ذلك، لأنه كثيرا ما تتميز به اللغة التواصلية الهادفة إلى إيصال الفكرة.

وهكذا فإن التكرار على مستوى التخاطب أو الحوار يخلق جوا تناغميا بين «الأنا» و«الآخر»، وليس ذلك فحسب، وإنما يتحقق التناغم كذلك من تبادل الوحدات المعجمية مع صبغها بأصوات التخاطب المتمثلة في «كم» التي تتكرر بشكل كبير في معظم خطبة الولاية، وكذلك ضمير «تم» وذلك في قوله: (رماكم، لأنكم، أوضعتم، اضطجعتم، سننتم، ألحونكم، أقرعنكم، أعصبنكم، أضربنكم، فإنكم، أنتم، منكم، اعطائكم، أوجهكم، عدوكم).

إن هذا الاستبدال الموقعي يتسوّغ داخل توازي الحوار المتمثل في التهديد والوعيد، فالحجاج يعطي الجواب ويوضح ثم يهدد ويتوعد «إن أمير المؤمنين، نثر كنانته، فعجم عيدانها،...، فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن،... السنن، الغي».

* توازي المواقع: يحقق استبدال المواقع تجانسا وانسجاما وجرسا موسيقيا؛ وإلى جانب هذه الدلالة البنيوية الجمالية، ينطوي استبدال المواقع كذلك على دلالة معنوية ومن البدائل التي تحمل استعدادات للتماثل في خطبة الولاية ما يلي:

- «يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق».

فمواقع التماثل هنا متركزة -كما هو ملاحظ- على الفونيمات التي تحمل استعدادات نحو التبدل وفق هذه الوحدات المعجمية، وذلك لإحداث التوازي المبني على الاختلاف الفونيمي، وهو ما تجلى في كل من (العراق، الشقاق، النفاق)، فمواقع «الراء والقاف والفاء» هي متماثلة كونها مجهورة، وكذلك صوت العين (ع) في كلمة العراق فهو صوت مجهور، وحركة الصوت المجهور، تقرع الأذن بشدّة، وتوقظ الأعصاب بصخبها، وبذلك يكون له بعد الإثارة الجهورية»[1].

ولقد ذكرنا، أن الأصوات المهموسة تتصف بالرهافة والهمس، وهما صفتان تبعثان على التأمل والتقصي العميق لجوانية اللغة، وفي حالة طغيان أصوات الهمس يزداد تأثير الصوت على حاسة البصر، بينما تصلح الأصوات المجهورة لرفع الصوت، ومن هنا يتم التعامل مع الأصوات المهموسة عن طريق القراءة، وعلى هذا الأساس، يبدوا أن توازي النص قائم على الأصوات المهموسة، أما توازي الخطاب فهو قائم على الأصوات المجهورة.

ولقد تميز الحجاج بجهارة الصوت، بناء على ما جاء في كتاب العقد الفريد: «يقال: إن الحجاج كان إذا استغرب ضحكا والى بين الاستغفار، وكان إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه، ثم تكلّم رويدا فلا يكاد يسمع، ثم يتزيد في الكلام، فيخرج يده من مطرفه، ثم يزجر الزجرة، فيقرع بها أقصى من في المسجد»[2].

---

1)- الألسنية العربية، ريمون طحان، ص: 51.

2)- العقد الفريد، ج5، ص: 31.

فالذي نستشفه من هذا القول، هو أن الحجاج في خطبه، كان يبدأ بصوت خافت يتدرج منه إلى رفع الصوت؛ كما نلاحظ أن معظم خطبه كانت تلقى في المسجد، وربما يرجع سبب ذلك إلى أن الخطابة السياسية كانت في أول أمرها أميل إلى الخطابة الدينية، وذلك لطبيعة الدعوة الإسلامية.

* توازي الصوت: ينشأ توازي الصوت بناءا على تكراره المتدفق في سياق الخطاب وهو التكرار الذي يضفي على الصوت رمزية معنية تشير إلى دلالة خاصة، فالنص مهما كان ليس -في الواقع- سوى ركاما وتكرار لنواة معنوية موجودة من قبل؛ وبفضل ذلك التراكم يصبح لرمزية الصوت مكانا تتجسد فيه المعاني والدلالات، هذا التراكم الذي يراه محمد مفتاح أحد مؤشرات التأويل للرمزية الصوتية إلى جانب السياق الملائم[1] ومن ذلك قول الحجاج:

- وإني لأرى الدماء بين العمائم واللحي تترقرق: فتماثل (القاف والراء) في كلمة (تترقرق) يحمل دلالتين؛ الأولى صوت الدماء التي تتدفق كالسيول، والثانية أن تماثل (القاف والراء) يوحي بصوت سيف الحجاج، ذلك المهند البتار الذي لا يتوانى صاحبه لحظة إذا ما عصي له شخص ما أمرا.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن تكرار صوت (القاف والراء والعين) في كلمتين (الشقاق والعراق) يوحي بصوت السيوف المتضاربة، والأمر نفسه في كلمتي (لأقرعنّكم قرع)، وكذلك (أعصبنّكم عصب، وأضربنّكم ضرب) التي توحي بالمنازعة والخصام، والعقاب.

وانطلاقا من تكرار الصوت، ومن عامل التماثل تنشأ لحظة تواز لسانية، وظيفتها أنها تزيد من درجة انتباه المستقبل إلى تتبع الخطاب.

---

1)- تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص: 36.

* النبـــر: يرتبط النبر بالدلالة الإضافية التي يتم اكتسابها مـــن خـــلال التشديد، إما للدلالة على التأكيد أو للدلالة على الانفعال ومن بين وظـــائف النبر الوظيفة الإدغامية، وذلك أن النبرة تساهم في إظهار القيمـــة التعبيريـــة لبعض أجزاء القول التي تلحق بها، ويرتبط النبر -غالبا- بالمدة، لأنه من خلالها يتمتع الكلام بإيقاع حافل بالامتدادات الصوتية كقول الحجاج: (لألحونكم، لأعصبنّكم، لأضربنكم، لأقرعنّكم) التي تدل على تأكيد العزم؛ كما تـــدل على انفعال الحجاج من جحود أهل العراق.

ولقد سجّلنا بأن إيقاع الكلام يستحق إدراك المقاطع المسجلة موضوعيا من خلال الشدة، أو المدة أو الارتفاع. ومن هنا، فإن النـــبر مـــا هـــو إلا استخدام إشارة لتمثيل قوة أكبر، ولذلك يعود توازيه إلى سيطرة أحد أنواعه الثلاثة (النبر الضعيف، المتوسط، القوي)، مما يشكّل سياقات تنغيمية معيّنـــة كقوله: (لتستقيمنّ، أو لأدعنّ).

* التنغيم: لقد أنف الذكر أن التنغيم هو الإطار الصوتي الذي تتحقق به الجملة في السياق، والجمل العربية تقع في صيغ وموازين تنغيمية هي هياكـــل من الأنساق النغمية ذات أشكال محدّدة، فما تأتي به الجملة الإستفهاميةوجملة العرض ليس هو نفسه ما تأتي به جملة الإثبات، ولا الجملة المؤكدة، وذلك أن لكل جملة منهن صيغة تنغيمية خاصة.

وللتنغيم وظيفة دلالية، فهو كخاصية أدائية يمنح الكلام معناه الحقيقي، لأنه يحفظ للكلام الملقى شحنته وكثافته، ولكنه لا يخضع للتقطيع، لذلك فإن توازيه صعب تحديده، ولكنّ شعريته تسمح للكـــلام المـــوزون ذي الـــنغم الموسيقي بأن يثير فينا انتباها عجيبا، وذلك لما فيه من توقع لمقـــاطع خاصـــة تنسجم مع ما نسمع.

ولقد سمح لنا تحليل خطبة الولاية، بأن نكتشف أن معظم الجمل المستعملة في متن هذه الخطبة، هي إما جمل مثبتة أو جمل مؤكدة؛ وإن كنا نعثر على استفهام واحد، ذلك الوارد بقوله: «...وفيم أنتم وذاك؟»؛ والذي نعتقد أنه استفهام استنكاري؛ لأن الحجاج لا يريد جوابا، وإنما هو مستنكر لاهتمام أهل العراق بهيّن الأمور، وإهمال عظيمها.

ففي قول الحجاج: «يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التّين» نلمس إيقاعا أو تنغيما إيقاعيا؛ أما قوله: «لا أعد إلاّ وفّيت، ولا أهم إلاّ أمضيت، ولا أخلق إلاّ فرّيت» فإنه يتضمن جملا مؤكدة، ولكن فيها من التنغيم، والإيقاع الموسيقي كل ما يجلب انتباه أهل العراق، ويذكّرهم مرّة أخرى، بما ينتظرهم إن هم تخلفوا عن الحرب. ولعل الذي زاد من شحنة المعنة وكثفه لدى المتلقي هو استعمال الحجاج لصيغة (لا، وإلا) وكذلك لكلمة (وعد) التي تستوجب الوفاء، (أهمُّ) التي تتوجب التنفيذ، و(أخلق) التي تستدعي القدرة.

* الوقف: واضح جدا أن الحجاج كان يدرك قوانين لغته، ودليلنا على ذلك، هو انتقاله من المنظوم إلى المنثور، ومن المنثور إلى المنظوم، في ترتيب منطقي، ولا نعتقد أبدا أنه لم يقف في كلامه، ولم يلتفت إلى مقاطع ما كان يقوله. ووجود مقاطع تنغيمية في خطاب الحجاج يوحي كذلك بأنه كان يتفقد مقاطع كلامه، وذلك أن الجمل المؤكدة، أو الاستفاهية، أو المنفية (لا يغمز، لا يقعقع) تنتهي بالضرورة إلى الوقف.

وهكذا فإن إطباق الوقفية الصوتية مع الوقفة الدلالية يؤدي إلى فهم معنى الخطاب، ثم إن الوقفة الصوتية إذا ما تم لها أن تفاعلت مع باقي العناصر المكونة للخطاب من وزن، وتنغيم، فإنها تضفي شعرية معينة على المنطوق.

* الوقفية البيضاء: أو كما يصطلح عليها وقفة البياض، وهي وقفة بصرية تؤدي إلى وقفة سمعية، مما يعلن عن تفاعل الصمت مع الكلام، ولتفاعل البصري مع السمعي فعله في إحداث التأثير المرغوب فيه.

كما فعل الحجاج؛ عندما صعد المنبر، ومكث ساعة صامتا لا يكلم أحدا، الأمر الذي استغرب له الجمهور، وكان لهذا السلوك أثره، حيث جلب انتباه الجميع إليه، فالصمت صوت خاص، غايته التأثير فنيا في المستمعين المشاهدين؛ ومن أجل ذلك فهو يمنح إيقاعا خاصا، وتأثيرا مرغوبا.

* الإيقاع: هو موسيقى ناتجة عن وسائل متعددة أهمها التكرار؛ تكرار كلمات معينة أو متشابهة، أو حروف معينة محدّدة المخرج، أو متقاربته، أو ذات صفات جرسية واحدة، وهذا النوع هو الموسيقى الداخلية، وقد يكون الإيقاع من وسائل غير صوتية، وهي عبارة عن أفكار تتفاعل عن طريق التضاد أو التشابه أو التوازي، أو غير ذلك من علاقات الازدواجية. والجدول يوضح تكرارا الكلمات المتّحدة الوزن وعدد الحروف:

عدد الحروف	3	4	5	6	7	8
الكلمات	- نثر - عجم - وجد - رمى		- بحمله - بنعله	- أبصارا - أعناقا		- ألحونكم - أقرعنكم - أعصبنكم - أضربنكم
	- لحو - قرع - عصب - ضرب			- العراق - الشقاق - النفاق		

ولقد سبقت الإشارة، إلى أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم، بينما تقوم صناعة العروض (الوزن) بتقسيم الزمان بالحروف المسموعة، ويساهم الإيقاع بمختلف أنواعه وخصوصياته في بناء نص مكتمل يتوفر على الجناسات والنّبر والمدّ والوقف كذلك، وهو ذلك الكل المجرّد الذي يتساوى فيه جميع العوامل التنغيمية والنفسية والدلالية وسواها.

ومن منظور أرسطو، فإن للإيقاع دورا أساسا في التعبير الخطابي، يهزّ الأذن، ويحرّك النفس، وإن كان قد حظر -سلفا- الخطيب من استعمال التكلف والتصنع؛ ونصح بأن تكون الجمل ذات أجزاء لا طويلة ولا قصيرة، حيث يسهل النطق بها في نفس واحد؛ لأنها لو كانت طويلة ملّها السامع وتخلف عن متابعتها، وإذا جاءت قصيرة فاجأته، فجعلته يضيق بها كأنما تعثر فكره[1].

وفي علاقة الخطابة بالشعر؛ يرى أرسطو أن الخطابة ذات بعد أدبي طالما أنها ترمي إلى إقناع المخاطب (أو المخاطبين) من خلال هزّ مشاعره، وإثارته أو جرّه إلى اتخاذ موقف متعاطع مع قضية الخطيب[2].

وحتى لا يفقد كلام الخطيب الكثير من قيمته الإبلاغية، ومن قدرته على إثارة الانفعالات، والنقر على الأوتار الحساسة، ينبغي ألا يسف أسلوبه وينحدر إلى مستوى المخاطب (الجمهور)، كما يجب عليه ألا يحلق ويسمو كثيرا حتى لا تصبح الهوة عريضة بينه وبين جمهوره.

1)- النقد الأدبي الحديث، د.محمد غنيمي هلال، دار العودة ، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1973، ص:99.

2)- الإبلاغية في البلاغة العربية، سمير أبو حمدان، ص: 111.

ولهذا يعتقد سمير أبو حمدان؛ أنه إذا أمكن اعتبار الخطيب مثلــه مثــل الشاعر، عليه ألا يفوه إلا بما يكون أهلا للاعتقاد به، فإن ثمة مهمة ملقاة على كاهله، وهي التمييز بين الممكن وغير الممكن، والهدف من وراء ذلك كلــه، هو إقناع المخاطب بقضية ما، ولن يتحصل له مثل هذا، ما لم يشحن عباراته بالإيقاع، وليس بالوزن الشعري[1].

يستنتج من هذا أن الإيقاع بعد أساس ولا غنى عنه في التعبير الخطابي إن شعرا أو نثرا؛ وذلك أن كلا منهما يسعى إلى تصوير المشهد أمــام العيــون. «فنحن لا ننعم بلذّة الإيقاع في السمع والفم، إنما ننعم به كما لو أننا حققنا نجاحا باهرا في التطابق والتلاؤم السارين ما بين الأنغام والمعاني، إن الإيقاع لا ينحصر في الكلام؛ إنه يلائم بين الكلمة والمعنى»[2].

وبناء على هذا، فإن الإيقاع ينطوي على قيمة تواصلية إقناعيــة، لأنــه يشحن معه مجموعة من الأحاسيس والانفعالات التي ترتطم في الداخل مــن الكائن المفرد. بوساطة اللغة التي هي مادة كل مبدع (شــاعرا أو خطيبــا)، وذلك أنها تمثل أبنية صوتية تشبه من حيث الدلالة المعنوية والمغزى أصــواتا موسيقية[3]. وهي في الوقت نفسه -أي اللغة- المادة التي يجسد فيها الخطيب انفعالاته وأحاسيسه، وإيقاع تنفسه، معبرا عن سخطه و غضبه كمــا فعــل الحجاج بن يوسف، أو عن فرحه وحزنه، أو عن نصحه وإرشاده،...

1)- الإبلاغية في البلاغة العربية، سمير أبو حمدان، ص: 111.

2)- الشعري، ميكل دورفرين، بحث منشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، ترجمة: نعيم علوية، ع10، شباط، 1981، ص: 47.

3)- الإبلاغية في البلاغة العربية، ص: 67.

والنتيجة، أن الإيقاع يصيب مرمى تواصليا مؤثرا في حالتين؛ الحالة الأولى تخص المبدع الذي يعبّر عن حركة نفسه، والحالة الثانية، هي أن الإيقاع يسهل مرور الشحنات والإيحاءات النفسية إلى الملتقى؛ وذلك ما لجرس اللفظة، ووقع تأليف أصوات حروفها وحركاتها على الأذن، من وظيفة هامة في إثارة الانفعال المناسب؛ وجلب الانتباه إلى ما سيلتفظ به الخطيب.

وخلاصة ما نودّ الوصول إليه، أن الخطيب الذي يريد الاحتجاج لقضية ما، أو يريد مقارعة الأبطال، لابد له من البيان التام، واللسان المتمكن، والقوة المتصرّفة، والبيان كما جاء على لسان الجاحظ يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب، وتنتمي إليه الأعناق، وتزين به المعاني»[(1)] ولا نحسب الحجاج بن يوسف الثقفي لم يكن بينا.

ومن هنا فلا أحد يختلف مع الآخر في أن التعبير عماده الجمل، والجمل بدورها عمادها المعنى، أما مناسبات الكلام أو مواقفه ومقاماته، فإنها تبقى من اختصاص المتكلم ونوعية أسلوبه، وتنطلق الأسلوبية اللغوية من الأسلوب باعتباره من وجهة نظر البعض قائما على استخدام الموارد الإبلاغية للغة لصياغة الفكرة بأقصى ما يمكن من الفعالية[(2)]. وسبب ذلك التداخل الموجود

1)- البيان والتبيين، ج1/16.

2)- الإبلاغية فرع من فروع الألسنية، عفيف دمشقية، مجلة الفكر المعاصر، العدد المزدوج 9/8، معهد الإنماء العربي، بيروت، مارس، 1979، ص: 14.

بين المكتوب والمنطوق، أنه لا يمكن «إهمال تلك الظواهر الأسلوبية التي تتدخل سواء في إيصال المحتويات والدلالات، أو في تحقيق التأثير، وهذه الظواهر تتعلق بكيفية انتقاء عناصر العبارة، وتناغم الأصوات اللغوية، وإيقاع العبارة، ونبراتها، والاستعارة والاشتقاقات، وباقي الطاقات الإبلاغية والتعبيرية التي تلعب أدوارا متناقضة بالنسبة لوضع الحجة، أو بالأحرى تبنين الحجج داخل تناصية معينة»[1].

V-4- وظيفة الصور البيانية:

تعتبر الاستعارة، بمعناها الواسع عند أرسطو؛ عنصر إغراب تحدث الهيبة والعجب، «وما يحدث العجب يحدث اللذة»[2] والنثر البسيط (غير الموزون) يستعمل هذه الوسائل في حدود، في حين تكون «الوقائع والأشخاص، أشدّ بعدا وغرابة في الشعر»[3] ولكن الخطابة قائمة على مبدأ أساس يكبح جماح العنصر الاستعاري، وهو مبدأ الوضوح والوصول إلى أذهان المستمعين بدون حواجز[4].

جاء في البيان والتبيين: «ولا تجعل همّك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلّص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ»[5] وكما اشترط البلاغيون والنقاد العرب الوضوح في الخطابة اشترطوه كذلك في الشعر، وهم لذلك

1)- عالم الفكر، ع30/1، ص: 107.

2)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص102.

3)- الخطابة، أرسطو، الترجمة: العربية القديمة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيرون، 1979، ص:186.

4)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 102.

5)- البيان والتبيين، ج255/1.

اختلفوا حول المبالغة والغلوّ والإغراق والإحالة، ولتحقيق مطلب الوضـــوح اشترطوا لفصاحة الكلام الخلوّ من التعقيد والغريب والحوشي، وكل ما ينافي الطبع، ويعوق اقتناع المستمع بصدق الخطيب(1).

وهكذا، ينبغي للخطيب أن يكون في جميع ألفاظه جاريا على ســـجيته، غير مستكره لطبيعته، ولا متكلف ما ليس في وسعه، لأن التكلف إذا ظهر في الكلام هجّنه، وقبّح موقعه(2).

ويجد المطلع على معظم خطب الحجـــاج مجموعـــة مـــن التـــشبيهات والاستعارات والكنايات استجابة لمتطلبات العصر الأموي، ويعد الحجاج من بين طائفة الخطباء الفحول الذين اهتموا بالتصوير وإبراز مقدرتهم الفائقـــة في استعماله بالإضافة إلى عمرو بن سعيد الأشدق، وعتبة بن أبي سفيان، وليست الصورة عند هؤلاء عنصرا مساعدا لأفكار وحجج قائمة بذاتها على الـــدوام، بل كثيرا ما كانت الصورة هي المادة والشكل، هي الموضوع والحجة(3). كما هو جليّ في خطبة الحجاج بعد قتل ابن الزبير(4):

«موج ليل الْتطم، وانجلى بضوئه صبحه، يـــا أهـــل الحجـــاز كيـــف رأيتموني؟ ألم أكشف ظلمة الجور، وطخية الباطل بنور الحـــق؟ والله لقـــد وطئكم الحجاج وطأة مشفق، وعطفة رحم، ووصل قرابة. فإياكم أن تنْزلوا عن سنن أقمناكم عليها. فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار، فأقيـــم

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 102.

2)- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، ص: 92.

3)- جمهرة خطب العرب، ج287/2.

4)- المرجع نفسه، ص: 280.

من أودكم ما يقيم المثقف من أود القناة بالنار. ثم نزل وهو يقول:

أَخُو الحَرْبِ إن عَضَتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا   وإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرَا

فما يلاحظ في هذه الخطبة أنها تقوم على المقابلة بين حالتين؛ بين حالة الليل والظلام والباطل من جهة، وحالة الصبح والضوء ونور الحق من جهة ثانية؛ وهذا دون أن يقدّم الخطيب حجة على صحة ما يقول، وذلك بخلاف حديثه في خطبته التي اضطر فيها إلى استعمال المثل التاريخي ليبرّر موقفه من قتل ابن الزبير داخل الكعبة.

ولا شك، في أن يكون الحجاج قد استفاد في بناء خطبته هذه من صور تتردد في ذاكرته، ويحبسها خياله على الواقع الجديد، مصدرها الشعر القديم والنصوص الإسلامية؛ فحديثه عن الإخراج من الظلمة إلى النور ينظر إلى منة الإسلام المتردّدة في القرآن الكريم باعتباره منقذا للعرب من جاهليتهم.

ولعل الحجاج كان يحسّ بنشوة النبوّة وهو يفتح مكة، ولعله تذكر فتح الرسول ﷺ لها، وربما تذكّر أيضا عفو الرسول، فوطئ القوم «وطأة مشفق» ويتضح هذا الشعور بالفتح في حديثه عن «السنن» الذي أقامهم عليه، ثم في ذكره النار عقابا لمن حاد عن الطريق، ولعلّه في غمرة نشوة الانتصار حاول أن يجر مستمعيه إلى هذا الجو ليوهمهم بالذنب، وهو يتحوّل من جبار مجترئ على الحرم إلى فاتح هاد؛ يخرج من الظلمات إلى النور، ويقيم الناس على السنة[1].

ومن هنا، قد تكون الصورة مركبة كثيفة توازي واقعا لا يصرح به؛ إما لكونه معروفا مستهلكا، أو للرغبة في إخراجه مخرجا مختلفا، وذلك لكون

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 106.

الصورة تقوم مقام الحجة وتعوضها تبعًا لحال المخاطب، والتصوير في الخطب الوصفية السياسية ذات الطابع الحماسي أوفر وأبدع منه في الخطابة التعليمية والمناظرات التي تعتمد في الغالب على مجرّد توصيل الفكرة في عبارة شفافة مدعومة بحجّة في المناظرات، وبالمثال في الخطابة التعليمية، وبالمقابلات في الخطب الوعظية[1].

ويحرص كبار الخطباء على تقديم المعاني في صور مجازية وفواصل متوازنة؛ إذا ما بدا لهم أنّ بناء الخطبة يقوم على المقابلات كما في خطبة الحجّاج وهو يتهدّد أهل العراق: «أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه،...، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله،...، إن للشيطان طيفاً وللسلطان سيفا، فمن سقمت سريرته، صحّت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة،...، إن الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي»[2].

وكما تقدم التصوير في هذه الخطبة عنصر الإقناع المنطقي، تقدم كذلك عنصر الإيقاع الذي صار إلى الدرجة الثانية متنازلا عن السجع مكتفيا بالفموازنات الصوتية وهذا بخلاف حرص الحجّاج على الموازنة بين الصورة والإيقاع في خطبة الولاية التي استهلها ببيت شعري «أنا ابن جلا وطلاع الثنايا...» تلك الخطبة التي حشد فيها مجموعة من التشابيه والإستعارات والكنايات والأوصاف المشخصة.

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 110.

2)- جمهرة خطب العرب، ج292/2.

أ- التشبيه: ويستحوذ على الفقرة التالية:

- «أما والله لألحّونكم لحو العصا، ولأقرعنّكم قرع المروة، ولأعصبنّكم عصب السلمة، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل، فإنكم لكأهل القرية كانت آمنة...».

- وكذلك قوله: «لا يغمز جانبي كتغماز التين».

ب- الاستعارة: وتتمثل فيما يلي:

- «رؤوسا قد أينعت، وقد حان قطافها».

- «معدن الشقاق والنفاق».

- «فررت عن ذكاء».

- «نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً.

- «أحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله».

ج- الكناية:

- «وما يقعقع لي بالشنان».

د- الوصف الماديّ المباشر: وهو تصوير مرعب مرهب في قوله:

- «إني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي تترقرق».

هـ- الشواهد الشعرية:

إن الشواهد الشعرية التي اختارها الحجّاج تنقلنا إلى عالم الرحلة الشاقة المضنية في الصحراء، حيث يدفع السواق الحطم (أي الحجاج) الإبل (أهل

العراق) في مجاهل الصحراء بدون رحمة، وهي أبيات تعلن الحرب على أهـــل العراق، وتدعوهم للتشمير عن ساعد الجدّ.

VI- الوسائل غير اللّغوية المصاحبة للخطاب:

1- مؤشرات الشخص:

- الحجاج: وضع العمامة على غير العادة.
- الزمان: عصر الخلافة الأمرية.
- المكان: المنبر، المسجد، الكوفة.

2- كيفيات القول:

- موقف التأكد.
- موقف الإقناع.
- موقف التهديد والوعيد.

3- مؤشرات الموقف:

- موقف الحجّاج من أهل العراق (الحقد والنقمة).
- موقف أهل العراق: الخروج عن الدين والتمرّد على الحكام.

4- حركة الجسد:

- يوجد أثر الحركة الجسدية بعمق في فهم دلالاتها ووظائفها، لأنهـــا حاضرة في التراث.

وفي تجاوب هذا التراث مع التطوّرات والمتغيّرات الحضارية، في مختلـــف المستويات والبيئات وخاصّة البيئات الشعبية، إلا أنّ الحركة لابدّ لها من سياق لتكون دلالتها أعمق وأثرها أبلغ وخطابها أوضح كما في الحركة التي قام بها الحجّاج قبل أن يلقي خطبته على جمهوره:

- دخوله المسجد «معتمًّا بعمامة قد غطّى بها أكثر وجهه، متقلّداً سيفا، متنكبا قوساً، يؤم المنبر، فقام الناس حوله حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم»[1].

وهذا السياق كما هو ملاحظ، تحدّده الملبوسات بألوانها وأشكالها وطريقة لبسها إضافة إلى طريقة الوقوف والجلوس والصعود، والأدوات المحمولة، وكل هذا يوحي بشاعرية تلك اللحظة، ويبعث الحيرة والدهشة، كما يبث الرعشة الجسدية والقلبية.

ومن هنا فإن الحركة الجسدية، أداة تعبير تعمل على نقل الوعي من فضاء إلى فضاء آخر، في لحظة تختصر كثيرا من الكم الصوتي واللّغوي، ولا تتجاوز حدود استخراج الصّور من ذهن المتلقي، فالإشارة والحركة الجسدية وسيلة من الوسائل السريعة التي تسمح للمتلقي بالتجوّل لتفجير مكامن ذاكرته، إنها تمنحه إمكانات هائلة في الاستجابة السريعة للفهم وتدفعه لتشغيل الذاكرة بقوة الاستحضار الصوّر وتجاوزن حدود اللغة التي تستهلك الزمن الحاضر، ولا تمنح القدرة على الالتقاط السريع للأحداث وفضاءاتها[2].

وبما أنّ خطاب الحجّاج في عمومه خطاب سياسيٌّ، فإنّ ما يصاحبه من حركات، له مكانات الإيحاء التي تحرّك مكامن النفس التي تتهيأ لتقبل الخطاب دون إعمال النظر فيه، ممّا يساعد على الاندفاع والاستجابة للخطاب، كما يجعل الخطيب يستغلّ ما في مخزون ذاكرة جمهوره من الأمثال والأقوال، ومختلف النصوص التي تسهم إلى جانب الحركة في تبليغ الخطاب، وهذه

---

1)- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، ص: 288.

2)- سيميولوجيا الاتصال، كتاب السيميائية والنص الأدبي، ص: 252.

النصوص تبدو وكأنها منتخبة حديثا، حيث تبدو طرافة حداثتها في اكتشافها وتوظيفها بصورة مغايرة لما كان يعرفه من أبدعها بشيء من الإقناع عن طريق صياغات جسدية ولغوية[1].

وخلاصة القول، إنّ حركة الجسد لغة، واللّغة المنطوقة حركة، وكثيرا ما تلتقي ألفاظ اللّغة بحركة الجسد في أداء معنى من المعاني أو ينوب أحدهما عن الآخر تلقائيا، ليس بسبب العجز عن الترميز إلى المعنى، ولكن لأن مثل ذلك اعتاد الناس عليه ودخل في نظام تواصلهم اليومي.

وعلى العموم فإن كلّ الوسائل الآنفة الذكر؛ من صور منطقية-دلالية إلى وسائل لغوية، إلى وسائل سيميولوجية كلّها تتضافر لتكون من أنجع الوسائل الإقناعية التي يعتمدها كلّ من له غرض يودّ تحقيقه.

1)- سيميولوجيا الاتصال، كتاب السيميائية والنص الأدبي، ص: 255.

بعد هذا العرض البسيط لموضوع الخطاب الإقناعي التواصلي كانت الدراسة بمثابة اختبار جُزئي للإلقاء العربي المختص بالخطابة، ولهذا تميّزت الفصول -عموماً- بالاتجاه نحو التعريف المبدئي لمصطلحات الموضوع؛ الخطاب، الإقناع، التواصل، ثم الخطاب الإقناعي التواصلي، حيث إن كل مصطلح يشدّ برقبة الآخر، وأول ما استدعى منّي التعريف هو الخطاب؛ بعدّه المصطلح المفتاح الّذي يقودني حتما إلى تحليله لاكتشاف كل ماله علاقة به.

ولأجل ذلك، اعتمدت على بعض المناهج الحديثة لأني رأيت أنّه بإمكانها مساعدتي على الكشف عن أهم الآليات المنهجية التي باستغلالها سأصل إلى ما أطمح إليه من تغيير في تجاوز القراءات السابقة لتراثنا، ولو بتحقيق المبادرة في الأخذ بأسباب البحث العلمي الحديث؛ حتى أستطيع تقييمه التقييم الموضوعي والابتعاد عن الدعوات المعدة والمرتجلة البعيدة عن الدقة العلمية، وتجاوز بعض التطرّف الّذي لوحظ في التعامل مع التراث العربي عامّة.

إنّ إعادة النظر في التراث، لن تتأتى لنا إلاّ باتباع الخطوات العلمية الموضوعية التي تمنحها إيّاها بعض المساعي والجهود الفكرية التي تسعى إلى توظيف روح العلم في دراسة الأدب، حيث يكفي أن نكون بها أكثر تريثاً في إصدار الأحكام وأقل جزما بالحقائق وممارسة سلطة القيم.

ومن هنا عاينت في الفصل الأول «البلاغة والتحليل التداولي للخطاب»، الجانب البلاغي، والجانب الخطابي بصفة عامة لما لذلك من حضور فعّال في كل نشاط إنساني؛ وذلك أن الجانب البلاغي يدخل في تشكيل الخطاب كآلية رئيسة لتحقيق تواصل مميّز ومثمر بين الناس.

وإذا كانت نظرية التواصل اللّساني تنطلق أساسا من معرفة كيف يــتم التواصل أكثر من معرفة ما يتم إيصاله، فهي رغم ذلك، تفتح باباً مهمًّا لمعرفة الطرائق والآليات والتقنيات التي تتم بها صياغة الأقوال، ومن ثمّ فهي تطــل على الكيفية التي يشتغل بها الذهن البشري لترتيب الأفكار والتعبير بها عــن المشاعر والمعتقدات، والتأثير بها في الآخرين، وإذا كانت هذه الوظــائف في غالبها ترتبط بالمعنى الضمني (غير المباشر) وليس بالمعنى الحرفي (المباشر) الذي هو مجال النظريات التواصلية العلمية (الآلية)، فإنّ النظريات المعاصرة انفتحت على معطيات تجاوزت النقل الحرفي إلى البحث في الخلفيات المعرفية والسياقية التي تحكم التواصل التفاعلي الإيجابي بين المتكلمين والمستمعين، وهي معطيات تداولية، تجهز الفضاء التواصلي العام، بمختلف العوامل: المعرفيــة والــسياقية والنفسية والاعتقادية.

ولقد عادت البلاغة اليوم وتباينت وجهات نظر المشغلين بقضاياها، كما حفل تاريخها الطويل بالصراع المحتد باعتبارها فنّا للتعبير أو فنّا للإقناع تجاذباها بشكل مستمر وحاد، فحين يتّسع مجال النقاش الدّيمقراطي تهيمن كفن للإقناع، وحين يتقلّص مجال الحريات ترتكن في الأديرة والمعابد كفنّ للتعبير والإعجــاز، غير أنّ هدفها في الأخير يبقى هو الاتجاه نحو الآخر من أجل إشراكه والعمــل على انخراطه في قضية ما أو طرح معين، وذلك إمّا عن طريق الإغــواء «فــن التعبير» أو عن طريق الحجاج «فن الإقناع» ويتحدد موقع المستمع في اختيــار أحدهما، وهو رهان لم يدرس بكامل الدقة من قبل دارسي البلاغة القديمة.

واعتمادا على التحليل الذي قدّمناه لأطروحتنا، وانطلاقا من التراكمات النظرية والتطبيقية التي خلفتها الدراسات القديمة والمعاصرة يمكن تصوّر منظور

جديد للبلاغة، لا باعتبارها نظرية لإنتاج الأفكار أو الممكن منـــها، ولكـــن باعتبارها فنّا للإقناع النظري والثقافي الإيديولوجي، التي يحتلّ فيهـــا موقـــع المسمع قطباً أساسا يحدّد طبيعتها واتجاهاتها وأهدافها.

ومن التحليل التداولي للخطاب؛ استنتجت أنّ أفعـــال الكـــلام يمكـــن اعتبارها تمظهرا للقصد التواصلي؛ ذلك أن القصد التواصلي للمتكلم لا يعتمد فقط على الدلالة اللسانية للقول؛ بل ينطلق منها ولا يتجاوزها بتشغيل كـــل أنواع المقدمات والمؤشرات والقرائن السياقية ويجند لذلك قدراته الاستدلالية والاستنتاجية التي تدخل في اعتبارها وفي حسابها أية معلومات كيفما كانت سواء كانت ذات علاقة بالعلامة اللسانية أو بالسياق التداولي.

إن الجوانب التي يمكن أن يدرس بها الخطاب الإقناعي كثيرة وذلـــك أنّ النقد الحديث يشتمل على وجهات نظر متعددة، غير أن ما منحته لنا وجهة نظر التداولية التي اعتمدنا بعض إجراءاتها سواء فيما لخّص نظرية أفعال الكلام أو نظرية الحديث، في التركيز على طبيعة اللّغة الإقناعية التي يلجأ كل خطيب إلى استعمالها متى دعت الضرورة أو استدعى الموقف، وذلك بتوظيف أدوات لغوية خاصة بكل موقف.

ولقد رأيت أنّ العلاقة الجدلية بين الإرسال والتلقي في بعدها التخاطبي التداولي، بإمكانها أن تنتج أساليب معينة؛ هي ما عبّرت عنها بالتحـــاور أو التعارض استناداً إلى بعض ما استنتجته من إطلاعي على بعض طروحات «طه عبد الرحمن» في هذا المجال الذي نحا منحى تأصيليا في تحليلاته التداولية.

ولقد بدا لي من خلال بعض النتائج الجزئية في التعاملي بعض مفـــاهيم التداولية الحديثة أنّ الميراث البلاغي العربي قادر على أن يمدّنا بأكثر ممّا تمـــدّنا

به هذه المناهج في طريقة دراسة طرائق الاستعمال الأدبي للّغة، وإنّ تأصيلها كفيل بأن يقدّم لنا أفقا نظريا كاملا لرؤية ماهو أدبي وفهمه.

أما بالفصل الثاني «الخطاب الإقناعي–وسائله ومجالاته» فلقد توصلت إلى نتيجة مفادها، أنّ ميدان الحجاج يعتمد أساسا على البلاغة الكلاسيكية والحديثة، كما نجد ذلك عند «تيتكا» و«بيريلمان» أو يعتمد على المنطق الطبيعي كما رأينا عند «كرايس» أكثر من اعتماده على اللسانيات والتداوليات، وبعبارة أخرى فإنّ دراسة الحجاج أخذت تهتم بإستراتيجية الخطاب الهادف إلى الإغواء والاستمالة استناداً إلى أنماط الاستدلالات غير الصورية، وذلك بغاية إحداث التأثير على المخاطب بالوسائل اللسانية والمقوّمات السياقية التي تجتمع لدى المتكلم أثناء القول من أجل توجيه خطابه والوصول إلى بعض الأهداف الحجاجية، وهي القضايا والأبحاث التي اهتم بها كل من «ديكرو»، و«بيريلمان»، وأصحاب التداوليات المعرفية، وأصحاب النظريات الحجاجية المعاصرة والمشتغلون بتحليل الخطاب، وهي دراسات استندت في ذلك إلى مجموع من الآليات والبنيات اللّغوية والمنطقية والتداولية والمعرفية.

تلك الآليات والبنيات التي مكنتني من البحث في شعرية الإلقاء الخطابي؛ وهو بحث في صميم الدراسات اللسانية ولا يمكن إبراز خصوصيات الشعرية إلا من خلال الدراسة المافوق لسانية؛ لأنّ نشوء الشعر والخطابة كان شفاهيا؛ لذا فإن العيوب اللسانية تتجلى في الأداء لا في الكفاءة.

وعلى ذلك الأساس؛ كان الإلقاء الخطابي أرضية لتجلية الشعرية وخصوصيّاتها خاصة بعد تطوّر التدوين والتوثيق الكاليغرافي في النص؛ هذا تطوّر الذي كان له الفضل في انتشار بعض الدراسات؛ كالسيميائيات التي

ساهمت بدورها في التأثير والإقناع إلى جانب تلك الآليات والبنيات اللّغوية- المنطقية الدلالية.

ويسمح الإلقاء أو الأداء بإخراج النص من فضاء الكتابة إلى فضاء النطق إخراجاً «أكوستيكيا» «دلاليا» حيث يتحكم الملقي في هذه العملية تحكما متقنا، وذلك أن التفاعل في الإلقاء سياقيٌّ، حيث تمكن شعريته في استغلال الحالة التي تعدّ بمثابة تراتب انفعالي بمفهوم «ياكبسون»، وبمثابة الحدث اللساني بمفهوم «مارتيني»؛ أي أنّ الإلقاء بتموضع عن الانفعالية والتأثيرية.

ولأنّ شعرية الإلقاء مرتبطة بالشفاهية الثانية المحافظة على التوازي باعتباره ظاهرة بلاغية لسانية تعني تكرار ظاهرة لغوية في زمن معين، تمكنت من التفريق بين الشعرية في النص والشعرية في الخطاب، فاستنتجت أن النصّ متن لغوي، بينما الخطاب إلقاء هذا المتن شفاهيا؛ ولهذا حدّدت الشعرية، بكونها إسقاط مبدأ التوازي من محور الاختبار على محور التراكيب وفق نظرية «ياكيسون» فأمّا شعرية النص، فهو التوازي في بناها الصوتية ومقاطعها، وأمّا شعرية الخطاب فهو التوازي القائم ما بين أشكال النّبر والتنغيم، والوقف،والوزن والإيقاع.

وشعرية الخطاب تعيد للنص الحديث -المتميز بتخلخل بناه- توازيه من خلال الإلقاء الّذي يحافظ على نسق التوازي في الوقت الذي لا يحافظ فيه النص الشعري عليه، ولعلّ هذا الذي يفسّر كون التوازي ظاهرة شفاهية؛ لأنه يتجلى في الإلقاء أكثر من تجلّيه في الكتابة، أو أن ظروف وضوحه تنبسط أكثر في الخطاب من النص.

ويعتبر التوازي أعم من التضاد؛ فهو يحتويه إذ يتخذه مبدأ في تفجير شعرية العمل الأدبي، على خلاف التضاد الذي يتخذ التوازي سنداً في ذلك، ويمكن

بناءً على هذا اعتبار التوازي بنية دلالية إقناعية وذلك من خلال تلك التكرارات التي تجسّد انسجاما موسيقيا وجرسا يؤثّر -لا محالة- أثناء عملية الإلقاء.

ولكن الشعرية لا تتجسّد بصورة كاملة إلاّ في كونها تتعدّى حدود مستوى النص إلى مستوى الخطاب الّذي يحتفظ بشحنات التوازي في حالات إخراج النص إلى الوجود الصوتي والفضاء الزمني؛ وعلى هذا الأساس يمثل النص والخطاب وجهين لعملة واحدة؛ هي عملية الإلقاء، فلا يمكن أن يتم إلقاء نصّ لا يتّسم بالشعرية، وذلك وفق المقاييس المحددة ضمن ما يسمى بالمعطى اللغوي للشعرية.

وإذا كانت الدراسة قد تعمقت في دراسة وسائل الإقناع المتمثلة خاصّة في الحجاج والبلاغة والبنى اللّغوية (بنية التكرير، بنية الازدواج، بنية التوازي) بالإضافة إلى السيميائيات من إشارة ورمز وحركة جسد؛ فلأنه لا يمكن أن يكون هناك تواصل لا يكون الإقناع هدفه؛ خاصّة في اللّغة اليومية.

ولقد عمدت في الفصل الأخير إلى المستوى التطبيقي الّذي مكّنني من اكتشاف وتحليل بعض مكونات الخطاب الإقناعي، كما مكنني من العبور إلى أبعاده وتفاعلاته النصية، فكنت في هذا البحث في حركة هي أقرب إلى المدّ والجزر، في حالتي دخول وخروج، أتحرك تارة ضمن الخطاب باعتباره طريقة في الأداء، وتارة بصفته نصّاً في أبعاده السياقية التفاعلية كالتلقي والتناص، ولعلّ الذي يشفع لي هذا التأرجح هو الرغبة الجامحة في قول أشياءٍ كثيرة عن الخطاب الإقناعي.

فاكتفيت بأن يكون البحث مجالا لعرض أبرز القضايا التي تثيرها إشكالية التواصل والحجاج في الخطاب الإقناعي، والتي آمل أن تلقى كل الاهتمام من قبل الباحثين.

وفي الأخير نسأل الله التوفيق والنّجاح.

الحجّاج بن يوسف الثقفي

1- حيـــاتـــه:

هو أبو محمد الحجّاج بن يُوسف الثقفي بن أبي عقيل، رجـــل الحـــرب والخطابة، والجبّار الدّاهية. ولد بالطّائف سنة 41 للهجرة، وكان أبوه معلّما، ولّما شبّ الحجّاج اتّخذ صناعة أبيه، فراح يعلّم الصّبيان القرآن الكريم. وأمّه الفارعة بنت هبّار طليقة المغيرة بن شعبة.

كان مولد الحجّاج في أوّل ظهور الدولة الأموية، وكانـــت الثـــورات والفتن تهزّ أركان هذه الدولة، وتشغل بال الحاكمين، وكان الحجاج عنـــدما اكتمل شبابه شرطيّا في شرطة «روح بن زنباع» وزير عبد الملك بن مروان، فأشار القائد على الأمير عبد الملك أن يولي الحجّاج رياسة جيشه الّذي وجّهه ليقضي على ثورة الجزيرة.

فأظهر الحجّاج شدّة وعنفاً، وأرك الخليفة حاجته إلى ظهير كالحجّـــاج، فأطلق يده فيما ندبه إليه، فاختاره لقتال عبد الله بن الزبير بالحجاز. وقد بلغ من قلّة تحرّج الحجّاج أنّه ضرب الكعبة بالمنجنيق، وكان عبد الله قد تحـــصّن بها، وتمّ له النصر على ابن الزبير، فقتله وأراد أن يعلّق رأسه بالكعبة ليكـــون عبرة لغيره -حسب ما تذكر الكتب القديمة- العقد الفريد، جمهرة خطـــب العرب، البيان والتبيين. فما كان من عبد الملك بن مروان إلاّ أن كافأه بتوليته على الحجاز ثم ولاّه من بعد ذلك العراق.

2- صفـــاتـــه:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجّاج: «أن صف لي سيرتك. فكتـــب إليه: إنّي أيقظت رأيي، وأنمت هواي، فأدنيت السيّد المطاع في قومه، وولّيـــت

الحرب الحازم في أمره، وقلّدت الخراج الموفّر لأمانته، وصــرفت الــسيف إلى النطف المسيء فخاف المريب صولة العقاب، وتمسّك المحسن بحظّه من الثواب».

الرياشي عن العتبي وعن أبيه مهران قال: «ما رأيت مثل الحجّاج: كان زيّه زيّ شاطر، وكلامه كلام خارجيّ، وصولته صولة جبّار. فسألته عن زيّه فقال: كان يرجّل شعره ويخضّب أطرافه».

قال عبد الملك بن مروان للحجّاج: «ليس من أحد إلاّ وهو يعرف عيب نفسه، فصف لي عيوبك. فقال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: لابدّ أن تقــول. قال: أنما لجوج حسود حقود. قال: ما في إبليس شرّ من هذا.

3- وفــاتــه:

مات الحجّاج بن يوسف في آخر أيام الوليد بن مالك ففرح العراقيــون والموالي أيما فرح، ولكن الوليد بن عبد الملك تفجّع عليه كثيراً وولّى مكانــه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج، فكفى وجاوز فقال الوليد: مات الحجّاج ووليت مكانه يزيد بن أبي مسلم فكنت كمن سقط منه درهــم وأصــاب ديناراً، وكان الوليد يقول: كان عبد الملك يقول: الحجّاج جلدة ما بين عيني وأنفي. وأنا أقول: إنّه جلدة وجهي كلّه.

4- آثــاره:

إنما قيل عن الحجاج كثير، ولكن ما نقلته لنا الكتب قليل، وباطّلاعنــا على كتاب العقد الفريد، والبيان والتبيين، وكتاب جمهرة خطــب العــرب ورسائله؛ وجدنا بعض الرسائل التي كانت متداولة بينه وبين الخليفــة عبــد الملك بن مروان، وبعض الخطب التي يرى الباحثون أنّ أشهرها خطبة الولاية وخطبة دير الجماجم.

ملخّــص

يتناول موضوع الرسالة «الخطاب الإقنــاعي في ضــوء التواصــل اللّغوي» (الحجاج بن يوسف -نموذجا-) وهو موضوع يتعمــق في دراســة البلاغة والتحليل التداولي للخطاب، كما يتعمق في دراسة وســائل الإقنــاع المنطقية-الدلالية، وكذا الوسائل اللّغوية بالإضافة إلى الوسائل غير اللّغوية.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الإقناع، الحجاج، التواصل، البلاغــة الكلاسيكية والبلاغة الحديثة، التحليل التداولي للخطاب، الخطاب الإقناعي، وسائل الإقناع، الحجاج ومجالاته، وظيفة الإقناع في منتخبات مــن خطــب الحجّاج بن يوسف الثقفي.

SOMMAIRE

Le thème de la thèse « Discours persuasif à la lumière du relais linguistique » (El-Hadjadj Ben Youssef étant modèle), reste un thème approfondi de l'étude de l'éloquence et l'analyse délibératoire du discours, ainsi que l'étude des moyens logiques de persuasion. La sémantique, ainsi que les moyens linguistiques en plus des moyens non linguistiques.

Mots clé : Discours, persuasion, argumentation, le relais, l'éloquence classique, la communication moderne, analyse délibératoire du discours, discours persuasif, moyens de persuasion, argumentation et ses domaines, fonction de persuasion dans les morceaux choisis des discours d'El-Hadjadj Ben Youssef Ettakafi.

SUMMARY

The theme of the thesis «Persuasive speech in the light of the linguistic relay» (El-Hadjadj Ben Youssef being model), remains a thorough theme of the study of the eloquence means and the analysis deliberate of the speech, as well as study of average logical of persuasion. Semantic, as well as average linguistics means in more of the no linguistics means.

Key words: Speech, persuasion, argumentation, the relay, the classical eloquence, the modem communication, deliberate analysis of the speech, persuasive speech, means of persuasion, argumentation and its fields, function of persuasion in the selected pieces of the speeches of El-Hadjadj Ben Youssef Ettakafi.

📖 القــرآن الكريــم

المصادر والمراجع:

📖 الأسس العلمية لنظريات الإعلام، جيهان أحمد رشتي، دار الفكر العربي، 1975.

📖 الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1997.

📖 الألسنية (علم اللغة الحديث)، د.ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.

📖 أساس البلاغة، محمود الزمخشري، دار صادر، 1979، مادة (خطب).

📖 أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هلموت ريتر، دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، 1983.

📖 أصول البلاغة، كمال الدين هيثم البحراني، تحقيق: د.عبد القادر حسين، دار الشرق، د.ط، 1981.

📖 أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، نايف خرما، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1987.

📖 الإبلاغية فرع من فروع الألسنية، سمير أبو حمدان، منشورات عويدات الدولة، بيروت، باريس، ط1، 1991.

📖 الإعلام الاجتماعي، ميشال لونات، ترجمة: صالح بن حليمة، مراجعة: مصطفى المصمودي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1993.

📖 الإقناع الاجتماعي (خلفيته النظرية وآلياته العملية)، د.عامر مصباح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005.

📖 الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.

📖 إحصاء العلوم، أبو نصر الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق: عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948.

📖 إحكام صنعة الكلام، محمد عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، 1966.

📖 البخلاء، عثمان أبو عمرو بن بحر الجاحظ، حقق نصه وعلق عليه: طه الحاجري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948.

📖 البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، تحقيق: د.أحمد مطلوب، ود.خديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، 1378هـــ.

📖 البرهان في وجوه البيان، إسحاق بن إبراهيم ابن وهب، تحقيق: خفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969.

📖 البلاغة والأسلوبية، د.محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1994.

📖 البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط5، 1405هـــ-1985م.

📖 البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: د.درويش جويدي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د.ط، د.ت.

📖 بلاغة الخطاب وعلم النص، د.صلاح فضل، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992.

📖 التحليل العلمي للنصوص، عبد الرحمن حاج صالح، ضمن بحوث في علم اللّسان جمع وتصنيف وتقديم صالح بلعيد، مخطوط تحت الطبع، ج1.

📖 التشابه والاختلاف، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، د.ط، د.ت.

📖 التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السّادس، مشروع قراءة، حمودي صمود، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981.

📖 التفكير الفلسفي، إعداد وترجمة: عبد السلام بنعبد العالي ومحمد سبيلا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987.

📖 تأملات في اللغو واللّغة، د.عبد العزيز الحبابي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1980.

📖 تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1383.

📖 تحليل الخطاب، ج.ب.براون، ج.بول- ترجمة محمّد لطفي الزّليطي، منير التريكي، الرياض، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1997.

📖 تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، أمينة لعلى، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002.

📖 تحليل الخطاب الروائي، عيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1989.

📖 تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، لبنان، د.ط، د.ت.

📖 تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت 1968.

📖 تلخيص الخطابة، ابن رشد، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، د.ط، د.ت.

📖 الثابت والمتحول، أدونيس، صدمة الحداثة، دار العودة، بيروت، ط2، 1979.

📖 الجدل في القرآن، محمد التومي، الشركة التونسية، تونس، 1980.

📖 جمالية الألفة (النص ومتقبله في التراث النقدي)، شكري المبخوت، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس.

📖 جمهر خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.

📖 جمهرة رسائل العرب، جمع أحمد زكي صفوت شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي، 1356هـــ-1937م.

📖 جينالوجيا المعرفة، مشال فوكو، ترجمة: أحمد السلطاني وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988.

📖 الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1969.

📖 حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، الهيأة المصرية للكتاب، 1999م.

📖 الخصائص، ابن حنّي، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، 1986.

📖 الخطابة العربية أصولها تاريخها في أزهر عصورها، الإمام أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، د.ت.

📖 الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف مصر، 1969.

📖 الخطابة العربية وفنّ الإلقاء، د.أشرف محمد موسى، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، 1978.

📖 الخطابة، أرسطو، الترجمة العربية القديمة، تحقيق: د.عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، 1979.

📖 دراسات في العلاقات العامّة والإعلام، علي عجوة، القاهرة، عالم الكتب، 1985.

📖 دراسات في علم النفس الاجتماعية، عبد الرحمن محمد عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1974.

📖 دراسة الصوت اللّغوي، للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، مصر، ط3، 1985.

📖 دروس في الألسنة العامة، فيردينان دي سوسير، الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس، 1985.

📖 دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، موفم للنشر، الجزائر، 1991.

📖 دينامية النص (تنظير وإنجاز)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990.

📖 رسائل الإعلام وأثرها على تقييم نشأة الطفل الاجتماعي المجتمع العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1992.

📖 الشعر العربي الحديث بنياته و بنياته وإبدالاته، محمد بنّيس، الأجزاء الأربعة، دار توبقال للنشر، المغرب، ج1990.

📖 الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1982.

📖 الشعري، ميكل دورفرين، بحث منشور في مجلة الفكر العربي المعاصر، ترجمة: نعيم علوية، ع10، شباط، 1981.

📖 الشعرية العربية، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط4، 1985.

📖 الشعرية والتجربة، أرشيبالدمكليش، ترجمة: د.سلمى خضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، د.ط، 1993.

📖 الشفاهية والكتابية، والترأونج، ترجمة: د.حسن البنا عزالدين، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1414-1994.

📖 شرح الفوائد الغياثية، الملا عصام الدين، دار الطباعة، العامرة، 1321هـــ، ص: 282، نقلا عن بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2.

📖 شكل القصيدة العربية حتى القرن الثامن الهجري، جودة فخر الدّين، دار الآداب بيروت، ط1، 1984.

📖 الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د.الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963.

📖 الصحاح للجوهري، تحقيق: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984.

📖 الصناعتين، (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، ترجمة: محمد قميحة، دار الكتب العلمية، 1981.

📖 طبقات الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق وشرح: محمود شاكر، القاهرة، 1952.

- العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن عبد ربّه الأندلسي، ش.و.ض: إبراهيم الأبياري، تقديم وشرح: محمد عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- العمدة، في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، القاهرة، مطبعة 1925.
- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، جدّة، 1988.
- عيار الشعر، ابن طباطبا، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، توزيع مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1985.
- الفن ومذاهبه في النشر العربي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت.
- الفصول، عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، 1986م
- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، أبو الوليد بن رشد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981.
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، رجاء عيد، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزي وشركاه، ط2، د.ت.
- فن الخطابة وتأويل النص ونقد الايديولوجيا، هانز جورج غادامير، ترجمة: نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، 1988.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987.
- في النقد والأدب مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي الأموي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ط5، 1986.

- 🕮 في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيق لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجا، د.محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986.
- 🕮 في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيق لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجا، د.محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1992.
- 🕮 في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، حكمت صباغ دار الآفاق للنشر، بيروت- ط3- 1985.
- 🕮 القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الفكر، بيروت، مادّة (خطب).
- 🕮 قضايا الشعرية، رومان جاكوبسون ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988.
- 🕮 القول الشعري، د.يمنى العيد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987.
- 🕮 الكتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة المصرية، د.ت.
- 🕮 اللسانيات وأسسها المعرفية، د.عبد السلام المسدّي، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- 🕮 اللّغة العربية معناها ومبناها، د.تمام حسان، الهيئة المصرية، 1989.
- 🕮 اللغة بين البلاغة والأسلوبية، مصطفى ناصف، النادي الأدبي بجدّة، السعودية، 1989.
- 🕮 اللّغة والبلاغة والميلاد الجديد، مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي بجدّة، السعودية، 1989.

- اللغة والتفسير والتواصل، مصطفى ناصف، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 193، رجب 1415هـــ/يناير، كاثون ثان، 1995م.
- اللغة والتواصل (اقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، الأستاذ عبد الجليل مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000.
- اللّغة والخطاب الأدبي، سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992.
- اللّمع، الطوسي أبو نصر السرّاج، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الله سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، د.ط، 1960.
- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، 1997، مادّة (حجَجَ).
- المثل السائر ضياء الدّين بن الأثير، قدّمه وعلّق عليه: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار النهضة، مصر للطباع والنشر، ط2، 1973.
- المدخل السوسيولوجي للإعلام، أحمد الخشاب وأحمد النكلاوي، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1974.
- المدخل إلى علم الأصوات، د.صلاح الدين حسين، دار الاتحاد العربي للطباعة، ط1، 1989.
- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، القاهرة، د.ط، د.ت.
- المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، د.ط، د.ت.
- المقاربة التداولية، أرمينيكو فرانسواز، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ت.

📖 المقدّمة، عبد الرحمن بن خلدون، الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت.

📖 المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبو محمد القاسم السجلماسي، مكتبة المعارف، الرباط، 1980.

📖 الموقف من القص في تراثنا النقدي، ألفت كمال الروبي، مركز البحوث العربية، القاهرة، 1991.

📖 ما وراء الخبر والنشر، فيريديريك نيتشه، ترجمة: جزيلا فالور حجّار، بيروت، ط1، 1995.

📖 مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ك.فوك، ب.لوفوميك، ترجمة: منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.

📖 مجاز القرآن، أبو عبيدة، تحقيق: فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1981.

📖 مدخل إلى اللسانيات، رونالد إلوار، ترجمة: د.بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1980.

📖 مشكلة الإيقاع الشعري، توماشفسكي، الفكر الأدبي كراسة 2، 1922.

📖 معجم المصطلحات اللغوية، د.خليل أحمد خليل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط5، 1995.

📖 مفتاح العلوم، محمد بن علي السكاكي، ضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.

📖 منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966.

📖 مواقف في الأدب الأموي (تحليل، دراسة، منتخبات)، د.عمر فاروق الطباع، دار العلم، بيروت لبنان، د.ط، د.ت.

📖 النص والخطاب والإجراء، روبرت دوبوجراند، ترجمة: د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1418هـ–1998هـ.

📖 النظرية البنائية في النقد الأدبي، د.صلاح فضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1985.

📖 النقد الأدبي الحديث، د.غنيمي هلال، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، د.ط، 1973.

📖 النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، جان لوي كابنس، دار الفكر، سوريا، 1982.

📖 النقد الأدبي، و.ك ومزت، ك.بروكس: ترجمة: حسام الخطيب ومحي الدّين صبحي، دمشق، 1973.

📖 نظرية الأدب رينيه ويليك وأوستين وارين، ترجمة: محي الدين صبحي، مراجعة د.حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1981.

📖 نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، تامر سلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاّذقية، ط1، 1983.

📖 نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، مؤسسصة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1982.

📖 نقد الشعر عند العرب، حتّى أواخر القرن الخامس، أحمد الطرابلسي، ترجمة: إدريس بالمليح، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1993.

📖 نقد الشعر، قدامه بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1978.

- نقد العقل العربي، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1986.
- نموذج المجادلة من البلاغة العربية، باسل حاتم، بحث مترجم في: بحوث تحليل الخطاب الإقناعي، اختيار وترجمة د.محمد العبد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1419هـــ- 1999م.
- وسائل الإعلام وأثرها في المجتمع العربي، ليلى داود، ديوان المطبوعات الجزائرية، 2000.
- 10 ثورات في الإسلام، الدكتور: علي حسني الخربوطلي، دار الآداب، بيروت، د.ط، د.ت.

المجلات والدوريات والرسائل الجامعية:

- مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، العدد 1، 1992.
- مجلة فصول للنقد الأدبي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، العدد 60، 2002.
- مجلة تجليات الحداثة، العدد 02، معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة وهران، 1993
- مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد مزدوج 101/100، بيروت، 1993.
- في تحديد مفهوم الخطاب، د.كمال عمران، المجلة العربية للثقافة مجلة نصف سنوية (مارس-سبتمبر)، العدد 28، 1995.
- مجلة التواصل، جامعة عنابة، العدد 04، جوان 1996.
- مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني الثقافي والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلّد 28، العدد01، يوليو/سبتمبر 1999.
- مجلة عالم الفكر المجلد30، العدد 01، مجلة دورية محكمة تصدر عن لمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ليوليو/سبتمبر 2001.

الرســـائـــل:

- 🕮 إشكالات التواصل والحجاج (مقاربة تداولية معرفية)، رسالة دكتوراه، عبد السلام عشير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، المغرب، 1999-2000.
- 🕮 النبر والتنغيم، حكيم والي دادة، مخطوطة رسالة جامعية لنيل شهادة الماجستير في اللسانيات، جامعة تلمسان، 1998-1999.
- 🕮 مقولة التوازي وشعرية الإلقاء، هواري غزالي، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000

الــدوريـــات:

- 🕮 السيمائية والنص الأدبي،أعمال ملتقى معهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، 17/12 ماي 1995.
- 🕮 اللغة العربية والاتصال، الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض، أعمـــال الموسم الثقافي، مدونة المحاضرات الملقاة عام، 2000.
- 🕮 الضوابط اللغوية لتوجيه الخطاب العلمي، أ.د.سيدي محمد غيتـــري، الملتقى الدولي الأوّل، جامعة البليدة، ماي 2000.
- 🕮 التصوّر اللّغوي في البلاغة القديمة، د.رمضان كريـــب، كليـــة الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، د.ت.

المراجع باللغة الفرنسية:

- 🕮 A Mod of Argumentation from Arabic rhetoric, Insights for a theory of text types, hatim Basil, British society for middle Eastern studies, Bultin 17,1.
- 🕮 An introduction to functional grammar M.A.K Halliday Edward Arnold, London, Routledge, Chapman and Hall, Inc USA 2nd Edition (1994).
- 🕮 An introduction to general linguistics, F.P.Dinneen, U.S.A, 1967.
- 🕮 An introduction to text linguistics. De Beaugrande R, diessler, w.1981.
- 🕮 Analisis del discourso, lozono, Jorge penaquarin, Grisixa, Abril- Gouzalo- Madrid- 1986.
- 🕮 Argumentation and debate, Freely Austin, J. wids worth publishing Co.Belmont, 2nd, 1966.
- 🕮 Argumentation and the decision Making process, Reike Richard D-Sillars, malcolm, O-John Wiley and sons Inc USA, 1975.
- 🕮 Argumentation, et Conversation, J.MŒSCLER, Hatier, 1985.
- 🕮 Argumentation, Maas, Utz: Spachliches, Handeln II in Hans
- 🕮 Barres of phinology, steton R.H.Ohio, 1945.
- 🕮 Cohe sion in English, M.A.K, Halliday, Ruqaiya, Hasan, Longman, Th. Impression, 1983.
- 🕮 Del Formalis ma a la neoretoria, Pozuelo, y vancos, Jose Maria, Madrid, 1988.
- 🕮 Dictionnaire de dédactique des lauges: R. Galisson et D.Coste librairie Hachette- 1976.
- 🕮 Dictionnaire de la langue Française le grand Robert, Paris, 1989.
- 🕮 Dictionnaire de linguistique (discours Texte)- Jean Dubois et autres, La rousse, Paris, 1973.
- 🕮 Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, Paris, 1972.
- 🕮 Discourse Analisis, G.yule brown, Campridge, 1983.
- 🕮 Elément of general linguistics, André Martinet, London, 1964.

- Elément pour la lecture des textes philosophies, cossuta frediric, bordas, Paris, 1989.
- English in parallels : A comparison of English and Arabic prose, E shirly Ostler, south California uni.
- Every day Argument, The organization of Diversity in Talk in Analysis, Vol3: Discourse and Dialogue, Academic, press, London, 3d, edition, 1989.
- General linguistices, Robins R.H.GB, 1966.
- Initiation aux Méthodes de l'analyse du discours (problèmes et perspectives) Dominique maingueneau, ed-Hachette niversité, 1967.
- Introduction, to phonetics, Bromahah, L.F and dalriduction, cambidge, 1970.
- L'acte de lecture, théorie de l'effet esthétique, ISER Wolfgang, presse mergaba, Editeur.
- L'argumentation dans la langue, O.Ducrot et Anscoubre, Pierre Margada, édition, Paris, P : 1983.
- L'énonciation de la subjectivité dans le langage, Catherine Kerbrat Orecchioné, Armand colin, Paris, 1980.
- l'implicite, Catherine Kerbrat Orecchioné, Editition Armand Colin, Paris, 1986.
- L'information et la communication, Roget escaprit. Hachette. Sl. 3ed. 1991.
- La Cienca del Texto, Van Gijek, Trad Barcelona, 1984.
- La Connaissance philosophique, Grenier Hubert, Ed Masson et Cie Parie, 1973.
- La Métaphore vive, Paul Ricœur, Paris, 1975, le seuil.
- La philosophie des discours argumentatifs in pratiques auricchio (angues) et Alliés (Revue) N° 73, Mars- 1992.
- La sollygistique d'Aristote, Jan Lukasiewicz, tradition de C.Zaslawsky Armand, Collin, Paris, 1972.
- La théorie Aristotélicienne de la science, Gilles Gaston Granger, Aubier Montaigne, Paris.
- Langage et représentation sciences humaines, J.P.Brouckart, N°21, Hors série, juin- juillet, 1998, auxairre.
- Le raisommement, Robert Blanché, p.u.f, Paris, 1973.

- Les échelles argumentatives, Ducrot- (Oswald), édition des minuit, Paris, 1989.
- Les méthodes en philosophie, Russ Jacqueline, Ed Armand colin, Paris, 1992.
- Les problèmes de la linguistique générale (Emile) Benveniste, 2ème édition Gallimard, Paris, 1974.
- Les voies du langages, Bordas, Paris, Dunod, 1982.
- L'explication dans l'argumentation, Langage Française, M.J. Borel, N°50, Parie, 1981
- Linguistique et poétique, Daniel delas, jacques filliolet, librairie larousse, 1973.
- Logique, langage et argumentation- meyer (Michel) Hachette Université- 2ème édition- Paris- 1982.
- On the cognitive aspects of the Joke, R.Giora, jornal of pragmatics, 16/1991.
- Opinions and attitudes in discourse comprehension, Language and comprehension, T.A.Van dijk, ed J.F, Ny, w Kintch, Amsterdam, North Holland publishing company, 1982.
- Persuasive speaking, Scott, scheidel, Thomas M foresman and Co. Glenview, 1967.
- Pour la connaissance philosophique, Gillée Gaston Granger, Edition Odile Jacob, Paris, 1988.
- Pragmatique pour le discours littéraire, Dominique Maingueneau, Bordes, Paris, 1990.
- Premilinaries of linguistics phonitics, Peter la Defozed, U.S.A, 1971.
- Presentation as proof : The language of Arabic rhetoric anthropological linguistic, Barbara johnstone Koch vol 25, No 1, 1983.
- Problèmes de linguistique générale, Emille Benveniste, édition Gallimard, Tome I, 1966.
- Questions de rhétorique, Langage, Raison et séduction, Meyer Michel, Librairie générale, Française, Paris, 1993.
- Reading in argumentation- Andersen jerry, M.Dover, Paul J.Allyn and bacon, inc boston, 1968.
- Rétorica General, Groupe U, Trad- Madrid, 1983.

- 🕮 Rhétorique de la poésie, Group Mu, 1982, le seuil.
- 🕮 Sémiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Grimas et courtes, communication.
- 🕮 Speech communication, Martin Howard, H. Andersen, Knneth E-Allyn and bacon, Inc boston, 1968.
- 🕮 Stratégies discursives, actes du colloque du centre de recherches linguistiques de Lyon, presse universitaire de Lyon, 1977.
- 🕮 Textlinguistik, Heinemann, Wolfgang, Viehweger, Dieter, eine einfuhrung, Max Niemeyer, Verlag, Tuebingen, 1991.
- 🕮 The Cognitive basis for linguistic structure in « hayes, cognition and The development of language, T.G.Bever, (N.Y.Willey 1970).
- 🕮 The rhetoric of argumentation, Williams Brandt 1 st, Printing, U.S.A, 1970.
- 🕮 The role of repetition in Arabic argumentative discourse : Al-Jubouri, A.J.R: in swoales.j and H.Mustafa (eds): English for specific purposes in the Arabic would Birmingham, Languages cervices unit Aston uni, 1984.
- 🕮 Théorie du langage, J P Brancard, 2ème édition, Bruxelles, 1977.
- 🕮 Theory of Amman communication, Stephen W, little john, Charles E-Merrill company, 1978.
- 🕮 Traité de l'argumentation, perelman, Ch.Tyteca, olbrechts presses universitaire de Lyon, 1981.
- 🕮 Treate de l'argumentation, la nouvelle rhétorique Perelman, Ch. Oubseches- Tytica Trad, Madrid, 1989.
- 🕮 Understanding a phenomenological, pragmatic, Analysis in philosophy, no19, G.B.Madison, Connecticut, green wood press, 1982.
- 🕮 Understanding and producing speech E. Matthier and T.Roeper, Great Britain Fontana Paperbacks, 1983.

شكر وعرفان 4
إهـــــــــــداء.. 5
مـــقـــدمـــــــة.. 7

مدخل: فك التعاضل الاصطلاحي

1- المدلول اللغوي لكلمة خطاب 19
2- فما المدلول الاصطلاحي للخطاب 21
2-1 الخطاب- الكلام 26
2-2 الخطاب- التلفّظ 28
2-3 الخطاب ملفوظ أكبر من الجملة 30
3- التواصل اللغوي 33
3- 1 التواصل في بعض المعاجم العربية 34
3- 2 التواصل في معجم المصلحات اللغوية 36
3- 3 التواصل في معجم اللسانيات 37
3-4 التواصل في معجم (A.Moles Démoèl) 38
3- 5 التواصل في معجم تعلّم اللغات 38
3-6 التواصل عند السيميائيين العرب 39
3-7 نظرية التبليغ عند «بلومفيلد» (Bloomfield) 45

الفصل الأول: البلاغة والتحليل التداولي للخطاب

I- البلاغة الكلاسيكية والخطاب 50
I-1- البلاغة وجمالية اللّغة 51
I-2- الشعر معياراً للبلاغة 53
I-3- بلاغة القرآن أم بلاغة الشعر 58

I-4- خصائص البلاغة 60
I-5- معيار الوظيفة 61
I-6- وظيفة البلاغة القديمة 63
1-8- موقع المستمع في الدراسات البلاغية 66
II البلاغة الجديدة والخطاب 75
II-1- بلاغة البرهان عند «بيريلمان» 77
II-1-1- كيف يكون الخطيب فعّالا ومؤثّرا من منظور «بيريلمان» .. 79
II-1- 2- موقف المتلقي إزاء الخطيب 81
II-1-3-كيف نتفادى وسم الخطاب بأنه مجرّد إجراء 81
II-2- البلاغة البنيوية العامة 84
II-2-1- العمليات الجوهرية 85
II-2-2- العمليات العلائقية 86
II-2-3- طبيعة الاستجابة الجمالية للنص ووظيفته البلاغية من وجهة نظر البلاغة الجديدة 89
III- التحليل التداولي للخطاب 91
IV- عملية الفهم ضمن إطار الوظائف الاتصالية للخطاب النصّي 99
IV-1- تحليل عمليات التلقي وتأثيرها 100
IV-2- مبدأ الملاءمة (الإصابية) 103
IV-3- أنواع الفهم 105
IV-4- عوامل تكوين فهم الخطاب 111
IV-4-1- التوقعات 111
IV-4-2- الأحكام المسبقة 113

IV-4-3- الصّفات الشخصية للمتلقي 113

الفصل الثاني: الخطاب الإقناعي -وسائله ومجالاته-

I- الإقناع 120
I-1- مفهومه 120
I-2- بعض نظريات الإقناع والتأثير 125
I-2-1- نظرية التاءات الثلاثة 127
II- وسائل الإقناع 129
II-1- الوسائل المنطقية-الدلالية ضمن نظرية أنواع النصوص 129
II-1-1- الحجاج 129
أ- مفهومه 129
ب- حقول الحجاج ومجالاته الاستعمالية 142
II-1-2- الاستدلال الحجاجي 179
أ- مفهومه 179
ب- وظيفة الاستدلال في اللّغة الطبيعية 186
II-1-3- نظرية أنواع النصوص 187
أ- الوظيفة النصيّة معيارا أساسها 187
ب- الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي 189
II-2- الوسائل اللغوية 196
II-2-1- بنية التكرير 196
أ- تكرير الشكل 201
ب- تكرير المضمون 204
II-2-2- بنية التوازي 208

أ- التوازي عند هاليداي 208
ب- نظرية التوازي في فن الإلقاء الإقناعي 211
ج- التوازي في اللّغة العربية 214
د- التوازي من المنظور الغربي 217
هـــ- التوازي وشعرية الإلقاء الخطابي وأثرهما في الإقناع 220
II-2-3- بنية الازدواج 238
II-3- وظيفة الآليات السيميائية في الإقناع 245
II-3-1- تعريف السيمياء 245
II-3-2- الأدوات والوسائل الخطابية الإشارية 246
أ- العلامة 246
ب- الإشارة 247
ج- حركة الجسد 248

الفصل الثالث: الخطاب الإقناعي في منتخبات من خطب الحجاج

I- وسائل جلب الانتباه 256
I-1- الصّمت 256
I-2- الأبيات الشعرية 257
I-3- الجمل الإيقاعية 261
I-4- الإشارة 263
II- الأدوات الإجرائية التداولية في منتخبات الحجاج 267
II-1- التحاور 267
II-2- الفاعل 268
II-3- بنية الدعاء 270

II-4- بنية الاستدراج 276
III- صور الحجاج في منتخبات الحجاج 284
III-1- القياس الخطابي 285
III-1-1- التعارض والتضاد 285
III-1-2- التقسيم المستقصي 290
III-2- المثل 291
IV- الانسجام مع الخارج 293
IV-1- الأسلوب 296
IV-2- السلطة الخطابية 300
IV-3- سعة الاطلاع 305
V- البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحجاج (الدلالة والإيقاع) ... 310
V-1- بنيه التكرير 312
V-1-1- أنواع التكرير في خطبة الولاية 313
V-2- بنية الازدواج 318
V-3- بنية التوازي 326
V-4- وظيفة الصور البيانية 337
VI- الوسائل غير اللّغوية المصاحبة للخطاب 342
خـــاتــمـــــة 345
المـــــلاحـــق 351
الملـــخّـــص 353
قائمة المصادر والمراجع 355
فهرس المحتويات.. 372